أحمد بهاء الدين

شرعية السلطة
فى العالم العربى

المسلمون متخلفون عن الإسلام
معنى القانون
معركة حقوق الإنسان
إعادة كتابة التاريخ العربى ٢١٦ سلاوى
العالم كله منذ الوحدة العربية
المثقفون والسلطة

دار الشروق

شرعيّة السّلطة

في العالم العربي

© دار الشروق

القاهرة: ١٦ شارع جواد حسني - هاتف: ٧٧٤٨١٤ - برقيا: شروق - تلكس: 93091 SHROK UN

بيروت: ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف: ٣١٥٨٥٩ - ٣١٥٠١٤ - برقيا: داشروق - تلكس: SHOROK 20175 LE

احمد بهاء الدين

شرعيّة السّلطة

فى العالم العربى

دار الشروق

مقـــدمة

عندما تفضلت «دار الشروق» بجمع المقالات التى كتبتها طوال خمس سنوات، باقتراح نشرها فى كتاب، وجدت أن المهمة بالغة الصعوبة.

فالبلاد العربية دون استثناء مــرت بتحــولات وتــطورات عنيفــة، وامتحانات بالغة القسوة.. حضاريا وسياسيا واجتماعيا وفكريا.

واحترت أى الكلام بقى له معنى، وأى الكلام أجدر به أن يــطوى فى غمار النسيان، بعد أن تجاوزته الحوادث...

هذا فضلا عن أن هذه المقالات تكون حجما ضــخما، واهتمــاماتها متشعبة فى الزمان والمكان والموضوع.

وقد حاولت جهدى، أن أختار من الموضوعات، لكى تكون بين دفتى هذا الكتاب، تلك التى تتصل بقضايا مازالت تعيش معنا، ولعلها ستعيش معنا طويلا، لأنها متعلقة بالأفكار والمبادئ والملامح الأساسية، والتى لم يتوصل المجتمع العربى فيها إلى صيغة مرضية للمواطن العربى إلــى الآن. والتى ستبقى محل جدل حتى يجتاز عالمنا «مرحلة الانتقال» التى يمر بها.. وحتى نجد الصيغة التى اصطلح على تســميتها «الأصــالة والتجديد». والتى بدأ النقاش فيها منذ أكثر من قرن، مع بزوغ حــركة التنوير العربية فى مصر، ثم فى باقى البلاد العربية على التوالى...

ولعل ما بقى من معالجات، وهو كثير، يجد خيطا يــربطه فى كتــاب آخر...

أحمد بهاء الدين

يناير ١٩٨٤

نحن.. والحاضر
شرعية السلطة فى العالم العربى

سألونى، عن التحديات التى تواجهها القومية العربية..

وكان ذلك فى ندوة عامة، فى مقر رابطة الأدباء، فى عمان، بالأردن.

وقلت لهم: إن التحديات التى تواجه القومية العربية كثيرة، منها مثلا الوصول بها إلى نوع من أنواع الوحدة العربية. ومنها حل مشكلة التخلف الاجتماعى والاقتصادى. ومنها تحدى المحافظة على الاستقلال القومى بين تيارات وعواصف القوى الكبرى. ومنها تحدى الحفاظ على الثروة البترولية الاستراتيجية وحسن استثمارها.. إلى آخره.

ولكننى، قلت لهم، أفضل أن لا أتحدث عن «التحديات الخارجية» المعروفة، وأن أركز على ما يمكن تسميته «تحديات داخلية»، أى تحديات فينا وفى نفوسنا ومجتمعاتنا. ذلك أننى أعتقد أنه لو استقامت أمور الأمة العربية الداخلية، وحياتها مع نفسها، لتغير الموقف تماما بالنسبة لكل شىء. وحتى التحديات الخارجية سوف يتغير وضعها وسوف تسهل مواجهتها إلى حد بعيد.

وقد اخترت من هذه التحديات، ثلاثة..

ثلاثة أمور تحتاج إليها المجتمعات العربية بدرجات متفاوتة. وقد تبدو للبعض نوعا من الترف الشكلى، لأنها «صفات» و«قيم» وليست «أشياء مادية». ولكن الواقع أن الحاجة إليها صارت ماسة بل ومتفاقمة.

فالقوة المادية لا يمكن أن تأتى إلا فى أعقاب قوة معنوية.

وكل مجتمع ناهض، لم يحقق نهضته وتقدمه المادى إلا بعد أن استتبت لديه «قيم» و«مؤسسات» و«نظم» تسمح بقيام هذا التقدم المادى واستقراره على أساس متين.

إن من الشعارات البراقة الرائجة هذه الأيام، فى المؤتمرات وعلى أقلام الباحثين وألسنة الزعماء والحكام.. عبارة «نقل التكنولوجيا»، التى نستخدمها فى إطار البحث عن سبل تطوير وتقوية مجتمعاتنا العربية..

ولكن التكنولوجيا لا يشتريها المال. ولا ينقلها عشرات أو مئات من الخبراء الذين يتعلمونها فى الخارج. هذه وسائل مساعدة. ولكن التكنولوجيا لا تنتقل حقا وتصبح لها جذور إلا فى تربة صالحة ومهيأة لذلك. والتربة لا تكون صالحة إلا إذا توافرت لها ظروف سياسية واجتماعية واقتصادية وفكرية معينة..

وحتى لا يظن القارىء أننى أشغله بقضية هامشية أسرد قصة صغيرة سردتها قبلا فى مجال آخر، تدل أى إنسان مدرك للمسئولية، إن البلاد لا تتقدم بالصناعة والزراعة واصلاح التليفونات وحدها!

منذ أكثر من عشرين عاما، وأنا فى مطلع حياتى الصحفية، تعرفت بحكم المهنة على الملحق الصحفى الشاب فى سفارة اليابان بالقاهرة (وقد لقيته بعد ذلك سفيرا لليابان فى دولة الكويت ثم مديرا لأحد أكبر بنوك اليابان). وعرفت منه بالمصادفة يوما أنه يواظب على حضور حصص اللغة العربية فى مدرسة المنيرة الثانوية فى شارع المبتديان. ودهشت. وقلت له إن هناك وسائل أخرى أسهل لتعلم العربية بالنسبة له. وقتها قال لى: إنه حقا مبعوث ليعمل ملحقا صحفيا لليابان فى مصر.

ولكن مطلوب منه شيئا آخر، هو دراسة اللغة العـربية دراسـة دقيقـة عميقة تمكنه من أداء غاية معينة بعد سنوات وهـى: تـرجمة كتـاب «مقدمة ابن خلدون» إلى اللغة اليابانية.

هذه الواقعة الحية، لا تبرح ذهنى أبدا. فكتاب مقدمة ابن خلـدون من أهم كتب التراث العربى القديم. وهو من أهم مراجع علم الاجتماع فى العالم كله. ولذلك لم تكتف اليابان بأن يطلع عليه المتخصصـون فى لغات أخرى ــ إنجليزية وفرنسية ــ ولا إلى إشارات المؤلفين العالميين إليه. ولكنها كلفت أحد أبنائها بالقيام بهذا الجهد سنوات طويلة، حتـى يوجد هذا الكتاب كاملا، فى لغة اليابان، متـاحا لـكل شـاب أو دارس يابانى، فى علم الاجتماع!

وقتها، كانت اليابان خارجة من كبوتها وهزيمتها فى الحرب العـالمية الثانية. لم تكن قد هجمت على العالم كله بعد بسياراتها وترنزيستوراتها وتلفزيوناتها وكل صناعاتها التى تذهل العالم وتـزعزع أغنـى الـدول الصناعية الأخرى.

والبعض يظن ــ فى سطحية ــ أن اليابان عكفت على اتقـان هـذه الصناعات وحدها!

كلا! فنفس الجهد الذى كانت تبذله اليابان فى مجال البحث العلمـى والانتاج الصناعى كانت تبذله ــ بالتوازى ــ فى مجالات البحث الأخرى كالعلوم الانسانية.. وتترجم مقدمة ابن خلدون من العربية رأسـا إلـى اليابانية.

عرفت اليابان قيمة الكلمة والورقة كما عرفت قيمة الجهاز الالكترونى الصغير!

ويغير هذا ما كانت اليابان لتحرز ما أحرزته من تقدم مذهل!

ففى حياة كل الأمم، لم يحدث أبدا أن تم التقدم فى مجال واحد دون مجال. المجتمع أو الشعب إما أن يتقدم فى كافة المجالات، لأنها تكمل بعضها، وإما أن لا يتقدم!

والتقدم غير القوة المادية العابرة!

● ● ●

وقد اخترت ثلاثة تحديات داخلية، أو ثلاثة أشياء علينا أن نحققها فى بلادنا أولا، ونقيم عليها حياتنا، ونجاهد فيها أنفسنا..

أولا: الديمقراطية وحرية الرأى، وأمرهما واضح.

ثانيا: العقلانية، وليس ذلك معناه إلغاء العاطفة. فالعاطفة فى حياة الشعوب أمر أساسى. حب الوطن عاطفة. وحب العدل عاطفة. إنما علينا أن نقرن التأثر بالعاطفة مع درجة كافية من العقلانية، فيكون فكرنا وتصرفاتنا وسياساتنا كلها قائمة على العقل والقلب معا.

ثالثا: الشرعية..

وقد تكون «الشرعية» هى أكثر «الشروط» حاجة إلى الايضاح والتفسير. ذلك أنها تختلط، من الوهلة الأولى، «بالقانونية»، أى بالجانب القانونى، والشكلى، للشرعية.. فى حين أنها فى مجال فلسفة السياسة والحكم أوسع من ذلك وأعمق فى معناها ومغزاها..

المفكر السياسى «ماكس ويبر» يقول: «بدون الشرعية، فإن أى حكم، أو نظام، يصعب عليه أن يملك القدرة الضرورية على «إدارة الصراع» بالدرجة اللازمة لأى حكم مستقر لفترة طويلة».

وهذا صحيح. فالحكم فى محاولته امتلاك عنان الأمور، والقدرة على مواجهة المشاكل والتحديات، تختلف قدرته وكفاءته اختلافا كبيرا.. بين حالة يكون فيها الناس معه، وحالة يكون فيها الناس ضده. أو ليسوا معه. سواء كانوا ضده بالاعتراض والرفض والمقاومة. أو بالسلبية، والاهمال وعدم التفاعل معه.

وأى حكم، قد يتمكن من تحقيق «استمرار وضع ما» عن طريق القوة، أو العادة.. ولكن العلاقة بين الحاكم والمحكوم تظل قلقة، مصدر ضعف للسلطة وللوطن معا «إلى أن يقتنع المحكوم بجدارة الحاكم، وأحقيته فى أن يحكم ويدير له أموره عنه».

فاقتناع الشعب «بأحقية السلطة وجدارتها»، هذا الاقتناع هو جوهر الشرعية ومغزاها. لا تغنى عنه كل أشكال السطوة والرهبة والنفوذ. حتى ولو أحاطت نفسها بعشرات الدساتير والقوانين!

ويقول دافيد أيترن فى هذا المعنى ذاته «.. قد يقبل المواطن بسلطة الحكم عليه لألف سبب وسبب. ولكن الشرعية هى أن يجد المحكوم أن من المقبول عنده، والمناسب له، أن يطيع متطلبات النظام السياسى القائم، إذ يجد أنها تتسق مع قيمه ومبادئه وأخلاقياته وأمانيه. ذلك ليس لمنفعة شخصية مباشرة له، ولكن بمعنى المنفعة العامة وعلى المدى الطويل».

والشرعية بهذا المعنى أوسع من التأييد أو المعارضة. فقد يكون هناك من يعارض السلطة. وقد يتذمر الناس من بعض قراراتها وسياساتها. ولكن هذه أمور طبيعية بل وحتمية. لا تنفى الشرعية، طالما شعر المواطنون أن السلطة فى توجهها العام، سلطة وطنية، منطلقية مع

التاريخ الوطني، ومخلصة فى المجموع لارادة الشعب، وللقيم العامة التى تربط أبناء الوطن الواحد بعضهم ببعض.

ولتوضيح هذا المعنى نعطى نموذجا من بلد عربى يصعب فيه قيام الشرعية إلى حد بعيد، كصورة «متطرفة» نفهم منها «روح الشرعية». وهذا النموذج هو لبنان.

فى لبنان، يصعب الحديث عن «قيم واحدة وإرادة وطنية عامة.. الخ» تجمع بين كل أبناء شعب لبنان. فلبنان قام على توازن طائفي. وتكرس هذا التوازن الطائفى فى مصالح اقتصادية وانتماءات سياسية شتى. وزادت هذه الأوضاع تعمقا بعد الاستقلال بدلا من أن تزول. فالمارونى والسنى والشيعى والدرزى، لا يمكن الكلام عن «تصور عام واحد لمصلحة الوطن» الذى يضمهم جميعا. ولا يمكن الكلام عن «مستقبل واحد» يتصورونه ويطمحون إليه كلهم على السواء. وتعمق ذلك بأن التعليم الوطنى لم يوجد بل وجد أكثر من تعليم. كل تعليم يعلم أبناءه صورة مختلفة عن الوطن. والمؤسسات الوطنية كالجيش والبوليس والقضاء لم يتم الاحساس بأنها للوطن كله، إنما يحسبها كل فريق له أو ضده حسب وضعه وانتمائه.

كانت الشرعية الوحيدة فى لبنان قائمة على أساس ضعيف وهو: إتفاق الأطراف على نصيب كل طرف من «الكيان الواحد». فظل الكيان كيانا ولم يتحول إلى وطن. وحين اختلف الأطراف على الأنصبة فى هذا الكيان، وحين وقعت فى المنطقة أحداث وضعت هذه الأطراف أمام اختيارات حاسمة بالنسبة لهويتها وانتمائها، فاختلفت هذه الاختيارات.. حين وقع هذا إنهارت «الشرعية» وقامت الحرب الأهلية..

لبنان صورة متطرفة، ولكن قيمتها أنها تشرح لنا فكرة الشرعية الأساسية..

الصورة الأخرى الواضحة التي تبين لنا أن «السلطة الشرعية» غير مجرد الوجود في الحكم هي صورة الاحتلال الأجنبي.

قد تحتل دولة من الدول دولة أخرى. وقد يستمر الاحتلال مائة أو مئات من السنين. ولكن مجرد الوجود في السلطة هذا الزمن لا يجعلها شرعية، لأنه لا يتصور أن يكون هناك احتلال ما يتفق مع رغبة الناس، ويعبر عن إرادتهم ويترجم أمانيهم ولو بأضعف المعاني.

إنه وجود بحكم القوة لا بحكم الرضا. إنه «استمرار» لا «استقرار». إنه اغتصاب للسلطة وليس تفويضا بها.

وإذا كانت صورة الاحتلال الأجنبي أيضا صورة متطرفة، إلا أنها كذلك تشرح لنا جانبا آخر من جوانب فكرة الشرعية.

وحتى الثورة، إذا كانت ثورة حقا. فإن هدفها النهائي يفترض أن يكون «إقامة شرعية جديدة». بل إن ما يفرق بين الثورة وبين الانقلاب هو هذا المعيار الهام. الثورة والانقلاب كلاهما يغتصب السلطة. ولكن الثورة تغير المجتمع وتقيم شرعية جديدة يعيش بها مرحلة استقرار جديدة، أما الانقلاب فهو يغتصب السلطة فحسب. وإذا بقي فيبقى باغتصاب السلطة المستمر، وليس بمنطق شرعي جديد مستقر.

وقد يحيط مغتصب السلطة نفسه بكل «أشكال» الشرعية. فأي حكم قد يتمكن عن طريق القوة من إقامة برلمان مثلا وإجراء انتخابات، وإصدار قوانين وتشريعات. ولكنها تبقى كلها ستائر تخفي عدم الشرعية ولا تحل محل الشرعية. فالقانون ليس أي ورقة عليها توقيع الحاكم.

القوانين أحكام خارجة من ضمير الناس معبرة عنهم فى الأساس. وما عدا ذلك فهو قوانين لا تساوى فى ميزان الشرعية أكثر من ثمن الحبر الذى كتبت به.

وترى الناس فى مثل هذا الوضع تتلقى هذه القوانين بالاذعان. وقد تنفذها عن خوف. أو قد لا تقاومها عن سلبية وعدم اقتناع. ولكنها ليست بالنسبة لهم «مشروعة». وليست لها فى ضمائرهم أية مرتكزات.

وكما قلنا إن الشرعية غير «القانونية الشكلية». وغير مجرد القدرة على البقاء فى السلطة. وإنها تختلف عن التأييد والمعارضة لقرارات السلطة. كذلك فإن الشرعية غير الوصف السياسى لنظام الحكم: ملكيا أو جمهوريا. موروثا أو جديدا، فالملكية والجمهورية وغيرهما من نظم الحكم، لا ترتبط بالضرورة بالشرعية. لأن الشرعية كما هو واضح مما سبق ذكره هى معيار مستمد من «نظرة الرعية إلى السلطة» وليست مستمدة من طريقة وجود السلطة أو الأسلوب الذى سلكته للوصول إلى الحكم. إنما هذه أشكال للسلطة وليست هى التى تحدد ما إذا كان موقع السلطة من الناس هو موقع «القوة» أو موقع «النفوذ». والسلطة، فى كل زمان ومكان، تحتاج إلى القوة لضبط حياة المجتمع. ولكنها لا تكون شرعية إذا كانت تعتمد على «القوة» فقط. إنما تكون «شرعية» إذا كان لها لدى الناس «قوة النفوذ» لا «نفوذ القوة». فمن غير هذه الرابطة المعنوية بين السلطة والرعية.. لا تكون هناك شرعية!

● ● ●

وإذا كنا نسوق هذه الأحاديث النظرية كلها، فإن الغاية ليست الغرق فى النظريات..

إنما الغاية إن نقول أولا إن «الشرعية» بهذا المعنى عنصر حاسم فى قوة الشعوب والدول أو ضعفها. وأن نقول ثانيا إن الشرعية بهذا المعنى غائبة أو ضعيفة فى كثير من أقطارنا العربية. وأن نقول ثالثا ان الأحداث إذا كانت قد علمتنا أهمية الديمقراطية والعقلانية فقد آن لنا أن ندرك الأهمية الكبرى للشرعية.. لأن الشرعية فى النهاية هى الانسجام بين الحاكم والمحكوم. وبغير هذا الانسجام الداخلى لن ترقى لنا حياة فى داخل بلادنا، ولن يقوى لنا عود فى خارج بلادنا، ولن يكون فى سياساتنا وممارساتنا أى انسجام.

ولكن السؤال الذى لابد أن يطرحه القارىء هو: إذن، كيف نتعرف على وجود هذه الشرعية من عدم وجودها.. وقد قلنا إنها غير «القانونية»، وغير «السطوة» وغير الأشكال الدستورية؟

وهو سؤال وجيه..

وقد تكون الاجابة عنه غاية فى السهولة والبساطة.. وقد تكون غاية فى الصعوبة والتعقيد!

يمكن أن تكون الاجابة غاية فى السهولة، إذا قلنا: لنترك كل هذه الحذلقات جانبا. ولنلجأ فقط إلى حس الناس البسيط وفطرتهم السليمة. ما هو شعورهم العام لدى الحكم القائم لديهم؟.. هل يشعرون أنه يمثلهم، يناسبهم، ينتمى إليهم؟ إذن فالحكم شرعى (مرة أخرى، بصرف النظر عن الموافقة أو المعارضة لبعض قرارات السلطة، فهذا أمر عادى) وهل يشعرون بغربة مع نظام حكمهم، بعزلة عنه، بانقطاع الصلة بينهم وبينه؟ إذن فهو حكم لا شرعية له!

وهذه حالة لا تخفى على أى مراقب عادى.

أما إذا حاولنا بعض الاجابات الصعبة، فإننا نحاولها أساسا لكى نتعرف على المزيد من ملامح الشرعية أو عدم الشرعية، ومن الصفات السلبية التى يشعر بها الحاكم والمحكوم معا..

فنحن نلاحظ أننا لو أخذنا مثلا سياسة أى بلد متقدم، له نظم سياسية مستقرة، فرنسا مثلا أو إيطاليا أو أى بلد من هذا النوع، سنجد أن البلد قد تتغير أحزابه الحاكمة، وقد تتبدل وزاراته ولكن سياساته العامة ثابتة. عناصرها واضحة. توجهاتها معروفة مقدما. ردود فعله يمكن التنبؤ بها إلى حد كبير.

لكننا أحيانا ما نجد بلادا عربية سياساتها عرضة للتقلبات الحادة حتى دون تغير الوجوه والأشخاص. أهدافها مغلفة بالغموض، دوافعها إما الخوف من المجهول وإما أن هذه الدوافع لا توجد معلومات كافية عنها لدى المواطنين. والاعتبارات الشخصية لها قدر كبير فى توجيه هذه السياسات.. بسبب المزاجية، واعتبارات المجاملة، والعلاقات الفردية بين الحكام، والنزعات العاطفية. وبالتالى فإننا نجد رد فعل الرأى العام إزاء هذا هو إما المقاومة، والحالة هنا تكون واضحة، وإما السلبية المطلقة، وعدم توافر «المصداقية» وعدم القدرة لدى الناس بالتنبؤ عن اتجاهات السلطة، وعدم استبعاد أن تنقلب هذه الاتجاهات فجأة بين يوم وليلة. وعدم توافر المبررات والأسباب والمعلومات الكافية لدى المواطن.

ونحن نجد أن معظم النظم العربية، باختلاف ظروفها التاريخية وأوصافها الدستورية والبيئات التى أفرزتها، تعد المواطن بنفس الأشياء تقريبا. وتتحدث بلهجة تكاد تكون واحدة فى أمور كثيرة. ولكن هذا يتعارض مع الواقع المؤلم. فهناك مسافة واسعة بين المبادىء التى يبشر

بها وبين حقائق الممارسات السياسية والادارية. وتكون النتيجة احباطا عاما لدى المحكومين وعزوفهم عن الاهتمام الجدى أو المشاركة الفعلية أو مجرد التصديق. وأحيانا يكون هذا الاحباط عند الحكام أنفسهم إذا كانوا حسنى النية ولا يدركون العلة. وذلك بسبب إحساسهم ـ لعدم توافر المصداقية هذه ـ بعدم القدرة على تحقيق طموحاتهم، أو على العثور على صيغة لتنفيذ سياساتهم، واصطدامهم بعقبات كالسلبية أو الفساد، وإنتشار روح الانتفاع أو عدم تفهم الناس لأهداف السلطة أو ربما عزوفهم عن مجرد محاولة تفهمها!

والمثل الذى يضربه «مايكل هدسون»، الأستاذ الأمريكى صاحب كتاب «البحث عن الشرعية فى العالم العربى» هو حكاية محاولة القيام بإحصاء علمى لعدد السكان. فالناس أحيانا يكذبون فى الأرقام التى يقدمونها حتى عن هذا الشىء البسيط. أحيانا لتخلفهم. وأحيانا لخوف موروث من كل ما هو آت من «السلطة» وشكهم فى نواياها ودوافعها.

ويعتقد نفس المؤلف «مايكل هدسون» أن أكبر عقبة فى طريق الشرعية، هو عدم توافر المساواة بدرجة كافية. وهو لا يقضى بالمساواة كما تفسرها النظم السياسية والاقتصادية المختلفة. فكما أننا نقصد الشرعية بمعناها الواسع الرحب فكذلك يرى أن الناقص هو توافر المساواة بمعنى واسع ورحب. فالناس فى العصر الحديث ترى فى الاحساس بالمساواة شرطا أساسيا لتقبلها الاختيارى لوضع ما. والمساواة معناها العدالة، ومعناها روح الانصاف، ومعناها الجدية فى القوانين المنسجمة فى نظر المواطن مع المنطق وصدق الرغبة فى تنفيذ هذه القوانين، ومعناها المعقولية فى التصرفات، وعدم التحيز لمذهب أو عقيدة أو فئة.

وقد تكون صعوبة تحقيق «الشرعية» كامنة فى الشعوب نفسها، قبل حكوماتها. هذا بوجه عام حال معظم الشعوب النامية. خصوصا تلك التى لم يتحقق لها من قبل «انسجام وطنى» بدرجة كافية. فهناك شعوب تسهل مهمة إقامة «الشرعية» فيها، مثل مصر، حيث جعلتها ظروفها التاريخية شعبا مندمجا متكاملا له بوجه عام نفس القيم والمعايير والانتماءات.

فمصر ليست مقسمة إلى طوائف. لا يقال فيها إن هذا سنى وذاك شيعى مثلا. وحتى الأقلية القبطية الكبيرة فيها مستوعبة فى إطار الأغلبية، حيث لا يوجد مثلا إقليم يتركز فيه الأقباط إنما هم فى كل قرية ومدينة جنبا إلى جنب مع المسلمين. وليس فيها تعصب لاقليم دون إقليم. فإذا تشكلت وزارة لا يسأل أحد إذا كان هذا الوزير من طنطا أو من أسيوط. بعكس الصورة المتطرفة الأخرى فى لبنان حيث يراعى تمثيل الطوائف. وداخل الدين الواحد يراعى تمثيل السنة والشيعة، وتمثيل الموارنة والأرثوذكس مثلا. وداخل المذهب الواحد فى الدين الواحد يراعى تمثيل سنة بيروت وسنة طرابلس. وشيعة الجنوب وشيعة بعلبك والهرمل، وهكذا.

وحين قاد هوارى بومدين مثلا حركة التعريب فى الجزائر وألزم الكل باستخدام اللغة العربية بعد تاريخ معين، كان يقضى على أحد أسباب التفرقة ويضع أحد أسس إمكانية قيام الشرعية (بعكس لبنان كما ذكرنا حيث لم يوحد التعليم بعد الاستقلال).

وفى مرحلة الانتقال من الوطنية إلى القومية العربية، تعارضت - وما تزال - الولاءات. فالولاء للوطن المحلى أم للأمة؟ ويجب أن نعترف بهذه الحقيقة ونحن نتحدث عن القومية العربية. فتلك إحدى أهم

قضاياها التى يجب حلها، بتحقيق الانسجام بين الأهداف الوطنية والأهداف القومية وليس بترك الساحة لنمو التناقر بينهما.

ثم إننا عندما نتأمل أهم عنصر يؤثر فى حياة الأمة العربية ويربط بينها، نجد أن هذا العنصر هو الاسلام بغير جدال..

ولكن لأننا شعوب نامية، ولأن نسبة الأمية فى بلادنا فوق السبعين فى المائة، ولأننا فى مرحلة تحول وتطور سياسى واجتماعى وحضارى، نجد أننا حتى فى نظرتنا إلى هذا العنصر الموحد لنا، مختلفون.. بعكس الغرب مثلا حيث نجد أن نظرته إلى المسيحية واحدة. (بصرف النظر عن المذاهب والخلافات، وحتى ما بين المؤمن والملحد من تباعد). أما نحن فإننا على العكس: فريق يركز فى نظرته إلى الاسلام على السلطة والطاعة وعلى العقاب بوجه عام.

وفريق يركز فى نظرته على العدالة والمساواة والشورى والتسامح..

ولابد لنا من نظرة شاملة تضع كل عناصر الاسلام فى إطار واحد متوازن ومتكامل. ونظرة شاملة إلى التراث والانتقاء منه والتمييز بين ما كان سببا فى تطور المجتمع الاسلامى وبين ما علق به فى فترات اضمحلاله وتخلفه..

وللشرعية حديث آخر طويل، وتشعبات أخرى كثيرة، تشمل أمور الحاكم وأمور المحكوم معا..

«معنى القانون»
وحديث الذكريات.. والسنهورى.. وكلية الحقوق

احتفلت كلية الحقوق فى جامعة القاهرة بمرور مائة سنة على انشائها.. فهى أقدم كلية من نوعها فى العالم العربى والشرق الاوسط.

ولعل خريجيها، من كل أبناء العالم العربى، وخريجى حقوق «الاستانة» أو القسطنطينية، أيام كانت عاصمة الامبراطورية العثمانية المسيطرة على العالم العربى كله ماعدا مصر، هم الذين قادوا وشكلوا السياسة فى كل العالم العربى خلال حقبة طويلة من الزمن.. ربما سادت حتى هزيمة حرب فلسطين الاولى سنة ١٩٤٨، إذ بدأ حكم «الحقوقيين» يتزعزع ويتراجع. بعد أن طغى السيف على القانون. وربما كانت هزيمة ١٩٤٨ ذاتها هى التى اقنعت العرب زمنا طويلا بعدم جدوى القانون أمام السيف مهما كانت القضية عادلة.

وأن «الحق فوق القوة، والأمة فوق الحكومة» كلمة جميلة أطلقها أشهر حاملى شهادات القانون، سعد زغلول، اهتزت بها أعواد المنابر زمنا.. ولم يهتز بها شىء آخر بعد!

وكم كنت حزينا، لأننى كنت بعيدا عن القاهرة يوم احتفلت كلية الحقوق بالعيد المئوى لها. ذلك أننى أحد خريجى تلك الكلية العتيدة، التى طبعت موجات الأثير على جدرانها عددا من أعظم الأصوات التى عرفتها مصر والعروبة. وإذا كنت لم اشتغل بالقانون إلا قليلا، إلا أن الأثر الذى تتركه كلية الحقوق فى نفس تلميذها لا ينمحى، إذا كان قد

دخلها عن حب وشغف، لا عن طريق تقليعة «مكاتب التنسيق» ثم إننى إذا كنت قد تركت العمل بالقانون إلى مهنة الـكتابة والصـحافة بعـد حوالى خمس سنوات فقط، إلا إننى كثيرا ما اكتشف فجأة أننى مازلت اشتغل بالقانون من ناحية، ربما تركت ما نسميه «بـالقانون الخـاص» وهى القوانين المدنية والجنائية وغيرها، الا إننى بقيت ـ ككاتب ـ على صلة دائمة بما نسميه «القانون العام»: أى الاقتصاد والعلوم السياسية والقانون الدولى والقانون الدستورى والقـانون الادارى.. أى القـوانين التى تنظم حياة المجتمعات والشعوب والدول، وليس الحيـاة الخـاصة للأفراد... كما هو الحال فى كل ما نسميه «القانون الخاص»...

ولكن الأهم من ذلك، إننى فعلا اكتشف عادة إننى مـازلت أشـتغل بالقانون، لأننى دائما أجد نفسى متلبسا بالتفكير فى أى موضوع بطريقة «قانونية». أو بطريقة متأثرة بالتفكير القانونى إلى حد بعيد.

ذلك أن دراسة القانون تعلم المرء طريقة خاصة فى التفـكير. تـزود صاحبها بما يشبه «الترموستات» أو منظم درجة الحرارة، يقرأ الانسان فى الآداب، ويحلق وراء الفنون ،ويجوب آفاق الفلسفة.. وهذه أشياء ربما كانت هى جوهر الفكر، ولكن من درس القانون ـ فيما يخيـل لـى ـ يجوب هذا كله وقد ربطه التفكير القانونى إلى أرض واقعية معينة. فهو ينظم تفكيره، ويضع فى صدره ميزانا دائما يزن به كل ما يعرض له من أفكار وأمور. ويخلصه من تيارات «الفن للفن» و «الفكر للفكر» فى حين يربطه بأن الفن للحياة. والفكر للحياة. والسياسة للحياة. وكل شىء بدؤه ومنتهاه الحياة. والناس. وأن الرؤية المتأثرة بالقانون هى الفـرق بيـن أحلام اليقظة وأحلام التطبيق. أو بين تهويمات الخيال ورؤى الحقيقة.

ولست هنا أفاضل بين شيئين. فحياتنا بلا أحلام لا تساوى شـيئا.

وبغير الأحلام لا تتحقق الأشياء العظيمة. ولكن حياة تقوم على الأحلام هى بالونات ملونة تطير فى الهواء وتضيع. ليست مركبات فضاء محددة الغرض، محكمة التوجيه.

ثم...

هل هناك قضية دارت حولها حياة المجتمعات الانسانية منذ نشأت، ولا تزال، أكثر من قضية «الحق والواجب؟» وهى قضية القانون. أليس القانون هو الوسيلة البشرية لتنظيم الحياة.. ابتداء من تنظيم حركة المرور فى الشارع إلى علاقات الدول ببعضها البعض فى البر والبحر والفضاء؟

كل إنسان يتفتح وعيه لأول مرة على شيء مختلف. هكذا الحياة. لو كانت زهورها بلون واحد واشجارها بطول واحد لفقدت جمالها. بل لصارت جحيما. ونفس الحال فى البشر. لو كانوا على شاكلة واحدة ونمط واحد لفقدت الحياة مذاقها بل وربما مغزاها. والاخوة فى البيت الواحد كثيرا ما يتباينون رغم كل عوامل الوراثة الواحدة والتربية الواحدة...

بالنسبة لى.. لا أذكر مهما حاولت التذكر أن أمرا استبد بى منذ البداية أكثر من تلك القضية: الحق والواجب، الظلم والعدل. وبالتالى الأداة فى كل هذا وهى القانون.

وكانت ترجمتها فى سن المراهقة هى الشغف الهائل بحضور القضايا الكبرى. والاستماع إلى المرافعات الرنانة. وكنت إذا قرأت عن محاكمة سياسية كبرى حدثت منذ عشرات السنين، ذهبت إلى دار الكتب، وطلبت مجلدات صحف تلك الفترة لأقرأ القضايا والمرافعات ومناقشات المحكمة كاملة بالتفصيل. وكان كل تاريخ مصر الوطنى فى الفترة السابقة فى يد

المحامين، وكانت المحاكم إحدى أهم ساحات الكفاح.

وكنت أرى نفسي وأنا صبي في شتى الأدوار داخل تلك الحلبة الرائعة: قاعة المحكمة. أحيانا ذلك القاضي الجالس على عرشه، أو ذلك المحامي بصوته المدوي وأحيانا المتهم الواقف في قفص الاتهام في ثبات بوصفه بطلا وسبب تلك الدراما كلها!

واستقر رأيي على أن أكون قاضيا. فهذه الهيبة والرهبة. وهذه الدقة والمتابعة واليقظة. ثم أخطر وأصعب شيء: حين يخلو إلى نفسه، وقد سمع أقوى الحجج من الجانبين، وعشرات الشهود المتناقضين، وكيف يمسك من وسط هذا كله بخيط الحقيقة، وتصدر من فمه الكلمة حاسمة ونهائية.

على أنني حين دخلت كلية الحقوق فعلا، دخلت في الواقع الجامعة بأكملها. وتفتحت أمامي مع سنوات الشباب كل فروع المعرفة. وكنت أحضر محاضرات كلية الحقوق وكلية الآداب وأحيانا غيرهما. وتلك ميزة الجامعة. إنها تعطيك كل المفاتيح. هذا ما يفرقها عن المدرسة. وحين يقرأ المرء الأدب والفلسفة ومذاهب الفكر المتلاطمة يجد أن العثور على الحقيقة ليس سهلا. بل إنه يكاد يكون مستحيلا؟ هذه مجالات تعلمك أن لكل رأي ألف وجه، وأن كل موقف له ألف تفسير. وأن المذنب قانونيا قد يكون هو البريء فكريا أو اجتماعيا أو حتى فلسفيا، ووجدت أن مهنة القضاء صارت لا تناسبني. إنها مهنة مستحيلة. أي عذاب وأرق وألم يكابده المرء حتى يقول «هذه هي الحقيقة»! مستحيل إنها ضد طبيعتي، عمل كل الموازنات وحساب كل الاعتبارات سوف يفضي بي إلى الشلل..

واتجه ذهنى إلى ذلك المترافع البليغ. إنه يأخذ جانبا واحدا ويحاول اثباته. وهذا أمتع وأسهل وأفخم. حتى لو كان يدافع عن قـاتل. فقـد قرأت أيامها ـ فيما قرأت من كتب المحامين الـكبار ـ كلمـة لمحـام إنجليزى كبير يقول «حين يقف المتهم فى القفص، مجردا من كل سلاح، محروما من أى صديق. والعالم كله يشير إليه بأصبع الاتهام. هنا لابـد أن يقف إلى جانبه شخص. هذا الشخص هـو المحـامى. وفى هـذا الموقف يكمن دوره المقدس!»

ولكنى حين تخرجت من كلية الحقوق، ومن الجامعة كلها، لأننى مرة أخرى كنت أشعر أننى طالب بالجامعة كلها. استمع إلى عبد المنعم بدر يدرس القانون كما أستمع إلى يوسف مراد يدرس الفلسفة.. اكتشفت أن مهنة المحاماة هى آخر ما يناسبنى! علـى الأقـل ذلك النـوع مـن المحاماة.

فليس من طبيعتى الانطوائية أن أواجه الجمهور وأتحدث كأننى على خشبة مسرح! ثم إننى كنت أقل من السن القانونية لممارسة المحاماة! ثم إن الكلمة المكتوبة صارت أوسع انتشارا من أعظم كلمـة تقـال فى قاعات المحاكم!

وكان حظى من ممارسة القانون أصعب جوانبه، بالنسبة لى: وكيـل نيابة. مهمتى أن أضيق الخناق على المتهم. وأن أثبت جريمته بدل أن أثبت براءته. ومرة أخرى جريمة بالمعنى القانونى، التى قـد يـكون فى نفسى ألف سبب ضد اعتبارها جريمة.

وبعد سنوات قليلة قفزت من زورق القانون بشكله المباشر، إلى زورق الصحافة والكتابة.. والبحث عن الحق والـواجب والقـانون بمعـانيها الأوسع.

وبعد..

فقد بدأت هذا الحديث وفى ذهنى أن يكون حديث ذكريات عن أساتذة عظام حتى وإن خالفتهم فى الرأى.. ولكننى سرت وراء فكرة القانون. ربما لأنها ناقصة فى حياتنا. أو لأنها غير مفهومة على وجهها الحقيقى. ولكنى قبل أن أستطرد وراء فكرة القانون أستأذن فى رواية الذكرى القانونية الوحيدة بعد تفرغى للصحافة...

كان المرحوم عبد الرزاق السنهورى باشا أكبر عقل قانونى أنتجه العالم العربى فى هذا القرن بغير شك. ولم ألحق به تلميذا فى كلية الحقوق. وإن كانت كتبه ظلت هى الأساس فى كل مجال كتب فيه، وإذا كانت شهرته فى القانون عالمية، فإننى كنت أراه من أفصح من كتبوا باللغة العربية. فكانت كتاباته القانونية من أرقى الكتابات الأدبية فى تقديرى.

ولم أكن ـ على البعد طبعا ـ من المعجبين بدوره فى الحياة العامة سواء فى آرائه فى التعليم كوكيل لوزارة المعارف، أو لتعاطفه مع أحزاب الأقلية ضد حزب الوفد.

فلما تأسس مجلس الدولة لأول مرة، وكان أول رئيس له، قبل ثورة ٢٣ يوليو ٥٢ بسنتين تقريبا، صار بطلا قوميا لدى كل فئات الشعب فى مصر، كانت المعركة السياسية على أشدها قبل الثورة، وكانت معظم المواجهات السياسية تنتهى إلى مجلس الدولة، وكان يصدر أحكاما قضائية بلغت القمة فى شجاعتها، ونزاهتها، ودقتها فى مراعاة القانون، وعمقها فى تطبيق «روح القانون»، وهو الأصعب والأهم. كانت رئاسة مجلس الدولة إحدى التحولات الكبرى فى حياة مصر قبل الثورة.

وبعد الثورة، اقترب منه منصب أول رئيس لجمهورية مصر اقترابا شديدا. ولكن تقلبات الثورة فى أيامها الأولى عصفت به. وانتهى معزولا، معتزلا جالسا فى بيته، غير مسموح حتى بذكر اسمه فى صحيفة.

وكنت كاتبا صحفيا مبتدئا. وذات يوم اتصل بى المستشار المرحوم زكى بك حسين وكان صديقا لأبى. وقال لى إنه جاء ذكرى فى حديث مع السنهورى، وإنه أبدى إعجابا بما أكتبه كاسم جديد. وإنه يحب أن يرانى. وكان الرجل وقد انسحبت عنه الأضواء لا يزور ولا يزار.

ووجدت فى ذلك تشريفا عظيما...

وذهبت لجلسة هادئة فى بيته فى مصر الجديدة، كان لها على وقع التنويم المغناطيسى. واتفقنا على أن ازوره عصر كل خميس. وقد واظبت على ذلك حتى سافر فى مهمة حين استعانت به حكومة الكويت.

ذكرت هذه الواقعة، لأننى لم أر فى حياتى رجلا تجسدت فيه روح القانون مثل السنهورى. لست أتحدث هنا عن علمه ومؤلفاته وآثاره. ولا حتى عن الحوار معه حين يكون حول القضايا الجدية. ولكن حتى حين يكون الحديث حول أبسط الأشياء اليومية، يشعر المرء أن هذا الرجل قد «تشرب» روح القانون، حتى عقله لا يتحدث ويعمل فى الصغيرة والكبيرة إلا وقد نهل من هذا المنبع. كان قد ترك الدنيا والسياسة وعواطفها وانفعالاتها وصار عقلا خالصا وضميرا خالصا. أى حكاية يأتى ذكرها، لا تلبث إذا علق عليها أن تجدها وكأنها كانت كومة من الأشياء وقد انتظمت فجأة ووضعت كل جزئية فى مكانها بسحر ساحر.

وكان رحمه الله يحثنى وقتها على ترك الصحافة التى لم أبدأها إلا من قريب، بعد أن عرف منى أننى سجلت رسالة دكتوراه فى السوربون

فى باريس، عن مرحلة من تاريخ مصر السياسى، وكان ميله الغريزى إلـى أن بحثا طويلا ممتعا هوأعظم شيء. ولكن التيار جرفنى إلـى مجـرى الصحافة بغير رجعة..

وما أقل ما نختار ما نفعله فى هذه الحياة...

ولكن.. ماذا عن القانون وعن روح القانون؟

كنا نظن فى بدء دراسة القانون أنه نصوص. وأن الدنيا تتغير بتغيير النصوص. العدل يسن بقانون، الظلم يزول بقانون.. الخطأ يحدد بقانون. والصواب يحدد بقانون.

كلا...

علمتنا الأيام، وعلمنا الأساتذة الكبار، أن القانون شيء غيـر هـذا، شيء أعمق وأبعد من هذا بكثير.

القانون الجديد بهذا الاسم هو المعبر حقـا عـن روح المجتمـع، الصاعد من أعماقه. تماما كالتعبير الفنى حين يكون صادقا...

بدليل أن هناك مجتمعا فيه قانون غير مكتوب «عـادة» أو تقليـد، يعيش قرونا محل احترام الناس ومراعاتهم.

فى حين أن هناك قانونا يحمل كل أنواع الأختام. ختم حاكم أو ختم برلمان. ولكنه لا يحظى بأى اعتراف أو احترام من الناس، حتى من يوم صدوره.

ليست كل ورقة تحمل سلطة تشريعية أو تنفيذية، قانونا بهذا المعنى.

قانون بمعنى الفرض، نعم.

قانون بمعنى قرار السلطة، نعم.

ولكنه ليس قانونا بمعنى تعبيره عن روح المجتمع، واتساعه لـرغباته وأمنياته، وتجاوبه مع أفئدة الناس فى هذا المجتمع.

لذلك نرى أحيانا قوانين تهطل كالمطر، لكن سرعـان مـا تجففهـا الشمس، وتمسحها الرياح...

ونرى قناعات الناس فى تصرفاتهم، تسير فى مسالك أخرى تماما...

ونرى قوانين تنقل من الكتب. أو تؤخذ من بلاد شتى متنافرة، كمـن ينتقى أصنافا من دكان العطار. ولكنها تبقى غريبة.

هل تزرع شجرة بلاستيك مصطنعة، وتثمر؟

مستحيل.

هل تزرع شجرة حقيقية فى أى مكان؟ إن كل نبتة لها بيئـة وطقس يحكم عليها بالعقم أو بالاثمار. كذلك القانون...

ومنذ فترة، انشغلت انجلترا بقصة طريفة.

سيدة تملك فندقا صغيرا فى انجلترا على شاطىء البحر، وذات يـوم جاءها الصياد الذى يبيع لها السمك عادة، يحمل خبـرا مثيـرا: إنـه اصطاد سمكة من نوع «السترجون» وهو السمك الذى ينتج الـكافيار. ذلك أن هذا السمك لا يوجد فى بحار انجلترا عادة. اللهم إلا نادرا جدا وكأنها سمكة ضلت طريقها. ولا يحدث هذا إلا مرة كل عدة سنوات.

واشترت السيدة السمكة، وأعلنت عن وليمة عشـاء لنـزلاء الفنـدق والبارزين فى القرية الصغيرة. وإذا برجل عجوز من المدعوين يقول لهـا

إن هناك قانونا منذ القرن السادس عشر يقضي بأن أى سمكة من هـذا النوع يتم صيدها تكون ملكا لملك انجلترا.

وأسقط في يد السيدة. واتصلت تليفونيا بموظف في قصر ملكة انجلترا تسأله، فقال لها نعم إن هناك قانونا موجودا بهذا المعنى. ومـا يـزال ساريا. ولكنه لا يظن أن الملكة ستطالب بالسمكة.

ولكن السيدة ألغت العشاء. وحملت السمكة في أحسن وعـاء لـديها وركبت القطار إلى لندن. وهناك توجهت إلى قصر بكنجهام حيث أصرت على تسليم السمكة للملكة. وطاردتها الصحف حين علمت بالقصة، فقالت إنها سعيدة جدا.

قانون سخيف طبعا.

وحين صدر كان صورة لـظلم القـرون الـوسطى وعصر امتيـازات النبلاء..

ولكن مع الزمن ،وتطور النظام في انجلترا، واحساس تلك السيدة بأن قوانين بلدها بوجه عام تعبر عنها، وتتسع لمشاعرها، وجدت سـعادة في تنفيذ قانون ميت، حتى لو سخرت منها الصحف والناس.

لم تكن بذلك تنفذ قانونا أو تخشى عقابا. كانت تعبر عن ذاتها مـن خلال بناء عام تشعر أنه يعبر عنها. وهذا هو القانون.

المثقفون والسلطة..

■ لاشك أن الكثيرين منا، ممن يتاح لهم السفر والتنقل بين البلاد العربية، أو بين غيرها من بلاد العالم الواسع، قد لاحظوا كثرة عدد المثقفين والنابهين منهم بالذات، وذوى التخصصات المختلفة من سياسية واقتصادية وأدبية وعلمية.. الذين ليسوا فى بلادهم، ولا فى أماكنهم الطبيعية.

ولست أشير بذلك إلى موضوع «هجرة العقول» بمعناه الشائع المعروف. وإن كان لما أريد أن أتحدث عنه علاقة بهذا الموضوع، إلا أننى أريد أن أتحدث عنه من زاوية معينة، تخرج بنا قليلا أو كثيرا عن مشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع.

فمشكلة «هجرة العقول» بمعناها الشائع، مشكلة عالمية، لا يختلف فيها عربى عن غير عربى. وحتى البلاد المتقدمة تواجهها وتعانى منها، إزاء بلاد أكثر تقدما. فإذا أخذنا أبرز بلاد المهجر مثل الولايات المتحدة الأمريكية أو كندا.. فسنجد فيها عقولا مهاجرة من البلاد العربية، ومن دول البحر الأبيض ومن إنجلترا وفرنسا. ومن الهند وأفريقيا. المشكلة تنحصر ببساطة فى أن بعض المثقفين ـ خصوصا فى ثقافات يشتد عليها الطلب أحيانا كالطب والهندسة وبعض العلوم ـ يفضلون الهجرة إلى بلاد يجدون فيها شروطا أفضل أو مستوى من المعيشة أعلى، أو فرصة أكبر للتقدم العلمى، وتحقيق الذات، ربما لا تكون متوافرة فى بلادهم.

وهي مشكلة ضخمة وعويصة، وليس لها حل سهل. ومن المؤسف أنها تشكل جانبا من أكبر جوانب أزمة العالم الثالث وعقبة من عقبات تقدمه. فالخسارة هنا مادية وبشرية. لأن البلد حين يفقد واحدا من هذه النوعية من أبنائه، يخسر مرتين. يخسر مرة بالمعنى المالى البحت، لأن البلد يكون قد أنفق على هذا الابن مبالغ كبيرة من المال من أجل تعليمه وتكوينه فى الداخل ثم فى الخارج. ويخسر مرة أخرى بمعنى أكبر من المعنى المالى، وهو أن خيرة شبابه لا يعودون ليساعدوا فى المهمة الصعبة، مهمة التنوير ورفع مستوى سائر الشعب، كالحديقة التى كلما أينعت فيها زهرة، جاء من يقطفها.

ومكسب البلاد الأكثر تقدما فى هذا المجال هائل. فهى تأخذ الخبراء جاهزين، بعد أن أتموا ثقافتهم ونضجهم وتلقيهم، وبدأوا فى مرحلة العطاء.

والغريب أن كثيرا من الدول العربية لا تدرك قيمة هذا «المهاجر» المؤقت إذا جاز التعبير، حتى ولو كان عربيا، وحتى لو كانت فى أشد الحاجة إلى خبرته...

أذكر أننى اشتركت مرة فى مناقشة تليفزيونية حادة، فى قطر عربى شاسع الأرجاء قليل السكان، إذ قال مناظرى: إن الخبير العربى يطلب أجرا أعلى من الخبير المحلى.

وقلت له متعجبا: لماذا إذا كان المهندس ـ مثلا ـ إيطاليا أو فرنسيا أغدقنا عليه.. وإذا كان نظيره عربيا قترنا عليه.. مادام الاثنان متكافئين؟.. ثم هل تظن أن كندا مثلا أغبى منكم؟ إن كندا لا تفتح أبوابها طبعا لكل وافد. ولكن إذا كان هذا الوافد خبيرا فى مجال يهمها،

فإنها تعتبره إضافة إلى رأسمالها وإلى إنتاجيتها إزاء ضخامة مواردها واتساع رقعتها وندرة سكانها.. إنها تجرى وراءه.. وتقدم له الاغراءات... وتتولاه منذ وصوله بالمعونات المالية والاجتماعية حتى يستقر به المقام فى عمل إنتاجي مناسب له. ذلك أنها تعلم أن هذا النوع – فى أى مجال – يضيف إلى ثروة البلاد القومية أضعاف ما يأخذ من مرتب.

وما دمنا قد تعرضنا لقضية العقول المهاجرة، فلابد من القول إنه إذا كان اللوم أحيانا يقع على البلد الأم لسوء تصرفها مع النخبة من أبنائها، فإن اللوم فى أحيان أخرى يقع على عاتق المهاجر نفسه، حين يتصرف فى أنانية شديدة، ودون مبرر، لمجرد الهرب من مهمة صعبة تنتظره فى بلاده الساعية إلى التقدم، لائذا بالفرار إلى بلد قد تقدم فعلا، ولم يعد عليه هناك إلا المشاركة فى جنى الثمرات.

ولكن هجرة العقول، مهما بلغت الأرقام، تظل قضية جزئية إلى جانب القضية الكلية التى علينا أن نتأملها..

فالذى لاشك فيه، أن معظم المثقفين، من أهل الفكر والرأى والعلم والخبرة، يبقون فى بلادهم. أو يعودون إليها.

على أن وجودهم فى بلادهم، لا يعنى دائما الاستفادة منهم. وبالتالى فالصورة العامة لهم فى معظم بلادنا العربية، أما السخط والكبت والشعور بالاحباط، وأما الانحراف – بالعدوى – مع الأمراض الاجتماعية الشائعة فى بلادهم، فهم لا يستفيدون من ثقافتهم وقيمهم الحياتية ولا يفيدون، وإما أن يلجأوا إلى نوع آخر من الهجرة... هو الهجرة الداخلية. والانغلاق على أنفسهم. فهم موجودون فى بلادهم وغير

موجودين. موجودون بأجسامهم وبعملهم الروتيني اليومي ومشاكل حياتهم اليومية الصغيرة، ولكنهم غير موجودين بعقولهم ولا بقدراتهم وطاقاتهم الحقيقية. متفرجون سلبيون. يرون الأحداث تجري أمامهم، وربما رأوا بلادهم كلها تتعثر أمامهم، ولكنهم عاجزون عن المحاولة أو إبداء الرأي، أو مشيحون بوجوههم عن الأمر كله، يعيشون في مجردات ومطلقات لا صلة لها بضجيج الحياة من حولهم...

ولا يجوز أن نفترض أن كل واحد منهم يجب أن يكون بطلا، مستعدا لمواجهة التشرد، أو دخول السجن!

وقد جرى العمل منذ زمن، على أن نلقي الكثير من مشاكلنا على ما يسمى بالبيروقراطية...

فالبيروقراطية، في هذا المجال، هي التي تقتل المواهب، وتعترض طريق الناجحين، ولا تقبل دخول العناصر المثقفة الواعية بمجتمعها داخل صفوفها، أو لا تضعها في مكانها الصحيح.

ولا شك أن بعضا من هذا صحيح...

ولكن لا شك أيضا أننا نبالغ في الامر كثيرا، وإن كثيرا من القادة والحكومات صاروا يجدون في هذه «البيروقراطية» شماعة يعلقون عليها كل المشاكل.... وكأن هذه البيروقراطية ليست جزءا منا، ولسنا كلنا طرفا فيها، أو كأنها جسم غريب عن المجتمع....

وما هي البيروقراطية آخر الأمر؟

إنها أداة كبيرة أو صغيرة، من الموظفين في كل مجال، وفي شتى الدرجات، يمارسون عملهم طبقا لقواعد موضوعة لهم من قبل، ولا يجوز

لهم الخروج عنها، وإلا تعرضوا للمساءلة والعقاب...

لذلك فإننى أريد أن أصعد بالمسئولية عن هذه الأزمــة فى بــلادنا العربية درجة أعلى من مستوى البيروقراطية.. أى إلى مستوى القيــادة السياسية حيثما كانت، وكيفما كان لونها ومذهبها وطبيعة نشأتها...

فيما يتعلق بالبيروقراطية.. فلو كان فيها داء متراكم عبر زمن طويل.. فإنها مسئولية القيادة السياسية فى كل مكان، أن تحسن اختيار القائمين بالعمل، وأن تراجع اللوائح والاجراءات التى تحكم عملهم، وتعمل علــى تبسيطها، وتجعلها مناسبة لكل مرفق من المرافق. وليس هذا بــالتأكيد مسئولية موظف كبير أو صغير، أو أشبه بمسمار أو ترس أو عجلة فى آلة كبيرة. لا تستطيع تعديل عمله، إنما يستطيع ذلك «المهنــدس» المشرف على هذه الآلة....

فإذا نحينا أيضا هــذا العنصر الجــانبى عــن القضـــية، عنصر البيروقراطية، نصل إلى بيت القصيد من هذا الحديث، وهو: العــلاقة بين المثقفين والسلطة فى البلاد العربية بوجه عام...

فهى علاقة يحكمها الشك، وعدم الثقة، على الأقل... وأحيانا يحكمها التناقض والعداء...

وفى تقديرى أن هذه العلاقة «القلقة» تنطوى على خسارة كبيرة لكل بلد، فوق أنها تخلق «مناخا عاما» إن لم يكن هو المسئول تمــاما عــن مشكلة «هجرة العقول»، فهو يتسبب على الأقل فى جانب منها...

فما هو السبب يا ترى؟...

ليس المقصود بالتأكيد الوصول إلى حــكومات أشــبه بجمهــورية أفلاطون التى يحكمها الفلاسفة...

فالحكم أو السلطة بمعناها القيادى والسياسى، أمور لهـا مـواصفات لا تتوافر عادة للمفكر أو المثقف أو الفنى. وأعظم فيلسوف قد يعجـز بالتأكيد عن إدارة قرية صغيرة. وبـالتالى فليس مـطروحا أن يتبـادل الطرفان مكانيهما...

إنما المطروح هو إقامة علاقة صحية بين الطرفين...

الطرف الذى لديه الأسباب والظروف والمواهب التى تجعله زعيما، أو قائدا، أو حاكما.. يحسن إتخـاذ القـرار، ولـديه الحس السـياسى والاجتماعى الذى يجعله قادرا على القيادة فى مرحلة ما، فى بلد ما...

والطرف الذى لديه الأسباب والمواهب، لكى «يفكر» فى الأمور التـى تعرض للحاكم، ويتأملها بعيدا عن ملاحقة الأحداث لكل حاكم أو قائد. فهو عنصر مهم فى إنارة الطريق، واستكشاف شتى جـوانب المشـكلة، والتفرغ للنظر إلى الأمور فى مداها البعيد...

وقديما، كانت مهمة القيادة أو الحكم أبسط مما هى عليه الآن بكثير. كانت الدولة قليلة ومعزولة نسبيا. وكانت الأمور التى تتدخل فيها الدولة قليلة، قد لا تتعدى الدفاع عن البلد وصيانة الأمن وكفالة القانون فيه...

ولكن، مع التقدم الهائل والسريع فى كافة مجالات الحيـاة، صـارت الأمور المطروحة على الحاكم كثيرة ومتشعبة ومعقدة إلى آخر الحدود.

وأقصد بذلك الحاكم الفرد، والحاكم بالحزب، أو الحاكم بـالبرلمان. فمجموع كل هذا هو ما أسميه «السلطة السـياسية» فى أى بلـد مـن البلاد، مهما كان نظام الحكم السياسى والاجتماعى فيه.

هذه «السلطة السياسية» صار مستحيلا عليها أن تتخـذ القـرارات السليمة فى كل المجالات، بسبب تشـعبها وتعقـدها، وحـاجتها إلـى

تخصصات كثيرة، وخلفيات متنوعة.

فإذا أخذنا دول المعسكر الشرقى، التى تقوم فلسفتها على دكتاتورية الطبقة العاملة، نجد أنها فى تقاريرها الحزبية صارت تزهو وتهتم بـأن تذكر أن عضوية الحزب صار فيها كذا فى المائة خبراء إقتصاد سـياسى، وكذا فى المائة علماء... إلى آخره.

وإذا أخذنا النظم الديمقراطية فى الغرب، نجد أن هناك قضية مثارة فى إنجلترا منذ سنوات حول علاقة الفكر والخبرة بالسياسة: فهناك كتاب ونواب يثيرون قضية تضاؤل دور البرلمان الانجليزى، لأن كثيـرا مـن الأمور العامة التى تعرض عليه معقدة لدرجة لا يسـتطيع النـائب أن يحيط بها كلها تماما، فى حين أن الوزير ــ ممثل السـلطة التنفيـذية ــ يجيء لمناقشة الموضوع المطروح مزودا بآراء عشرات الخبراء، وأحيانا مصحوبا بهم، الأمر الذى يجعل الغلبـة فى الاقنـاع غـالبا للسـلطة التنفيذية. فلم يعد للبرلمان ما يحكم فيه إلا العموميات فقط.

وقضية أخرى مثارة فى إنجلترا ــ التى نتخذها نموذجا للديمقراطيات البرلمانية القديمة ــ خلاصتها أيضا أن رئيس الوزراء فى مقره فى البيت رقم ١٠ داوننج ستريت، صار يحيط نفسه بخبراء من أعلى المسـتويات من الجامعات أو من الحياة العامة، كالكتاب الصحفيين ومؤلفى الـكتب وذوى الأفكار المتميزة، الأمر الذى جعل «مجلس الوزراء» فى مجمـوعه يفقد الكثير من سلطته «لرئيس الوزراء» المزود بهؤلاء الخبراء، رغم أنه ليست لهم صفة تمثيلية سياسية، أى ليسوا منتخبين...

فإذا أخذنا نموذج ديمقراطية برلمانية حديثة، هى الولايات المتحدة الأمريكية، فإننا نجد أنها سبقت زميلاتها فى حـل هـذه المشـكلة، أو بمعنى أصح الاستفادة من العناصر المفكرة فيها...

فالبنسبة للكونجرس الأمريكي، ونظرا لامكانيات أمريكا المالية الواسعة طبعا، نجد أن النظام هناك يعطى كل عضو فى الكونجرس ميزانية سنوية ضخمة، يكون بها جهازا فنيا مساعدا له، هم فى الغالب من الخبراء الشبان، يعدون له الدراسات والمواقف المختلفة، وهم عادة شبان طموحون، أذكياء، مهتمون بالقضايا العامة لبلادهم. ولذلك فكثيرون منهم يبدأون من ذلك المكان حياتهم السياسية وتدريبهم لمراكز أهم. مثل ليندون جونسون وروبرت كنيدى وغيرهما كثيرون.

وبالنسبة للرئيس الأمريكي نفسه، نجد أن كل رئيس، إلى جانب وزرائه، وكل الجهاز التنفيذى التابع له، يعمد إلى الاستعانة بالكثيرين من عالم الفكر بوجه عام وحتى العالم الأكاديمى نفسه.

حكومة جون كنيدى كانوا يسمونها «حكومة هارفارد» لأن أغلب من أتى بهم من مستشارين ومساعدين كانوا من هارفارد. فسمعنا أسماء هارفارد اللامعة مثل ماك جورج بندى مستشاراً له للأمن القومى، والاقتصادى السياسى المشاغب كينيث جالبريث سفيرا فى الهند، ليشير عليه بشأن قضية هامة هى محاولة فهم العالم الثالث بوجه عام، وكان هناك أيضا كيسنجر، للمشورة غير المتفرغة، بسبب كتاب ألفه واشتهر به عن السياسة فى ظل الردع النووى، وموينهاين الذى أصبح ممثلا لأمريكا فى الأمم المتحدة، لمؤلفاته ودراساته عن قضايا اجتماعية أمريكية كثيرة...

وبعد كنيدى جاء جونسون ليحتفظ بالبعض ويغير البعض الآخر، فوجدنا والت روستو الذى اشتهر بكتاب «مراحل النمو» الذى عارض به النظرة الماركسية فى مراحل نمو البلاد المتخلفة، وشقيقه يوجين روستو أستاذ السياسة الدولية.

ثم جاء نيكسون، فوجدناه يجعل كيسنجر مستشاره للأمن القومى، ثم وزيرا للخارجية، ويستعين بكثيرين آخرين....

وكان البعض يندهش أحيانا من أن الرئيس الأمريكى يستعين بمستشارين لهم آراء تخالف رأيه وفلسفة حزبه. ولكن هذا بالضبط هو المقصود أحيانا. فحين يأتى الحاكم بمستشارين ومفكرين من نفس مدرسته وتفكيره، فكأنه يضع حوله مرايا لا يرى فيها إلا نفسه، فى حين أن المفروض أن توجد عناصر أخرى تثير الجدل والنقاش، ويجد من خلالها فرصة التعرف على شتى الآراء والتيارات.

ومن أسباب مأساة نيكسون، أنه ـ فى القضايا الداخلية ـ أحاط نفسه بأشباهه فى الفكر والرأى والسلوك. فكان أن وقع فى عزلة حادة عن الرأى العام على حقيقته، مما ورطه فى قضية ووترجيت بتصرفات كلها من مصدر واحد ونوعية واحدة، حتى صار الانفصام بينه وبين الرأى العام كاملا، إلى أن اضطر للاستقالة الشهيرة...

وليس معنى ذلك تحويل المفكرين إلى موظفين فى الدولة. فهناك نظام اللجان المؤقتة، التى تتشكل من أهل الفكر والخبرة، لدراسة قضية معينة، ثم تنتهى مهمتهم بانتهاء مهمة اللجنة.

وإنجلترا فيها هذا الأسلوب. فحين أرادت الحكومات هناك أن تعيد النظر فى نظام التعليم.. ومرة أخرى لدراسة مشكلة المواصلات... ومرة ثالثة لدراسة مستقبل صناعة الفحم كطاقة.. كانت تشكل لكل موضوع لجنة قومية... تتجاوز الأحزاب، وتتجاوز الأجهزة التنفيذية... ثم يصبح التقرير بعد ذلك ملكا للدولة والبرلمان والرأى العام، يناقشه ويدرسه ويتخذ قرارا بشأنه.

وفى نفس الوقت انتشرت فى أمريكا المعـاهد العليـا المتخصصـة.. معاهد مستقلة. معهد لدراسات البحر الأبيض. معهد لـدراسات الشرق الأوسط. معهد لدراسة الأسلحة النـووية وأثـرها علـى السـياسات المختلفة.. وكثيرا ما يطلب الرئيس أو الكونجرس من هـذه المعـاهد المستقلة دراسة ما، حول قضية يدرسونها. فتكون بين أيديهم خـلاصة أحسن الخبرات فى البلد. وانتشر فى كل معهد ما يسمونه باللغة الامريكية ـ غير الانجليزية أحيانا ! ـ بالـ Tank Tnink أسـلوب آخـر فى تـوطيد العلاقة بين الفكر والحكم، بين العلم والعمل، بدأت تأخذ به دول متقدمة كثيرة.

وإذا كانت أمريكا قد سبقت أوروبا فى هذا المجال، وساهم الفـكر فى حياتها بدور كبير... فإن معظم المؤلفين يرجعون ذلك إلـى اختـلاف الظروف التاريخية بين أوروبا بتاريخها القديم، وأمريكا التى بدأت مـن نقطة جديدة، متحررة من عبء التركة الاوروبية...

يصف الكاتب «البرت سالومون» تلك الظروف فى أوروبا فيقول: «كان هناك ضغط الكنيسة العنيف على حرية الفـكر فى العصـور الـوسطى، ولما جاء عصر النهضة لم يأت بتغيير كبير فى حياة أهل الثقافة والفكر. ذلك أن مشكلة طلب الرزق كانت ترغم الكثيرين من المثقفين البـارزين على العمل فى خدمة أمراء الاقطاع، الذين كانـوا مسـتعدين لـرعاية الشعراء والمفكرين مقابل استسلامهم الفكرى. وهكذا وجـد المثقفـون أنهم صاروا كالسفسطائيين أيام الاغريق، مضطرين لكى يعيشـوا إلـى الاعتماد على قدرتهم على العمل كمستشارين لأصحاب السلطة، علـى حساب نزاهتهم الفكرية، ثم ظهرت المطبعة، فكان هذا انقلابا فى حيـاة المفكر، إذ صار للمفكر لأول مرة أن يتحدث إلى الناس من جهـة، وأن

يتلقى بعض الموارد المالية من قرائه من جهة أخرى. إن الحلف الذى تم بين المؤلف وصاحب المطبعة فى القرن السادس عشر، إذا كان كلاهما يصدر عن قناعات اجتماعية وأخلاقية ودينية واحدة، جعل استقلال المفكر ممكنا. ثم لم يلبث النشر أن صار تجارة ومهنة مريحة. وصار أصحاب المطابع والناشرون يخضعون لعوامل اقتصاديات السوق ودرجة إقبال الجمهور على أنواع معينة من الكتب. صار المثقف الذى ليس له دور خاص، تحت رحمة رجل الأعمال. كان فى مقدور المؤلف من الأغنياء مثل مونتانى ومونتسكيو أن يكون فيلسوفا. أما المؤلف العادى، فلم يكن يجد سبيلا إلى أى عمل عقلى جاد. بالعكس، لقد أصبحت مطالب القارئ غير المتعلم أعلى صوتا وأكثر إلحاحا، وخلقت بالتالى مؤلفى التسلية والجنس وقصص الرعب».

على أن أخطر ظاهرة ترتبت على هذه الظروف، هى عزلة المفكر تماما عن حياة المجتمع المحيط به وغرقه فى تأملات وأفكار مجردة، حتى كانت الثورة الفرنسية...

على العكس من ذلك نجد «ميرل كيرتى» يحدثنا عن التجربة الأمريكية فيقول: «إن الظروف المبكرة للحياة الأمريكية ألغت التفرقة التقليدية بين «النظرية» و«الممارسة». منذ البداية، لم تتح الحياة الأمريكية ما يمكن أن يسمى «طبقة مثقفين مستقلة» كما حدث فى حضارات الصين والهند وأوروبا، كذلك لم تفرض ظروف نشأة أمريكا عليهم أى نوع من الوصاية. فكانت القاعدة تقضى على ذوى الاهتمامات الفكرية أن يكسبوا رزقهم بأنفسهم فى نفس الوقت. وذلك بممارسة الطب أو المحاماة، أو الانخراط فى سلك رجال الدين، أو إدارة زراعة أو تجارة بل وأحيانا الاشتغال بالحرف اليدوية.

وهذه الظروف ذاتها لم تدفع المثقفين إلى العمل والاختلاط بـالحياة فقط بل دفعت الرجال العمليين أيضا إلى تنمية اهتماماتهم الثقـافية. هكذا كان وليم بيرد مثلا يستخدم في حياته اليومية كمالك كبير للأراضي، ليس فقط ثقافته القانونية، ولكن أيضا ثقـافته في الـزراعة والـطبيعة وغيرها. حتى التاجر، كان على عكس زميله الأوروبي يحاول أن يعـرف المزيد من أنواع المعرفة التـي تفيـد تجـارته، كالمـلاحة، والفلك، والجغرافيا، والاقتصاد السياسي، واللغات التي تتحدث بهـا الشـعوب الأخرى».

وهكذا، حين بدأت حرب الاستقلال الأمريكية للانفصال عن إنجلترا، كان «الآباء المؤسسون» الذين اجتمعوا في وليـامزبرج لـوضع أسس الدولة الجديدة، كانوا جميعا من كبار المفكرين والعلماء في عصرهـم في شتى الفروع من الفلسفة إلى القانون إلى العلوم التطبيقية... جيفرسون وجون آدمز وغيرهما وكان فيهم مديرو جامعات وأساتذة وخبراء بنسـبة عالية جدا.

فلم يكن التحالف بين العلم والعمل جديدا على أمريكا بعد ذلك. بل إن هذا المبدأ كان هو روح عصر التنوير الأساسية، كما قال فرانكلين.

وأعود بعد هذه الجولة إلي بلادنا العربية... إلى واقعنا...

إننا لا نجد المثقف عندنا يقاسي فقط تاريخيا ــ مـا قـاساه المثقف الأوروبي مما سبق ذكره، بل إنه يعاني من مرحلة انقطاع فكرى تـام، دام عدة قرون من الزمان، مع سـيادة الاسـتبداد، خصـوصا خـلال الامبراطورية العثمانية الذى زاد على ثلاثة قرون...

وعندما بدأ هذا يتغير مع العصر الحديث، كانت مهنة الفكر والكتابة

فكرة محتقرة من الفئات المتميزة، فى حين أن التعليم لم يكن متاحا إلا لهؤلاء. فى مصر كانت الأسرة تكاد تتبرأ من ابنها إذا احترف الأدب أو كتب مقالا فى الصحف. وكان المحامي يسمي فى اللهجة العامية «السفيه» لأنه الذى يدافع بالحق أو بالباطل أمام القضاة.

وهذا يذكرنا بقصة «فولتير» مع أشهر مؤلف إنجليزى مسرحى فى ذلك العصر وهو «كونجريف». فقد سمع فولتير أن كونجريف المؤلف العظيم جاء إلى فرنسا فى رحلة، فأسرع فولتير إلى زيارته قائلا له: إن شهرته ككاتب هى التى دفعته إلى الحضور لتحيته. ولكن كونجريف إستاء من التحية، وقال لفولتير: إننى «جنتلمان» – أى من النبلاء – قبل أن أكون مؤلفا، وكنت أظن أنك جئت تحييني لهذا السبب. فرد فولتير قائلا: إنه ما كان ليسعى إلى لقائه لو كان مجرد «جنتلمان!».
ولكن ذلك كان هناك، منذ قرون...

المهم أن المثقف فى العالم العربى شب عن الطوق، واستطاع فى حالات كثيرة التأثير فى التفكير العام فى بلاده ولكنه خرج لكى يواجه عددا هائلا من الضغوط لا حصر له، القديم منها والجديد...

شيوع الاستبداد السياسى والارهاب الفكرى فى كثير من المراحل فى كثير من البلاد العربية فى تاريخها الحديث... انتشار الأمية انتشارا مخيفا، وما زال قائما، الذى يجعل دور العالم والمفكر بوجه عام مقتصرا على التأثير أو مجرد الوصول إلى عدد قليل من الشعب، الذى يفكر له...

ديماجوجية بعض الزعامات التى تستخدم سحرها لدى الجماهير، فى

إسكات الصوت المختلف وإرهابه فكريا، بضغط الأغلبية المنساقة لهـا السلطة الرسمية.

طغيان وسائل الاعلام ذات الانتشار الساحق، من صـحافة وإذاعـة وتليفزيون، وهى وسائل تحتاج إلى استهلاك واسع من جهة، وإلى تلبية رغبات نسبة كبيرة من غير المتعلمين من جهة أخرى. صار ضـجيجها الترفيهى يغطى تماما على صوت العقل المفكر فى القضايا الأساسية لأى بلد، وهى محنة يعانى منها مفكرو العالم جميعا.

عدم وجود المؤسسات التى تنطوى على طـابع البحـث والتفـكير والدراسة فى شتى الفروع، والتى قد يجد المثقف والباحث فيها مـلاذا وملجأ ومجالا يفيد فيه...

الشك القديم الذى يميز العلاقة بين السلطة وبين المثقفيـن بهـذا المعنى.

وجانب من هذه المشكلة، يكمن فى اختلاف طبيعة كل من رجل العلم ورجل العمل...

رجل العمل لابد أن يكون من طبيعته القدرة على الحسـم. واتخـاذ القرار السريع، وبالتالى فهو شخص مؤمن بما يفعل، مصمم على تنفيذه، لا يجوز أن يكون من طبيعته التردد، ولا وقت لديه للتأمل..

هذا، بينما رجل الفكر والعلم لابد أن يكون من طبيعته الشك والتأمل وحاجته إلى وقت طويل للوصول إلى اقتناع ما، وإدراكه لمزايا عمل مـا وتخوفه فى نفس الوقت من آثاره الجانبية.

وإزاء هذا الاختلاف بين الـطبيعتين.. تتعمـق روح الشـك بيـن

الاثنين... فيزدرى صاحب المنصب حديث المفكرين والخبراء، ويعاديهم. وينطوى أصحاب الفكر والعلم علـى أنفسـهم، أو يـطلبون السـلامة بالسكوت، ويصبحون معارضين... إيجابيين فى أسـلوب معـارضتهم أو سلبيين، أو يفعلون ما فعله مثقفو القرون الـوسطى ممـا سـبق ذكره، «يشترون سلامتهم بالاستسلام الفكرى لغير ما يؤمنون بـه ويعتقـدون فيه».

ولذلك فإن أحدهما لا يصلح لأن يأخذ مكان الآخر، كما قلنا فى صدر هذا الحديث.. إنما المطلوب أن تقوم بين الاثنين علاقة صحية سليمة. تفيد رجل العلم والفكر لأنه يدرك ويتعلـم التعـرف علـى المشـاكل الحقيقية. وتفيد رجل العمل لأنها تزوده بكل ما بذله رجل العلم والفـكر من جهد ودراسة ومعرفة.

تحاول أكثر من دولة - على سبيل المثال - إنشاء مجلس للتعليـم، يضم أهل الفكر والخبرة فى هذا المجال، وإن تعددت آراؤهـم. ولـكننا سرعان ما نجد الوزير المسئول عن التعليـم - مثـلا - أى المـكلف بالتنفيذ.. يستنكف من مشورة هؤلاء، ويرى فى وجودهم وصاية عليـه، لا مساعدا له، وسرعان ما يتجمد هذا المجلس، أو يموت دوره بالتدريج.

ونفس الأمر فى مختلف الاهتمامات.

هكذا نجد الكثرة من المثقفين العرب، خصوصا أولئك الذين يريدون طرح قضايا العصر الحقيقية والمصيرية، إما مهاجرين إلى أماكن نائية، وإما مهاجرين هجرة داخلية، وفى كلتا الحالتين نـراهم هـائمين علـى وجوههم، بضمائر مثقلة وآمال محبطة، ونفوس جريحة. غير راضين عن أنفسهم أكثر مما هم غير راضين عن ظروفهم. ولا يفيد البلد ما أنفقت عليهم وهيأت لهم، أى شىء.

أقول هذا الكلام، وأنا مدرك تماما أن هذه المشكلة جزء من درجة التقدم والنضج العام لأى مجتمع من المجتمعات...

وأقوله متوقعا ألا يجد الكثيرون أن القضية على هذا القدر من الأهمية. وهو اعتقاد غير صحيح...

إن مشكلة التقدم فى كل البلاد النامية، لم يعد أحد فى العالم يترجمها إلى درجة التقدم المادي وحده. والتقدم المادى وحده ليس تقدما راسخا، إنما قد يكون مظهريا سرعان ما تنهار أسسه، وتتأزم أموره إذا لم يصاحبه تقدم عام فى كافة المجالات..

التقدم المادي لابد معه ـ بل لابد له ـ من تطوير وتنوير بالنسبة لمجموع الشعب، ولابد لتطوير وتنوير مجموع الشعب من العناية بالعناصر المتميزة ـ قدرة ـ من أبنائه والمحافظة على المصابيح التى تضيء طريقه، والقوى التى ترعى قيمه وتقاليده وعقائده وأفكاره.

المسلمون متخلفون عن الاسلام
حقوق الانسان المسلم هى نقطة البدء!

يدخل «الاسلام» القرن الخامس عشر للهجرة... «والمسلمون» متخلفون عنه بما يقرب من عشرة قرون!

التخلف بأى معيار؟ ومتى بدأت دورة التخلف هذه؟...

ربما إختار البعض معيارا جغرافيا محضا، وهو توقف نمو الدائرة الاسلامية جغرافيا.

وربما اختار البعض معيارا لبدء التخلف موعدا سياسيا مثل سقوط الدولة الأموية، أو سقوط الأندلس، أو اجتياح التتار للشرق العربى وتدمير بغداد ثم دمشق، أو خروج الخلافة من قريش إلى العثمانيين على يد سليم الأول.

وربما اختار البعض معيارا لبدء التخلف.. إما بداية حركات الانشقاق الاسلامي إلى مذاهب.. فيعودون إلى حرب على ومعاوية وظهور الانقسام بين السنة والشيعة، وإما إلى بداية الاضطهاد الفكرى مثل محنة أحمد بن حنبل أيام المأمون. وإرغام العلماء والفقهاء، على اعتناق تفسير رئيس الدولة لمسائل دينية وعقلية وفلسفية، بالسجن والتعذيب والقتل.

ولكننى فى حقيقة الأمر لا أريد أن أكون متعسفا، ثم إنه فى تفسير التحولات التاريخية الكبرى، لا يمكن الوقوف عند حدث واحد، مهما

كانت خطورته. إنما الحدث الخطير الذى نعتبره «نقطة تحول» يكون فى الواقع نتيجة مقدمات طويلة ربما لم ندركها إلا بهذا الحديث.

وبالتالى، فعندما أقول إن «الاسلام» يدخل القرن الخامس عشر و«المسلمون» متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون، إنما أحاول فى الواقع أن أتخذ موقفا وسطا، معقولا، دون تشدد ودون تحديد حادث بالذات أو قرن بالذات..

إن ما أقصده ـ وهذا هو المعيار الأول الذى أرشحه هنا ـ بمعنى «التخلف».. لا أقصد به، المعنى الجغرافى ومساحة الدولة، أو العسكرى وقوة الدولة أو الاقتصادى ورخاء الدولة... إنما أقصد معنى حضاريا عاما يشمل هذه الأمور كلها، ويشمل أساسا ما هو أهم منها، وهو: مدى قرب المسلمين أو بعدهم عن جوهر القيم والمثل التى جاء دينهم يبشر بها، ويدعو إليها، ويمكن فى الأرض لها..

وبالتالى، وهذا هو المعيار الثانى، فإن تحديد بداية التخلف، فيه محاولة البحث عن الفترة الزمنية الواسعة التى بدأت فيها ظواهر التخلف ـ بهذا المعنى الشامل تتراكم وتتوالى...

إن الاسلام، وهذا إجماع كل المؤرخين على اختلاف أجناسهم ـ كان أسرع رسالة فى الانتشار على هذا النطاق الواسع. رغم أنه لم ينتشر فى فراغ ولا فى نقطة نائية من الأرض ولكنه انتشر مكتسحا فى طريقه حضارات وامبراطوريات شامخة قوية.

فى أقل من قرن ونصف، كان الاسلام قد شمل هذه المساحة الهائلة من العالم المعروف وقتذاك...

والأهم أنه لم يكن انتشار غزو عسكرى فحسب. ولكن سرعة اعتنـاق الناس من كل الحضارات والأجناس لهذا الدين الجديد، هي التى أكدت أنه رسالة، وليس إمبراطورية.

وكل شيء حدث بسرعة...

ففى القرون الأربعة الأولى، مع التساهل الشديد، حـدث كل شـىء تقريبا...

تتابعت العصور الهامة.. من عصر الخلفاء الـراشدين إلـى الـدولة الأموية، إلى الدولة العباسية فى بغداد، إلى دول الأندلس القوية، إلـى السامانية (سمرقند) والغزنوية (فى أفغانستان) والحمدانية من المواصل إلى حلب، والطولونية والفاطمية فى مصر.

وفى تلك القرون ذاتها عرفنا كل كبار القادة العسكريين الخالدين من خالد بن الوليد، إلى طارق بن زياد، إلى جوهر الصقلى، حتى صـلاح الدين الأيوبى لم يتأخر عن القرن الخامس إلا قليلا.. وهذا بالطبع ليس حصرا ولكنه مجرد أمثلة من أماكن وعصور متباعدة.

وفى الفقه عرفنا كل الأئمة والفقهاء من جعفر الصادق إلى أصـحاب المذاهب الأربعة: أبو حنيفة، والشافعى، ومالك، وابن حنبل.

وفى الآداب والعلوم والفنون والفلسفة كان الجاحظ والمتنبى، والكندى وأبو العلاء المعرى، وابن الهيثم وابن سينا والرازى وجابر بـن حيـان وابن حزم، وغيرهم كثيرون.

والقائمة طويلة هائلة، ليست فى حاجة إلى تعريف...

ولكن مع أواخر تلك القرون الأولى، كان الخيط الأسود يختلط بالخيط

الأبيض مع الغروب، وكان الظلام يزحف تدريجا، ربما فى بطء محسوس لأهل كل عصر، ولكننا حين ننظر إليه مجملا نستطيع أن نراه بوضوح.

وكما هى العادة دائما، عرف التاريخ الاسلامى الحكام المستبدين مبكرا، منذ يزيد بن معاوية وتناوب الصالح مع الطالح صعودا وهبوطا مع تحولات الدول وتنقل مراكز الأحداث، فكان عمر بن عبد العزيز يذكر الناس بعدل الخلفاء الراشدين، وكان ضرب الكعبة بالمنجنيق وهدمها يذكر الناس بالجاهلية. ولكن جو الحضارة العام، فى صعوده وهبوطه، ظل هو السمة الأساسية لتلك القرون الأولى.

وفى تلك الأثناء، كانت عوامل الاضمحلال تتداخل فى اندفاعة النهضة، أو بقايا اندفاعتها وتكسب أرضا جديدة كل يوم...

أحيانا من الداخل، مع تضييق الخناق على حرية الفكر، وانتهاء عهد الفقهاء والأئمة وحلول عهد المفسرين غير المجتهدين، ثم قفل باب الاجتهاد، وأخذ أى مجتهد بأقسى العقاب..

أو مع زيادة المسافة بين الحاكم والمحكوم، وبالتالى إزدياد الشك بينهما، ولجوء الحاكم إلى عناصر غريبة يشتريها خدما ويحول الخدم إلى حكام... فهكذا تسرب المماليك حتى صاروا من القوة بحيث استولوا على السلطة.

.. أو مع طغيان العصبيات الاقليمية، والعائلية، على روح الأخوة والمساواة، وبالتالى الحروب المستمرة بين دويلات لا حصر لها، وصلت إلى الاستعانة بالحلفاء الغرباء ضد الاخوة كما حدث فى ممالك الأندلس على سبيل المثال...

.. أو مع العدول عن تقليد عصر النهضة العربية التى كانت واثقة

بنفسها، فانفتحت على حضارات الدنيا وثقافاتها، تنهل منها وتستنبط وتختار.. إلى انغلاق تدريجى عن الدنيا، فأخذ الغرب بالذات يتقدم، والعلم يتطور، والمعارف تتغير، ونحن لمعرفة ما يدور حولنا رافضون، إلى أن جاءونا يوما، غزاة بأسلحة لا نعرفها، وعلوم لا نفهمها، ومخترعات لم نسمع عنها...

وأحيانا كانت عوامل الانهيار من الخارج، فالتتار يكتسحون عالمنا من الشرق تارة، والأوروبيون يطردوننا من الأندلس ومن كل جزر البحر الأبيض، حتى الاندفاعة العثمانية تصل إلى أسوار فينيا، ثم تخسر بالفساد والترف والاستبداد.

وحكمنا المماليك والانكشارية والعبيد والخصيان، قبل أن يأتى الأستعمار الحديث بجبروته فيجد كل شىء ممزقا، مهلهلا...

طبعا، ظهر بعد هذه القرون الأولى مماليك عظام مثل الظاهر بيبرس الذى هزم التتار وردهم فى «عين جالوت». أو فلاسفة عظام مثل ابن خلدون أو رحالة مثل ابن بطوطة. ولكن الظلام العام الزاحف كان أقوى من تلك الشهب القليلة البازغة...

وهكذا فليس غريبا أن نقول إن «الاسلام» يدخل القرن الخامس عشر، و «المسلمون» متخلفون عنه ما يقرب من عشرة قرون. ولعل الكثيرين سيقولون: بل وأكثر من ذلك...

وفى نفس الوقت، يدخل «الاسلام» القرن الخامس عشر، ومن أهم ملامح الأحداث العالمية «صحوة إسلامية» تتخذ حتى الآن أشكالا شتى، أحيانا متضاربة، وأحيانا حائرة، واحيانا متفائلة...

ذلك أن تعويض قرون من التخلف ليس بالأمر السهل. ولا يوجد طريق مختصر سريع إليه..

وليس من حق أى حاكم أو زعيم أن يحتكر لنفسه اكتشاف هذا الطريق.

ولكن هناك ضرورات مسلما بها، إذا كنا حقا نريد اجتياز هذه المرحلة من أسلم الطرق.

إنه لابد من النظر إلى الأمام، ولابد من رفض كل إتجاه إلى أن يعود المسلمون إلى خوض معارك جرت منذ ألف وأربعمائة سنة تقريبا.

والغريب إن الاسلام هو الدين الوحيد الذى لدية نص أساسى واحد غير متنازع عليه، هو القرآن الكريم. وبالتالى فمهما اختلفت الاجتهادات والتفسيرات، فانه ليس مقبولا أن يصبح الخلاف صراعا، وهناك عندنا ذلك الأساس الواحد الثابت غير المتنازع عليه.

إنه لابد من إعادة كتابة التاريخ الاسلامى ، بنظرة نقدية علمية، لا تسحب قداسة الاسلام ذاته على سلوك آلاف الأجيال من المسلمين طالما أصابوا وأخطأوا.

إنه لابد من إدراك أن نقطة البدء فى التطور هى الانسان. والانسان عقل وقلب. التطور ليس بناء ناطحات سحاب. وليس شراء أحدث الأسلحة. وليس اقتناء أى نوع من الماديات.

إنما لابد أن نقول إن العقل الانسانى لا يتحرك إلا بالحرية والاقناع. وأن القلب الانسانى لا يكسب إلا بالحب والكرامة والاحترام.

فى البدء لابد أن نعيد إلى الانسان المسلم حقوقه التى أتى بها

القرآن. فالاسلام انتشر بالرسالة وليس بالسلاح. وقد كان خصومة دائما في عصر ازدهاره أقوى منه سلاحا واضعف منه حجة.

حقوق الانسان المسلم هي نقطة البدء.

ما عرفه العلم بعد ذلك باسم حقوق الانسان من حرية الفكر والرأى والعقيدة، أو من الحرية والاخاء والمساواة. أو من الديمقراطية (الشورى) والعدل الاجتماعى.

عودة القيم الانسانية العليا التى دعا إليها الاسلام، إلى الانسان المسلم، دون تعلل أو اعتذار، وتحول هذه القيم إلى قوانين مفصلة، مطبقة، لها حرمتها... هو أول الطريق...

وكل ما عدا ذلك فهو باطل، وقبض الريح؟!

الحل والضمان:
حق التفكير والتعبير!

ضرورات هذا الحديث بالذات كثيرة.

فنحن العرب نمر بأزمة مدلهمة. ربما لم نمر بمثلها منذ نصف قرن.

وليست هذه مقارنة بين حال وحال. ولا بين زمن وزمن. فمنذ نصف قرن كانت معظم البلاد العربية محتلة، مسلوبة الارادة. وكانت معظمها فقيرة متخلفة. ثرواتها إما مجهولة، وإما مملوكة للأجنبى المغتصب. وجيوشها غير موجودة. وحكامها من صنع المستعمرين فى الأغلب. إلى غير ذلك مما نعرف من حال الأمة العربية والشعوب الاسلامية قبل نصف قرن، أى قبل الحرب العالمية الثانية.

والآن نرى الصورة بالتأكيد غير الصورة. صحيح لقد اغتصب من أرضهم قطر عزيز هو فلسطين، واحتلت اسرائيل أراضى من ثلاث دول عربية أخرى. ولكن الدول العربية صارت مستقلة الارادة فى مجموعها. لها مقومات الدول فى معظم الأحوال. ولها جيوش ودبابات وطائرات. ولها ثقافة وفكر وفن وأدب. ولها ثروات ضخمة. ولها أموال تؤثر فى حياة العالم. وبعد أن كانت الكلمة تعبر أرجاءها فى شهور لديها من محطات الاذاعة والتليفزيون والصحف والاذاعات ووسائل التعبير ما لا يقل فى نسبته إلى عددها السكانى عن مثله فى كثير من البلاد المتحضرة.

ولسنا فى حاجة إلى الاطالة. ولكن كل قارئ يعرف أن الأمة العربية

بما لها من موقع وما فيها من ثروات، وما يتدافع داخلها من تيارات، صارت أحد أهم ما يؤرق العالم من هموم. حتى أن الناس فى أى مكان فى العالم إذا تلفتوا إلى مكان يمكن أن يؤدى إلى قيام حرب عالمية ثالثة. أشاروا بأصابعهم إلى شرقنا الأوسط، أو إلى عالمنا العربى.

وكان هذا وحده كفيلا بأن يضعنا أمام أخطر الامتحانات وأصعبها. فالاهتمام العالمى إذا كان موضع فخر فهو يجر إلى التدخل. فتحوم وحوش الغابة وجوارح الطير من كل جانب. تبحث عن مواضع للخطأ وثغرات للانقسام.

وكأن زيادة وسائل التعبير فى بلادنا زادت من سوء التفاهم بينها وليس العكس.

وكأن المجلة الواحدة التى كانت تصل بين قطر وقطر، تبل الريق كقطرة الماء، كانت أفعل فى تفاهم شعوبنا من الضجيج الاعلامى اليومى الهائل، المتواصل، الذى يعبر آلاف الأميال فى أقل من الثانية.. ولكن القضية فى كلتا الحالتين، والقضية فى كل العصور والقرون، تبقى واحدة.

إن حرية الرأى وفتح الباب لتعدد الفكر هو المخرج، هو المخلص، هو صمام الأمان لكل أمة وكل شعب وكل مجتمع وكل نظام..

وقهر حرية الفكر قد يكون عمل فرد. كما كان يحدث قديما فى بعض العصور الخالية. وقد يكون عمل آلاف الأفراد والصحف والميكروفونات والكتب، كما يحدث أحيانا فى أكثر المجتمعات تقدما.. والعاقبة فى كلتا الحالتين وخيمة..

وقد استوقفنى هذا فى مناسبتين:

إحداهما: كنت أسترجع فيها حادثا فكريا قديما من تراثنا.

والمناسبة **الثانية** كنت أقرأ فيها كتابا جديدا مما أخرجته مطابع الولايات المتحدة الأمريكية حديثا..

ولكنهما على بعد الشقة، واختلاف النتائج، واختلاف نوع المجتمع تماما، يوصلاننا إلى نفس الاستنتاج. وربما كان الاستنتاج الواحد من محنتين مختلفتين تماما، هو العبرة. فالعبرة الواحدة من ظروف غاية فى الاختلاف، أقوى مائة مرة من عبرة تنتجها وتفرزها ظروف متشابهة..

القصة الأولى: قصة محنة أحمد بن حنبل مع الخليفة المعتصم..

وبإيجاز ودون خوض فى التفاصيل، ثارت فى أواخر عهد الخليفة المأمون قضية فكرية انقسم حولها الناس وهى: هل القرآن قديم، أى أن وجوده مرتبط بوجود الله، أم أنه مخلوق.

وقد تبدو لنا القضية لو طرحت اليوم غير ذات موضوع. ولا يمس الرأى فيها صدق إيمان أحد. ولكنها وقتذاك تحولت من جدل فلسفى إلى شىء آخر تماما حين اعتنق الخليفة الحاكم رأيا من الرأيين. فبدأت المحنة الكبرى تلاحق من لا يرى رأى الخليفة. وكالعادة كان المثقفون هم من تعرضوا للمحنة. فهم فى ذلك الوقت الفقهاء والعلماء والقضاة. فأرسل المأمون إلى وزيره وحاكم العاصمة بغداد اسحق بن إبراهيم يطلب منه امتحان القضاة والفقهاء قائلا له إن من يخالفون الخليفة فى الرأى لابد أن يكونوا «من حشد الرعية، وسفلة العامة، وأهل جهالة بالله، وعمى عنه، وضلالة عن حقيقة دينه..» فكأن الحاكم قد أدانهم بالكفر مقدما لمخالفة رأيه.

وأخذ اسحق بن إبراهيم يحضر الفقهاء والقضاة ويقرأ عليهم كتاب

الخليفة ـ محذرا ومنذرا ـ ثم يسألهم هل القرآن قديم أو مخلوق. فمنهم من قال برأى الخليفة فأخلى سبيله، ومنهم من قال بغير رأى الخليفة، فكان يوضع فى الاصفاد، ويقيد بأثقل الأغلال، ويتعرض لشتى صنوف العذاب. فكان منهم من يعود فيعدل عن رأيه، حتى يتخلص مما هو فيه. وما هى إلا كلمة يقولها والله أعلم بما بقى فى ضميره. ومنهم من يثابر، ثم يستسلم.

وكان من بينهم أحد أكبر فقهاء الاسلام وهو أحمد بن حنبل.. وكان أكثرهم عنادا، فربطوه فى الحديد، وألقوه بكل مقامه الجليل فى السجن حتى يرى الخليفة فيه رأيه. ولكن الخليفة المأمون لم يلبث أن توفى.

وأمر المعتصم فأحضروا أحمد بن حنبل إلى مجلسه. وقد أحضروه وهو مكبل بأغلال من الحديد، وهو الكهل، لا يطيق حملها ولا السير بها.. ويجلسونه فى هذه الحال فى حضرة الخليفة.. ليناقش فقهاء السلطان. فإذا أفحمهم وهزم حججهم، أخذوه مثقلا بأغلاله إلى السجن.

ويتكرر هذا يوما بعد يوم.

ولا أطيل على القراء. فقد انتهى الأمر بأن أمر الخليفة آخر الأمر فجردوه من ثيابه، وربطوه إلى كرسى، وانهالوا عليه بالسياط.. حيث كان يجلس يناقش. وكلما غاب عن الوعى من العذاب، أفاقوه، وسألوه إن كان قد عدل عن رأيه، فيقول لا، فيعودون..

ولما كاد يموت فى مجلس الخليفة، أعادوه إلى أهله كتلة مهشمة من اللحم والدم..

كانت السلطة فى أوج عظمة الامبراطورية الاسلامية تنزلق أكثر وأكثر إلى الاستبداد.. وبالتالى إلى التداعى والانهيار..

● ● ●

الملاحظة الثانية التى استوقفتنى، وجعلتنى أتأمل عـوامل صـعود وانهيار الامبراطوريات والأمم حتى وإن بدت فى أوج مجدها.. كانـت فى كتاب أمريكى، عن الولايات المتحدة الأمريكية..

الكتاب ضخم فى حوالى ألف صفحة. وقد اعتبرته الصحافة الأمريكية أهم كتاب صدر فى هذه الفترة. واسمه «البحث عن التاريخ». ومـؤلفه أحد أكبر الصحفيين المؤلفين فى أمريكا وهو تيودور هوايت. وقد جمـع فيه خلاصة متابعته للأحداث التاريخية الكبرى حيثمـا وقعـت طـوال أربعين سنة تقريبا.

وقد غطى الكاتب ثلاث فقرات تاريخية عاشها حيـث كان التـاريخ يصنع بالفعل.

* مع الثورة الصينية (من ١٩٣٨ إلى ١٩٤٥) مزاملا ماوتسى تونج وشواين لاى.. وشيانج كاى شيك.

* إعادة بناء أوروبا بعد الحرب بمشروع مارشال (١٩٤٨ – ١٩٥٣).

* فترة التحولات الكبرى فى أمريكا بعد الحرب، من رئاسة ايـزنهاور إلى مقتل جون كنيدى (١٩٥٤ – ١٩٦٣).

ويهمنى فى هذا الحديث صفحات أراد المؤلف فيها أن يجيـب عـن سؤال هام:

ما الذى ورط الولايات المتحدة الأمريكية فى حرب فيتنام؟

ما الذى جعل هذه الدولة الكبرى تحارب حربا مجنـونة طيلـة عشر سنوات، وتخسر نصف مليون من شبابها بين قتيل وجريح، وتخسر فـوق ذلك سمعتها، وخسائر سياسية لا حصر لها، وانهيارات لمواقفها، وشك فى حسن تقديرها حتى بين حلفائها...

ثم إن أمريكا لديها كل وسائل حرية الرأى. وكل أسـباب المعـرفة ومشاركة الرأى العام. وكل أنواع المخابرات ومراكز الأبحاث ووسـائل الدراسة. فما الذى أعماها رغم كل هذا، وساقها معصوبة العينين إلـى مستنقعات فيتنام؟

يقول تيودور هوايت، فى إجابة مفصلة جدا: إنها «المكارثية» التـى اجتاحت أمريكا لبضع سنوات قليلة، إن الخوف مع الأسف، هو الـذى يحرك أحداث التاريخ، أكثر مما يحركها الأمل..

وبمجرد أن انتشر الخوف فى أمريكا، من أن يتعرض لاتهام مكارثى له بما سمى «النشاط المعادى لأمريكا» صار كل صاحب رأى، أو صـاحب منصب، أو صاحب مسئولية، يحاول أن يتخلـى عـن دوره، وينـزوى، ويسكت، وهو يرى الكارثة المحققة.

كانت أمريكا وقتها أغنى ما تكون بخبـراء الصـين والشرق الأقصى. يعرفون كل شىء من اللغة والأصل والتاريخ إلى السـياسة والـزعماء الجدد. ولكن الارهاب الفكرى الذى نشره مكارثى باتهام كل شـخص فى وطنيته، كان بمثابة من خلع عينى أمريكا وقطع أذنيها. فصارت بالنسبة لأحداث آسيا كلها لا ترى ولا تسمع. ومضت إلـى كارثـة سـياستها الآسيوية التى دامت بعد ذلك حوالى ربع قرن!

لقد جر مكارثى كل عقل أمريكا إلى لجنة التحقيق فى الكونجرس. لم

تكن هناك سياط كسياط المعتصم. ولكن كانت هناك سياط من نوع آخر لا يقل قسوة وهو التشهير أمام الرأى العام و «اغتيال الشخصية» كما يقولون فى التعبير الانجليزى Character Assassination. جر إلى المحرقة العامة الآلاف من الخبراء وأساتذة الجامعات وموظفي الدولة وجنرالات الجيش والكتاب والصحفيين. وكل من قال رأيا ذات يـوم فى سـياسة أمريكا نحو الصين مخالفا لما جرى. بل وكل من قـابل ولـو فى مهمـة رسمية أحدا غير مرغوب فيه.

وقد انتهى مكارثى نهاية محزنة بفضيحة أودت بـه. ولـكن رعشـة الرعب التى صارت رمزا فى كل مكان واسما يطلق وهو «المـكارثية».. رعشة الرعب هذه لم تفارق أمريكا بكل ضـخامتها وحـرياتها سـنوات طويلة..

فلما بدأ العملاق يذهب فى مغامرته الخاسرة ويغرق فى وحول آسـيا.. لم يجسر واحد على النطق. لا الخارجية. ولا المخابرات. ولا الخبـراء. ولا الكتاب. ولا أعضاء الكونجرس..

وكان الثمن نصف مليون قتيل وجريح. وربع قـرن مـن السـياسة المدمرة الفاشلة. وانفصام داخلى فى أمريكا أدى إلى عنف السـتينات.. من مظاهرات المدن إلى اغتيالات جون كنيدى وروبرت كنيدى ومـارتن لوثر كنج وغيرهم. كل هذا مقابل سنتين أو ثلاث من الارهاب الفـكرى العام!

إن الحكايتين اللتين رويتهما هنا، ليستا فريدتين فى التاريخ.. ولكننى قصدت أن أضع جنبا إلى جنب نموذجين متباعدين تماما.. فى بيئتيـن وعصرين مختلفين أشد الاختلاف. ولكن أثـر قفـل بـاب الاجتهـاد،

والارهاب الفكرى من السلطة أو من الجماهير، يصل فى الحالتين إلــى نفس النتائج..

وأمتنا العربية والاسلامية فى أخطر ظروفها..

الخلاف العربي ضار فتاك. القضايا المطروحة للاختيارات وللقرارات تدور لها الرءوس.

ونحن فوق هذا كله نخرج من ظلمة إلى نور. ومن تخلف إلى محاولة تحضر. ومن انكفاء على الذات إلى انفتاح على العالم. ومــن تجــاهل العالم لنا إلى اهتمامه بنا. ومن بحث عــن هــويتنا بيــن الأصـــالة والتجديد..

فإذا لم يكن حق التعبير وحق التفكير لهما ضرورة بل وقداسة فى هذه المرحلة. وإذا لم يتعلم الحكام والمحكومون هذه الكلمة الآن. ففــى أى وقت سنكون فيه أحوج إليها من وقتنا هذا فى عالمنا هذا؟

العناصر الناقصة.. فى القوة العربية

السؤال يطرحه كل عربى على نفسه، ولا يجد له جوابا...

مهما كان القطر الذى ينتمى إليه المواطن العربى. ومهما كانت الفئة الاجتماعية التي هو منها. ومهما كانت درجة التعليم أو المستوى الثقافى الحاصل عليه.. فهو يطرح هذا السؤال على نفسه، وعلى الآخرين حين يحاورهم، بصيغة أو باخرى من صيغ التساؤل... تناسب ظروفه الثقافية والاجتماعية والبيئية التى يعيش فيها.. ولكن السؤال فى الجوهر هو نفس السؤال..

والسؤال يقفز، كلما شعر أى واحد منا ـ وهو الشعور السائد ـ فى معظم الاحوال أن هناك فرقا كبيرا.. ومسافة شاسعة.. بين ما «نعتقد ونتصور» أن العرب قادرون عليه... وبين ما يحققونه بالفعل... سواء فى داخل بلادهم، أو فيما بينهم وبين العالم الخارجى من قضايا ومشكلات...

السؤال هو:

– إننا نحن العرب لدينا من أسباب القوة وكذا وكذا وكذا.. فكيف لانستطيع أن نفعل كيت وكيت؟

إننا اكثر من مائة مليون.. واكثر من عشرين دولة.. وعشرين جيشا.. ولدينا الموقع الجغرافى الاستراتيجى.. ولدينا السلعة الاستراتيجية الاولى وهى البترول.. فلماذا نقف منذ ثلاثين سنة هذا الموقف

المتردى.. من القوى الخارجية بوجه عام..؟!

يطلق المواطن العربى هذا السؤال على نفسه أو على غيره، كلما هاجت الخواطر أو ثار نقاش، ثم ينتهى إلى حالة من الحيرة والاحباط وعدم الاقتناع بما يلقى امامه أو ما يعثر عليه هو من حيثيات ومبررات..

السؤال هام، وغير نظرى.. بل إنه واقعى جداً. بل إنه هو «السؤال»!...

وربما كانت البداية الصحيحة، فى محاولة العثور على رد مقبول، هو ان نرد على السؤال بسؤال:

ـ نعم.. إن لدينا من عناصر القوة كذا وكذا وكذا.. ولكن ما هى ياترى عناصر القوة التى تنقصنا؟...

وهل يا ترى نستطيع ان نستكملها؟ وكيف؟..

إن «القوة» ليست شيئا مجردا. يكون أو لا يكون. إنما القوة مجموعة عناصر، ربما يغيب بعضها فيؤثر على سائرها. كالموقع الجغرافى مثلا. او الثراء. إنها عناصر هامة فى تركيب «القوة». ولكنها بمفردها قد تنقلب إلى عوامل ضعف: كأن تصبح الدولة الغنية أو ذات الموقع الهام، مطمعا للآخرين، ومصدرا لاثارة شهية القوى الخارجية ضدها.

والتعدد مثلا.. قد يكون مصدر قوة إذا عرف كيف يتكامل، وقد ينقلب إلى مصدر ضعف إذا كان سببا فى التفكك والتناحر..

● ● ●

مجلة «الشئون الخارجية «FOREIGNAFFAIRES» الأمريكية، التى تصدر مرة كل ثلاثة شهور.. اصدرت عددا خاصا بمناسبة مرور خمسة وخمسين عاما على صدور اهم مجلة فى نوعها، كرست معظمه لعدد من اكبر المفكرين والساسة يناقشون فيه موضوع «القوة»! بمعنى «القوة» فى السياسة الدولية طبعا...

وهناك طبعا، عناصر «القوة» التقليدية المعروفة، نسجلها هنا فى ايجاز، حتى نصل إلى ما نريد التركيز عليه.

فمن ابرز عناصر القوة، بمعناها التقليدى منذ القدم:

● القوة العسكرية، وامرها معروف وحاسم طبعا.

● القوة الاقتصادية والمادية. وهى ايضا امرها معروف. وهى فى الواقع ـ اى القوة الاقتصادية والمادية ـ هى التى تنتج إلى حد كبير العنصر الاول وهو القوة العسكرية. فالدولة إذا كانت صناعية متقدمة، ولديها مصادر الخامات المطلوبة، تصبح اقدر من غيرها على انتاج السلاح وحشد الجيوش. وانتاجيتها تجعلها اقدر من غيرها على احتمال تمديد الحرب زمنا اطول من خصومها.

● قوة عدد السكان والموقع الجغرافى...

فالصين مثلا دولة متخلفة مثل دول العالم الثالث، إذا اخذنا فى الحساب مستوى المعيشة ومعدل دخل الفرد وغير ذلك. ولكن مجرد أنها دولة تضم حوالى ألف مليون، يجعل لها هيبة خاصة وخطرا خاصا، ولو كان خطرا مستقبلا وليس آنيا، ولكنه يدخل بالتأكيد فى كل حساب. وكذلك الهند، وما يليها من بلاد.

وفى الصراع العربى الاسرائيلى مثلا، رغم أن إسرائيل خرجت منتصرة فى معظم الحروب... إلا أن مجرد ان عدد سكانها ثلاثة ملايين والعرب اكثر من مائة وعشرين مليونا، يجعلها فى نظر العالم فى وضع المدافع عن نفسه، وضع من لا يملك المستقبل.

ولاشك ان التقدم العلمى الهائل، وانعكاسه على قدرة القوة العسكرية، قد قلل من قيمة «العدد» ورفع من قيمة «النوع» : أى نوع الاسلحة التى فى يد الجنود، ومدى كفاءة وتعليم الجنود الذين يحملون السلاح..

ففضائل الجيوش فى الحروب القديمة، حروب السيف والرمح، من شجاعة وحماسة وكثرة عدد، حلت محلها فضائل اخرى هى درجة التعليم، ودرجة استيعاب الاسلحة الحديثة والتحكم فيها، وقوة النيران لا قوة الأفراد، بالاضافة طبعا إلى الفضائل القديمة.

وليس مصادفة ان نجد ان «القوتين الاكبر»، امريكا وروسيا، كلتيهما تتجمع لها أكبر درجة من عناصر القوة سالفة الذكر:

العدد الكبير (٢٢٠ مليونا أمريكا ـ ٢٥٠ مليونا روسيا)، والقوة الانتاجية الهائلة وتوافر معظم المعادن الخام المطلوبة للصناعة داخل ارضها (حديد ـ فحم ـ بترول ـ إلخ) فهما ليستا مثل اليابان أو المانيا، اللتين هزمتهما، إلى جانب اسباب اخرى، ندرة البترول المستورد كله من الخارج.

● يأتى بعد ذلك عنصر هام وان بدا غريبا، وهو: قدرة الدولة على التحالف مع آخرين:

فهناك دولة تكون على درجة من الذكاء السياسى، والمرونة، وبراعة التخطيط، بحيث يكون لها دائما حلفاء من دول اخرى تقف بجانبها فى الحرب أو السلام على السواء..

فألمانيا مثلا خسرت حربين عالميتين، لأنها كانت معزولة عن أوروبا، ولانها فى الحربين لم تتمكن من كسب تضامن حلفاء مهمين معها.

وإنجلترا بالمقابل هزمت نابليون، ثم هزمت الامبراطور غليوم، ثم هزمت هتلر.. لأن إنجلترا كانت دائما لا تخوض حربا بمفردها قط. إنما تخوض حروبها دائما مع حلفاء. وكما قال تشرشل عندما امكنه التحالف مع اعدى اعدائه، الاتحاد السوفيتى، خلال الحرب، من انه مستعد «للتحالف مع الشيطان» لكسب الحرب، كان دائما هو شعار الامبراطورية فى أوج مجدها،وقبل زوال شمسها..

وإسرائيل، لم تكسب موقعة حرب او موقعة سلام. الا بمحالفات مع دول قوية.. مع انجلترا سنة ١٩٤٨.. ومع فرنسا وانجلترا سنة ١٩٥٦.. ومع أمريكا سنة ١٩٦٧.

وإذا كانت هذه الصفة «القدرة على التحالف مع الآخرين» مهمة للقوى الكبرى.. وقد رأينا صراع الاحلاف فى العقدين الماضيين وكيف كانت ضراوته.. فإنه ألزم للدول الصغيرة والنامية.. وفى هذا المجال تمكن ملاحظة المزايا التى استفادتها دول هذا النوع فى دائرة التجمع العربى، أو التجمع الاسلامى، أو التجمع الأفريقى، أو تجمع دول عدم الانحياز. فلاشك ان التجمع على هذه المستويات قد ساعد فى حالات كثيرة على تحقيق استقلال أقطار لم تكن مستقلة، وحماية مصالح بلاد أخرى..

وربما نلاحظ لهذا السبب ان الدول الكبرى او العالم الصناعى المتقدم كله.. ينفر من هذه التجمعات، ويحاول تخريبها او تفكيكها قدر الامكان.

والواقع أن بند «القدرة على التحالف مع الغير» إنما يشير ـ بين عناصر القوة ـ إلى عنصر الحذق السياسى، وبعد النظر.. واكتشاف المجالات المشتركة مع الغير ـ سياسيا واقتصاديا ـ وكيف تضع الدولة قضاياها فى موضع القضايا العادلة التى «تقنع» الغير فوق ذلك.

ونستطيع أن نضيف فى إطار وسائل الاعلام الحديثة، ذات القوة الساحقة، من سينما وصحافة وإذاعة وتليفزيون. وهنا ايضا من السهل ان نلاحظ قيمة هذا العنصر، إذا تذكرنا ما حققته اسرائيل من نتائج، بسبب تأثيرها على أجهزة الاعلام فى الخارج، وكسبها للرأى العام العالمى خلال فترة طويلة، قبل أن يتنبه العرب إلى خطورة هذا السلاح وقيمته...

● وقد وجد الباحثون والمفكرون ما وصفوه بانه نوع جديد تماما من أنواع «القوة»، لم يسبق له مثيل خلال التاريخ الانسانى كله. وهو ليس موجودا حتى اليوم إلا فى حالة واحدة فقط: هى دول منظمة «الاوبيك» او منظمة الدول المصدرة للبترول.

نحن هنا نواجه نموذجا جديدا تماما: دول تفتقد معظم عناصر القوة التقليدية ـ فى رأيهم ـ دول قليلة السكان، ضعيفة عسكريا، وغير ذات موقع استراتيجى هام. ولكن تكوين الكرة الأرضية أعطاها ما يشبه الاحتكار لسلعة باتت أهم سلعة فى العالم وهى البترول.

ولو كانت كل دولة مصدرة للبترول، منفردة بنفسها، لكانت قوتها أقل

بكثير. ولكن قدرتها على التجمع ونجاحها فيه، جعلها ذات نفوذ عـالمي من نوع خاص.

فهي تستطيع بقرار منها ان ترفع أسـعار كل شـيء في العـالم أو تخفضها. أي أن أثر قراراتها يصل إلى كل بيت وليست إلى كل دولـة فحسب. والدول العربية منها متقاربة جغرافيا، ولهـا قضـايا سـياسية مشتركة إزاء العالم، وبالتالي فهي قادرة على استخدام البترول كسـلاح سياسي مباشر. وقد حدث هذا بالفعل بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣.

وبعد أن كانت الشركات العملاقة، المتعددة الجنسيات، تملي شروطها على دول البترول، انعكست الآية تماما.

ويضرب الخبير «جون كامبل» مثلا بالتأثير السياسي: إذ يـذكر كيف أن الدول الأكثر اعتمادا على البترول العربي ــ اليابان وغرب أوروبا ــ هرولوا ساعة الحظر إلى محاولة إنقاذ علاقاتهم. وكان هذا موضع خلاف شديد بين هذه الدول وحليفتهم الأساسية، الولايات المتحدة الأمريكية..

وحتى الآن ــ يقول جون كامبل ــ نجد أن هذه الدول الأكثر اعتمادا على البترول العربي، إن لم تأخذ خط السياسة العربية تمـاما، بسـبب وجود الولايات المتحدة، إلا أنها على الأقل مضطرة «لمجاراة» العـرب أحيانا، أو على الأقل «مداراتهم» حتى لا تتدهور الأمور إلـى وضـع خطير..

وقد كان ممكنا أن تفعل دول أخرى ما فعلته دول البتـرول: أي أن تظهر «اوبيك» تضم الدول المنتجة للفوسفات، وهكذا بـالنسبة للسـلع الأخرى الأساسية...

ولو أن تلك الدول المنتجة للخامات تمكنت من عمل تكتلات مثل تكتل

دول البترول، لتغيرت موازين القوى فى العالم كله، ولأصبحت الدول الفقيرة المنتجة للخامات فى وضع قوى جداء إزاء الدول الصناعية المتقدمة، المستهلكة لمعظم خامات العالم..

ولكن هذا لم يحدث إلى الآن. ربما لأن السلع الاخرى ليس لها أهمية البترول. ولكن من يخطط للمستقبل عليه ان يضع فى حسابه هذا الاحتمال..

يأتى بعد ذلك عنصر من عناصر القوة، ربما كان اقدم العناصر، والكثيرون يعتقدون أنه أهم عناصر القوة.

ذلك هو: البعد الداخلى... أى الظروف الداخلية لأى دولة تريد أن تكون ذات قوة ما فى الحياة الدولية..

فكل العناصر السابقة.. من مال أو سلاح أو صناعة أو اقتصاد.. إنما هى فى النهاية اسلحة فى يد الدولة أو المجتمع الذى يملكها...

فهى كلها ــ مجتمعة او متفرقة ــ بمثابة السيف. وكما أنه من المهم أن يكون سيفا قاطعا فانه من الأهم ان تكون «اليد» التى تمسك بهذا السيف ثابتة...

فقد رأينا ــ مثلا ــ إمبراطوريات أعرق وأكثر حضارة وإنتاجية وقوة عسكرية.. تنهار أمام المد الاسلامى البسيط القادم من صحراء فقيرة.. ذلك ان هذه الامبراطوريات كانت قد شاخت، ودبت فيها عوامل الانحلال. فانهزمت رغم قوتها أمام قوة أضعف منها فى كل شىء إلا فى طاقة الايمان، والاقتناع، وقوة الاندفاع.

ونفس الشىء حدث للامبراطورية الاسلامية.. عندما وصلت إلى ذروة

حضارتها، ثم دبت فيها عوامل الانحلال، فصارت تتساقط قطرا بعد قطر، أمام زحف اوروبا الجديدة، التى استردت شبابها.

وشروط «الوضع الداخلى» لأى بلد، كثيرة، وفى تقديرى أنها معروفة لأى قارئ...

ولكن ذلك الحوار توصل إلى ان هناك شرطين أساسيين، لا غنى عن وجودهما قط، حتى يصبح المجتمع مجتمعا قويا، والدولة دولة قوة...

الشرط **الأول** هو التعليم.

والشرط **الثانى** هو الاطار السياسى والاجتماعى.

بالنسبة **للشرط الأول**، فهو بالفعل شرط بديهى، فقد دانت الدنيا فى عصرنا هذا بالذات للعلم. والعلم ليس بمعنى العلوم التطبيقية وحدها ـ الكيمياء والطبيعة والهندسة والذرة ـ ولكن العلم بمعنى الأخذ بالأسلوب العلمى، من أكبر الأمور إلى أصغرها، وهذا لا يتوافر إلا بوجود قاعدة واسعة «متعلمة».

وغياب هذا العنصر، من أقتل الأشياء للقوة العربية الممكنة..

إن وجود نسبة من الأمية تدور حول ٧٠٪ فى العالم العربى بوجه عام، أمر لم يعد مقبولا. وعبء على كاهل الأمة العربية يفترس حيويتها، كما تفترس الأمراض المتوطنة جسد الانسان.

ولو وضعنا تاريخا مقبولا فى معظم الحالات.. منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم توالى حصول الدول العربية على استقلالها، نجد أن دول الاستقلال قد ضيعت ربع قرن من الزمان، دون أن تختفى الأمية أو حتى تقل بدرجة ملحوظة. إنما نكاد نلهث لملاحقة عدم زيادة النسبة مع تزايد عدد السكان.

وقد أخذت قضية الامية فى نظرنا مأخذ الترف. أو الشىء الـذى لا حل له. وهذا غير صحيح. إذا اطلعنا على تجارب بلاد أخرى...

من المحراث فى الزراعة.. إلى الصاروخ فى الحرب.. تتضاعف قيمـة أى أداة بمدى تعلم الفرد وتدريبه وتعوده التعامل مع أدوات العصر...

إن هذه هى إحدى الثورات الكبرى التى يحتاج إليها العالم العربى. وبغيرها لا يمكن اجتياز حد معين من حدود القوة.

والأساس فى انفصام الشخصية العربية، هو وجود فئة متعلمة مثقفة.. وفئة غائبة تماما عن كل هذا الأمر الذى يجعل الحوار فى داخل الأمـة «حوار طرشان» وينتج تمزقات وتصادمات فى القيم والعادات والأهداف والمثل العليا.

والشرط الثانى الذى هو الاطار السياسى الاجتماعى السليم، القوى المرن فى نفس الوقت، كذلك شرط يبدو بديهيا.

والمقياس الذى يقيس به اى مفكر غربى مدى توافر هذا الشرط هو: مقياس الديمقراطية وحرية الرأى.

وهو بالتأكيد مقياس سليم: فـالشعب الـذى يسـتطيع أن يحقـق الاستقرار مع توافر الديمقراطية وحرية الرأى، هو الذى يمكن أن يقـال عنه إنه شعب منسجم مع نفسه، قد تعمقت جذوره.

لأن الانسجام هنا لا يكون مفروضا بالقوة، ولكنه متبلور من خـلال تفاعل صحى، واختيار حقيقى.

ولكننا لا نضع بالضرورة صورة واحدة للديمقراطية وحـرية الـرأى، منقولة حرفيا من عالم آخر...

إنما نقول إن المطلوب توافر هذين العنصرين، بشكل ينسجم مع تقاليد وقيم كل شعب ونوع تطلعاته وأهدافه.

وذلك بدوره عنصر ناقص فى كثير من بلادنا العربية.. وبالتالى فهو عنصر قوة ينقصنا ونحن محرومون منه.

وما أشد ما تتعاظم القوة التى يملكها شعب، إذا استطاع بمحو الأمية ونشر الثقافة وتكريس صورة الديمقراطية، أن يشارك كل الشعب - وليست فئة قليلة منه - فى الحوار الأبدى، الدائر باستمرار داخل كل أمة، صاعدة، ناهضة، تنوى حقا أن تهزم مشكلاتها وأن تحصل على أهم أسباب القوة.

قضية «النخبة».. و«الجماهير»
فى مرحلة الانتقال التى يمر بها العالم العربى

بعد احتراق دار الأوبرا فى القاهرة، دار فى مصر حوار واسع حول بناء دار جديدة للأوبرا بدل الأوبرا التى احترقت. وهل لمثل هذا المشروع مجال بالنسبة لبلد يجتاز ظروفا اقتصادية صعبة كمصر، ولكنها من ناحية أخرى اعتادت فكريا وثقافيا وجود دار للأوبرا، فضلا عن أنها قضية مطروحة أيضا فى بلد آخر مختلفة ظروفه، دولة جديدة هى الكويت، يرى البعض ضرورة وجود مثل هذه المنارة الثقافية فيها، ويرى آخرون أنها مجرد ترف...

هكذا... ناقشت الأمر مرة من ناحية أهمية العلوم الانسانية تماما كالعلوم التطبيقية، رغم افتتان الناس بها، فى ظل حضارة حديثة طابعها الطاغى هو الجانب المادى، لأن أى مجتمع لا يتقدم على ساق واحدة، إلا تقدما أعرج غير حقيقى، وهنا أريد أن أقول إن الموضوع نفسه كان سببا فى مناقشة قضية أخرى، هى قضية «النخبة».. و«الجماهير»...

والعلاقة هنا ـ بحكاية بناء الأوبرا ـ أن الناس فيهم من يرى أن الأوبرا لا يفيد منها إلا الخاصة رغم أن أموالها مأخوذة من حق الجماهير، وفيهم آخرين يرون غير هذا الرأى...

وفى البداية، نلاحظ أن «النخبة» هى التى حكمت العالم عبر تاريخه الطويل...

ولذلك كان التاريخ كله تقريبا ـ قبل المائتى سنة الأخيرة ـ هو تاريخ الأباطرة والقواد العسكريين وكبار الفلاسفة والمفكرين والأدباء والعلماء.

طبعا، كان العبء الأكبر فى استمرار الحياة يقع كالعادة على عاتق قاعدة عريضة من الناس، هم الذين يزرعون ويبنون ويموتون فى المعارك الكبرى. لكن التاريخ كان لا يتذكر هؤلاء.. ونادرا ما نجده يتعرض ولو لنوع حياتهم.. وكل حضارة الفراعنة التى عاشت أساسا من خلال فن العمارة والنحت لم تحفظ لنا اسم فنان واحد عظيم.. إنما كل الذى نعرفه هو أن خوفو هو الذى بنى الهرم.. ورمسيس هو الذى أقام المعابد ويوليوس قيصر هو الذى خاض المعارك وشرلمان هو الذى وحد أوروبا. ثم القلة القليلة النادرة من الذين بقيت أسماؤهم فى عالم الفكر والفن.. سقراط، ارسطو، شيشرون، فولتير، موليير، وغيرهم.

وكان هذا وضعا طبيعيا، فالسلطة كانت أما وراثية، وإما ينتزعها صاحبها بالقوة. وكانت النخبة التى تتولى تسيير الأمور بالتالى محصورة فى هذا النطاق. حتى إذا نبغ فى عصره عالم أو أديب أو قائد عسكرى أو طبيب، فهو لابد أن يمارس كفاءته داخل هذه النخبة المحدودة وفى إطارها، فيتوقف نجاحه على التحاقه بها، وجذب انتباهها إليه. ثم الاحتفاظ برضاها عليه.. وإلا فالسقوط من حالق، أو أن يسلم عنقه لضربة السياف أو حبل المشنقة.

ولم يكن التعليم بالمعنى الذى نعرفه موجودا. إنما كان عدد الذين يقرأون ويكتبون فى أى عصر يعدون على أصابع اليد الواحدة.

وليس معنى ذلك أن مركز السلطة والتوجيه ـ أو النخبة بهذا المعنى

القديم ـ كانت على الدوام جاهلة. ففى بعض العهود كانت على العكس تتميز بالمعرفة وتشيع فيها قيم الثقافة والعلم. فقد عرفت بعض عصور الخلافة الاسلامية، الخلفاء الذين يحيطون أنفسهم بالشعراء والأدباء والفقهاء، والذين كانوا يهتمون بتربية وتعليم أبنائهم المرشحين للحكم من بعدهم. كما عرفت أوروبا مثلا عصرا مثل عصر لويس الرابع عشر، حيث كان ملوك وأباطرة أوروبا يتباهون بمن فى بلاطهم من فلاسفة وأدباء وحكماء وفنانين، ولكن هذا كله كان يدور فى قصر الحاكم، فرساى مثلا. حتى الموسيقار لا يجد جمهوره المستمع إلا فى القصر، وعرف ما يسمى «بموسيقى الحجرة» قبل أن توجد موسيقى الأوركسترات الضخمة التى تعزف فى القاعات الكبيرة وللجماهير. وكان المؤلف المسرحى مثل موليير لابد أن يقدم مسرحياته فى مسرح القصر لنخبة أنيقة مترفة معطرة.

كانت إذن داخل تلك الدائرة تعيش النخبة وتولد الأحداث ويلمع النجوم وتتخذ القرارات، بشكل أو بآخر طيلة السبعة آلاف سنة المكتوبة من تاريخ الانسان، ما عدا حوالى المائتى سنة الأخيرة تقريبا من هذا التاريخ الطويل...

على أن الوضع بدأ يتغير جذريا بعد ظهور المطبعة. وليس مصادفة أن ظهور المطبعة تلاه مباشرة عصر من كبار المفكرين وعمالقة الأدباء والفنانين فى أوروبا. وتلا هذا فورا ظهور أفكار اجتماعية جديدة، وغليان ضد النظام الاقطاعى الذى لم يعرف له الناس عبر القرون بديلا. وتمخض هذا كله عن حدث الثورة الفرنسية العظيم الذى هز أوروبا كلها هزا...

ولعل تلك الفترة كانت أزهى عصور ما يسمى «بالنخبة » على

الاطلاق، لأننا سنرى بعد قليل كيف إنها بدأت فى عصرنا الراهن تعانى من محنة أخرى.

كانت المطبعة وغيرها من وسائل النشر قد أخذت طريقها إلى الانتشار. وأصبح الكتاب والعلماء والأدباء والشعراء ذوى أسماء مشهورة ولهم صيت كبير. وخرج الرسامون من تزيين جدران القصور إلى الكنائس وأماكن أخرى عامة كثيرة، وبدأت تتكون المدن الكبيرة بالتدريج مع بوادر الصناعة والتجارة وتحسن المواصلات. وخرج الموسيقيون من تأليف «موسيقى الحجرة» إلى وضع السيمفونيات العظيمة التى تعزف لجمهور أوسع بكثير. وأخذت نظم التعليم تظهر وتنتشر. وبوجه عام – وهو أمر أساسى – صار الفيلسوف والمفكر والأديب والفنان يراعى جمهورا جديدا، ويتوجه إليه، ويتوقع حكمه، بعد أن كان لا يفكر إلا فى جمهور محدود جدا، إذا جاز أن يطلق على هذه القلة اسم «جمهور».

لقد صار لهؤلاء المثقفين لأول مرة – قبيل الثورة الفرنسية – صيت عظيم فى البلاد، وأثر كبير فى الرأى العام، ولأول مرة تكونت النخبة – بالمعنى الثقافى لا الوراثى – من غير طبقة النبلاء الحاكمة، وصارت تخاطب جماهير أوسع. كان هؤلاء حقا هم الذين صنعوا حدث الثورة الفرنسية العظيم. بالأفكار الجديدة التى دعوا إليها، والكتابات التى نشروها، والأندية التى أسسوها.

وكانت هناك فى نفس الوقت حركة استقلالية وتحررية أخرى عظيمة، لم يلتفت الكثيرون إلى مغزاها الهائل فى ذلك الوقت، لأنها وقعت بعيدا فى العالم الجديد، تلك هى حرب استقلال الولايات المتحدة الأمريكية ووضع وثائقها الأولى.

هنا أيضا نجد أن هذه الثورة ـ رغم كل عواملها الاقتصادية والاجتماعية ـ كأى ثورة، فقد كان دور النخبة بمعناها الثقافى أيضا دورا مرموقا ملحوظا لأول مرة...

يقول المؤلف الأمريكى «ميرل كيرتى» فى وصف هذه المرحلة فى بدء حياة أمريكا «كان كل من الحزب الاتحادى والحزب الجمهورى يتفاخر بمن لديه من زعماء من أهل الثقافة والفكر. وكثيرون من مؤسسى أول جمهورية فى العالم الحديث جمعوا بين الثقافة العالمية والعمل. فالمؤتمر الدستورى الأول سنة ١٧٨٧ كان فيه واحد وثلاثون من الخمسة والخمسين عضوا يحملون أعلى شهادات الكليات والمعاهد العليا، وآخرون مثل بنجامين فرانكلين كانوا مثقفين من أعلى طراز بمجهودهم الخاص، وفى قاعة الاستقلال ذلك الصيف كان يجلس مديرا جامعتين وثلاثة أساتذة جامعيون، وجيمس ماديسون أحد أكبر مفكرى زمانه. وجون آدمز أستاذ الكلاسيكيات ومؤلف كتاب «دفاع عن الدستور». وكونيسى أشهر أعضاء أكاديمية الفنون والعلوم، وتوماس جيفرسون، وغيرهم».

دخل «النخبة» إذن من رجال الفكر، جنبا إلى جنب مع رجال العمل الأول مرة، وخلقوا فى «الرأى العام» ـ وهو فى حد ذاته تعبير جديد ـ تيارات قوية وغرسوا فيه أفكار أهم ثورتين فى ذلك العصر، «ثورة الاستقلال الأمريكية، والثورة الفرنسية الكبرى» فاتحين بذلك عصرا جديدا تماما للشعوب.

ولعلنى استطرت قليلا...

ولكن ما أريد أن أقوله هو أن الشعوب فى مجموعها قضت معظم

التاريخ الانسانى وليس لها حساب كبير، رغم أنها كانت علـى الـدوام صانعة الحياة. وأن النخبة ـ المنبثقة عن هـذه الجمـاهير ـ عـرفت فترات من اللمعان مع ازدهار الحضارات، أبـرزها الازدهـار العـظيم والاحترام الكبير الذى ناله كبار المثقفيـن فى العصر الـذهبى للـدولة الاسلامية، خصوصا فى بغداد العباسيين وفى الأندلس. حتى اضـطهاد البارز منهم ـ كاضطهاد الامام أحمد ابن حنبل ـ كان دليلا على أهمية أمثاله وتقدير الحاكم لدورهم فى تشكيل الفـكر العـام. ثـم كان حـظ المثقفين يخبو مع اضمحلال كل حضارة.

ولكن الفترة التى أتحدث عنها من القرن الثامن عشر والقرن التاسع عشر، كانت تختلف عن كل ما سبق، إذ شبت فيهـا حـركات التحـرر، وقامت الثورة الصناعية تدريجيا، وتكونت ـ كما قلت ـ المدن الـكبيرة، وبدأ يصبح «للجمهور» وزن لم يكن له من قبل. وبالتالى صار للمثقفين دور بارز، فهم القادرون على إنتاج المخترعات الحديثة المتوالية التـى تغير حياة الانسان ، وهم القادرون على توجيه أفكارهم وآرائهـم إلـى هذا الجمهور الجديد، الأمر الذى أكسبهم قوة وشهرة، وظهر أكبر نوابغ الفكر والآداب والعلوم وقممها خلال تلك الفترة.

ولكن، حين نصل إلى العصر الحديث، بمعناه الـراهن، نجـد أننـا محتاجون إلى مناقشة أكثر تفصيلا لقضية النخبة...

فأول وأهم ملامح العصر الذى نعيش فيه ـ فيما يتعلق بـالموضوع الذى نتصدى له ـ هو ثورة الاعلام. أو ما أفضـل أن أسـميه ثـورة المعرفة...

ففى العقود القليلة الماضية من السنين، انفجرت المعرفة انفجـارا

هائلا وصار العالم بهذا المعنى عـالما واحـدا صـغيرا لأول مـرة. فالصحافة والاذاعة والسينما والتليفزيون وجهاز الـراديو التـرانزيستور الصغير الذى يحمله أفقر بدوى فى أبعد صحارى الدنيا، جعلت المعرفة فى متناول كل فرد، وإن تراوحت الدرجات. وبعد أن كان السفر والترحال مهمة المستكشفين أو الرسل الذين يتبادلهم الملوك، صار هواية مئـات الملايين كل سنة ، كل انسان يحاول بقدر إمـكانياته أن يـرتاد أكثـر ما يستطيع من أرجاء المعمورة.

وكما يقول «مارشال ما كلوهان» الذى حاول أن يفلسف هذه الثـورة فى معظم كتاباته.. كما يقول فى كتـابه «القـرية الـكونية»: إن هـذه المخترعات جعلت الانسان بعد أن كان يكفيه أن يتأقلم مع بيئة قـريته أو مدينته، صار مضطرا إلى أن يتأقلم مع قرية أكبر، هى الكون بأكمله.

فأين صار مكان النخبة فى هذا العالم الجديد؟ وهل بقـى لهـم دور يقومون به؟...

إن مكانة النخبة التى كسبتها فى القرن الماضى، من حيـث القيـادة الفكرية لشعوبها.. سواء فى مجالات الفكر السياسى أو الانتاج الفنـى أو الذوق العام.. هذه المكانة لم تدم طويلا، تحت وطأة هذه المختـرعات التى أحدثت تلك الثورة فى المعرفة ونشرها، وذلك من ناحيتين:

ـ الناحية الأولى، هى أن هذه الأجهـزة الاعـلامية الـكاسحة فى تأثيرها صارت قابلة لأن تقع فى يد السلطة الحاكمة، كما هو حـادث فى كل النظم الشمولية مهما كانت أنواعها ومذاهبها ومسمياتها. وبـالتالى صار ممكنا فى هذه الحالة أن تحرم من لا ترضيهم آراؤها من النخبـة، من أى فرصة للتأثير على الجماهير . فهى ـ السلطة ـ حتى إذا لـم تمنعهم منعا، أو لم تطردهم طردا، قادرة على مواجهة أفكارهم بسـيل

كاسح من الفكر والذوق والسلوك، المفروض من أعلــى، عــن طــريق استخدام هذه المخترعات الحديثة القادرة على مخاطبة القريب والبعيد، المتعلم والأمى، وهى بهذا أكثر فاعلية بما لا يقاس من جهد حامل فكرة ينشرها فى كتاب أو يدعو إليها فى محاضرة.

فكأن الفكر بوجه عام عاد إلى ما كان عليه قبل قرون: إما أن يخدم السلطة، فتفتح له أبواب التأثير والانتشار، وإما أن يــرضى بــالانزواء، والانطواء، والقبول بالدور الضئيل المختنق.

وكأن تلك المخترعات الضخمة لنشر المعرفة، والتى ظهرت لتحــرير الانسان، قد غدت وبسرعة وسيلة من وسائل السلطة لصياغة الانســان وتكوينه، بفعالية لم تكن لأى سلطة من قبل فى التاريخ...

وفى تقديرى أن هذا السؤال ـ كيفية جعل ثورة المعرفة وأجهزتها فى خدمة الانسان لا السلطان ـ من أهم الأسئلة المطروحة على الانسانية فى هذا العصر الحديث...

ـ الناحية الثانية، إن انتشار المعرفة على مســتوى المــلايين، ذلك الأمل المرغوب فيه وفى زيادته على الدوام، كان لابــد لــه أن يــؤثر ـ بالهبوط ـ على مستوى الانتاج الخاص والآداب والفنون وتربية الــذوق العام والعقل العام للناس.

فهذه الأدوات الحديثة للمعرفة ـ من صحافة يومية وإذاعة وتليفزيون وسينما ـ كالمعدة الشرهة التى تحتاج إلى كمية هــائلة مــن الــطعام تتغذى بها كل يوم. وهذا فى حد ذاته سبب كاف لأن يهبــط مســتوى الانتاج فى كل هذه المجالات، وهى مجالات بطبيعتها أكبر تأثيرا وأوسع انتشارا.

ثم إن هذه الجماهير الواسعة جدا التى دخلت ساحة استهلاك ألوان المعرفة، هى بطبيعتها أقل ثقافة من القلة القديمة، وبالتالى صار «ممولو ومنتجو» هذه المعرفة لا يجدون وسيلة للانتشار والكسب سوى التسابق على تلبية طلبات هذه الجماهير المتزايدة. ظهرت الروايات التى تغـرق السوق وتستهلك وتكسب الملايين ثم تنتهى ولا تبقـى فى تـاريخ الأدب لأنها فى الأصل لا تعد أدبا، أو هى نـوع جـديد مـن الأدب! وظهـر ما يشبه هذا فى كل المجالات. وتغلب عنصر التجارة على عنصر الجدوى والفائدة، أو تغلب عنصر «الثمن» على عنصر «القيمة».

لم يعد الذين يصوغون العقل العام والذوق العام هم أولئـك الـذين نسميهم النخبة، بل اقتصر وجودهم وتأثيرهم على قلة مـن الجمهـور، وعلى من هم داخل جدران المعاهد والجامعات فى أحسن الفروض.

وصار الذين يصوغون العقل العام والذوق العام نوعا جـديدا مـن «رجال الأعمال» يطبعون الكتاب كمشروع تجارى، ويرسمون خطة إبراز نجم أو ترويج اسطوانة بدراسة السوق ووسائل الاعلان الحديثة.

وإذا تساءلنا بعد ذلك عن مظاهر العنف فى عالم اليوم، أو رواج ثقافة الاباحية والانحلال، فإنها تعود بدرجة أساسية إلى تسـابق «منتجـى الفكر والفن والذوق» الجدد، على إرضاء أوسع فئة من الناس..

وتكفى المرء وقفة اليوم أمام واجهة مكتبة فى طريق عام. أو فى مطار، أو فى محطة قطار. ليجد رفوف المكتبات حافلة بـألوان مـن الـكتب، بأسماء كتاب صاروا جماهيريين، وكتبهم تطبع بالملايين. وتتحول إلـى أفلام يراها عشرات الملايين. كتب أحيانا فى الجنس. أو فى المغـامرات السياسية أو الجاسوسية. أو الأسرار الشخصية. هل هى كتب أقرب إلى

الصحافة المثيرة، أم هى نوع جديد من الانتاج «الأدبى والفنى» سيعيش معنا زمنا طويلا؟ ولكن لا يعيش معظمها فى السوق إلا زمنا قصيرا. فى حين أن الأعمال الأدبية التى تعيش مائة أو مئات من السنين لا نكاد نجد مثلها فى قوائم الانتاج الحديثة اليوم.

ونفس الأمر ينطبق فى ساحة العلوم التطبيقية...

ففى ساحة العلوم التطبيقية هناك طبعا المبرزون، ولكن عملية البحث العلمى والاختراع لم تعد فردية، ولكنها فى عصر ما بعد الثورة الصناعية، صارت عملية يشترك فيها المئات بل والآلاف من العلماء المتخصصين فى فروع شتى من العلم، لأن التسارع إلى تطبيق نتائج الأبحاث العلمية، وتحويلها إما إلى أسلحة فى ساحة التنافس الدولى وإما إلى سلع فى ساحة التنافس التجارى جعل عملية الاختراع ذاتها أشبه بعملية الصناعة، فهى «إنتاج مخترعات» على نطاق كبير، لا تقوى عليه إلا مجموعات لا أفراد، ودول بعينها هى الدول التى لديها رصيد ضخم من رجال العلم ومن المال الضخم اللازم للانفاق على البحث العلمى..

بهذا المعنى، نلاحظ أن مفهوم «النخبة» فى العصر الحديث، قد تغير..

وبرغم الأزمات التى صارت تواجه «فكرة النخبة» فى حد ذاتها، على الأقل لأنها تتعارض للوهلة الأولى مع فكرة الديمقراطية.. إلا أن دورها باق بشكل ملموس وإن كان متغيرا..

فهى لم تعد تلك القلة القليلة ولكنها ازدادت عددا وانتشارا وتنوعا، سواء فى الجامعات أو معاهد الأبحاث أو المؤسسات المالية والاقتصادية والعلمية وغيرها. وهى لم تعد تنبع من خلفية اجتماعية محدودة

ومتوارثة، بل صارت بحكم انتشار تكافؤ الفرص تأتى من كل الفئات الاجتماعية.

ولذلك نرى أن دورها ـ بهذا المجموع الذى ربما لا تلمع فيه أسماء فردية ـ يزداد أهمية فى عملية التقدم. فالتقدم التكنولوجى كله قائم عليهم، وهو الثورة ما بعد الصناعية.

وبالتالى صار ضروريا أن تتوافر للنخبة البيئة والتسهيلات اللازمة، ابتداء من دار للفنون الرفيعة كالأوبرا، إلى أرقى معامل البحث العلمى.. لأن النخبة مع تقدمها وقيامها بدورها تجر وراءها تدريجيا سائر الجماهير..

وإذا كانت هذه نظرة شاملة على وضع النخبة بوجه عام فى العالم، فلابد من الاشارة إلى الوضع الخاص بالنخبة فى دول العامل الثالث..

فى العالم الثالث نجد الأمية هى الغالبة وبالتالى فالاعتماد على وسائل المعرفة السمعية والبصرية أكبر. ونرى أن امكانيات متابعة النخبة للتقدم العلمى غير متوافرة ابتداء من مجالات البحث العلمى إلى أحدث المطبوعات والأفكار والتيارات. والسلطة السياسية فى أماكن كثيرة لا تعترف بهم لأنهم ليسوا كتلا عددية كبيرة تملك للسلطة السياسية نفعا أو ضرا.. ولأن هذه النخبة إذا احتاجت إلى أشياء تراها لازمة لها ـ ابتداء من المعامل المتقدمة وانتهاء بدار أوبرا أو مسرح تجريبى ـ يصبح الأمر صعبا، لأنهم يطلبون هذه الأمور التى تبدو أنها لن تخدم سوى عدد قليل إزاء مجتمع أغلبيته الساحقة فى حاجة ماسة إلى الأساسيات.

ولو ذكرنا مشكلة هجرة العقول التى نتحدث عنها دائما فهى ليست

إلا وجها من وجوه هذه المشكلة، فكثير من أفراد النخبة يجدون أنهم لن يحققوا ذاتهم وامكانياتهم إلا فى بلاد غير بلادهم.

وبعض أفراد النخبة معذورون. وبعضهم يبالغ فى ذلك. إذ يتصرف على أن ثقافته وعلمه وكفاءته أمور يجب أن «يكافأ عليها» من مجتمعه، مكافأة مبالغا فيها، ولا يرى الجانب الآخر، وهو أن كونه من النخبة يلقى عليه مسئولية إزاء وطنه أو قوميته. فالنخبة فى العالم الثالث متميزة بالحيرة والتمزق النفسى. بين البقاء أو الجلاء، بين المكافأة أو المسئولية. وبين الاعتراف به أحيانا فى أماكن بعيدة وعدم الاعتراف به فى وطنه.

هذا رغم أن النخبة دورها مطلوب أكثر فى البلاد المتخلفة والنامية، ما دام أنه دور ليس فيه استعلاء، وإنه دور لجذب القاعدة الواسعة من الجماهير إلى مستويات أرقى من الحياة والثقافة والاستنارة والعادات والتقاليد.

ولهذا لابد للمجتمعات النامية أن تفهم وتدرك جيدا أن النخبة بمعناها العصرى الجديد، هى أحد أهم أسلحتها فى التقدم، وإنها بالتالى لابد أن توفر للنخبة من أبنائها ما تستطيع من امكانيات فى حدود طاقتها طبعا، حتى ولو كانت دارا للأوبرا..

وكلما تقدمت دولة أدركت أكثر وأكثر قيمة النخبة..

نابليون بونابرت على شهرته العسكرية ترك لفرنسا شيئا أهم وهو مدرسة البوليتكنيك التى تختار أبرز الممتازين من الشباب لقيادة التقدم فى فرنسا فى شتى المجالات..

وأعاد ديجول الكرة، فكان أهم ما تركه لفرنسا معهدا يمكن تسميته «المعهد القومي للادارة»، ولكنه فى الواقع يختار أنبغ الخريجين من كل المجالات ويمتحنهم فى قسوة شديدة، ويفتح أمامهم بالذات سبل الوصول السريعة إلى مراكز الصدارة فى شتى مجالات الحياة فى فرنسا.

كلمات فقدت «سمعتها» فى حياة لغتنا الجميلة!

الموضوعية... العقلانية... الواقعية... لماذا صارت كلمات رديئة؟

اللغة لم تكن أبدا «محايدة». والكلمة الواحدة قد تستخدم فى مجال يحمل كل معانى الجدية. وأحيانا تصبح من كثرة استخدامها فى غير موضعها تحمل لدى الناس كل معانى السخرية، والكلمة فى مجال قد يكون لها وزن الذهب، وقد يكون لها وزن الريشة.

ولعل سخاء اللغة العربية الشديد، هو الذى دفعنا نحن العرب إلى الانفاق من هذه اللغة باسراف شديد، فالكلمة الواحدة لها عشرات المترادفات، وإذا ألقينا كلمة فى أتون الأحداث، واحترقت من فرط تكرارها دون معنى مقصود فاللغة تسعفنا بعشرات المترادفات، فنحن لا نخشى عجزا ما فى هذا النوع من «العملة»...

وإذا كانت الكلمات من «القاموس السياسى» للغة، فهى أكثر عرضة للتلف، ذلك أنها كثيرا ما تكون عرضة للاستخدام الخاطئ المتعمد من رجال السياسة أو الكتابة. أو للاستخدام فى مجرد تخدير الرأى العام. فتفقد أعز الكلمات معناها، أو بمعنى أصح تفقد «وقعها» على النفس، وهى القيمة الأساسية للكلمة..

ونأخذ على ذلك أمثلة من كلمات كبيرة، مثل «الوحدة» أو «الثـورة» أو «الديمقراطية»..

كلمات كبيرة جدا لكن بعضها لحقه «الاجهاد» من كثرة الاسـتعمال اللغوى، وانعدام الاستعمال الفعلى!..

قبل عشرين سنة مثلا كانت كلمة «الوحدة» تحرك أعمق المشاعر لدى الجماهير. ولكن الآن وقد فشلت أكثر من وحدة، وصار كل تقارب يسمى وحدة. وليس على مستوى الاقطار فقط. ففى داخل القطر الواحد صـار حتى تحقيق الوحدة الداخلية أمرا مطلوبا وعزيزا أو صـارت الـوحدة الوطنية ـ لا القومية ـ بعيدة المنال كما فى لبنان وغيرها.

وإذا تركنا الوحدة بمعناها السياسى الدولى، نجد أنه يكاد لا يـوجد مشروع اقتصادى واحد، له طابع التكامل الوحدوى، رأى النـور حتـى الآن. رغم توقيعات الدول العربية المختلفة عليه.

وفى الخليج مثلا نسمع دائما عن وحدة العملة الخليجية مثلا، وهـو أمر يكاد يكون بديهيا. خصوصا من الناحية الاقتصـادية المصـلحية وليست السياسية. فدول الخليج روابطها وثيقة جدا، وأهلها أبناء عمومة بكل المعانى النفسية والتاريخية. واقتصادها كلها يقـوم علـى سـلعة أساسية واحدة هى البترول. فهذا نوع من الوحدة يتم بقرار لا غير.

لم تعد لكلمة «الوحدة» إذن سخونتها القديمة. صارت لا تحرك شعرة فى رأس أى مواطن عربى. الكل يتحدث عن الوحدة فلا يوجد فى الظاهر من هو معها، ومن هو ضدها. لم تعد تثير نقاشا ولا بحثا ولا عـراكا. وضعت فى الثلاجة العميقة، وهذا أحسن الممكن على أى حـال، حتـى تبقى صالحة للاستعمال ربما بعد وقت طويل، بدلا من أن تفسد نهائيا...

ونفس الشيء لحق كلمة «الثورة». صارت فى لغتنا وصفا يطلق على أول دبابة تصل إلى محطة الاذاعة وتعلن البيان رقم واحد! وصارت فى افئدة الناس العاديين مرادفة لأى حكم عسكرى!

وأيضا كلمة ديمقراطية. ألا يوجد لها عشرون تطبيقا على الأقل؟ هل يسمى أى نظام نفسه بغير هذا الوصف؟.. وأنواع الديمقراطية لابد لها أن تتمدد، فلن يصلح للعالم كله ديمقراطية واحدة، ولكن ألا تحتاج كل «ديمقراطية» احتراما للكلمة إلى تعريف وثيق لها فى كل مكان، يمكن حساب أهلها عليه؟

على اننى أريد أن أقف أساسا فى هذا الحديث، عند نوع آخر من الكلمات التى «فقدت سمعتها» بطريقة أخرى. بالطعن فيها والسخرية منها وتشويهها. هذه كلمات فقدت سمعتها بنوع من الارهاب الفكرى، حتى صارت خافضة جناحها من الذل أمام صيحات كصيحات الهنود الحمر، الذين إذا لاحت لهم، رشقوها بكل ما لديهم من سهام..

كلمات مثل: «الموضوعية» و«الواقعية» و«العقلانية».. هذه الكلمات مع الأسف فقدت سمعتها تحت وطأة الارهاب الفكرى الهائل...

إرهاب فكرى ساد فترة من الزمن خلاصته: أن من لا يتبع الرأى «السائد» إعلاميا فهو متخاذل! وأن المطلوب من الكتاب هو ترديد الشعارات دون محاولة الذهاب إلى أبعد من ذلك خشية «بلبلة الجماهير». كأن الجماهير فى مرحلة طفولة، ولابد من شغلها عما حولها بالزعيق والصراخ، فهى لا تفرح أو لا تصلح إلا لهذه الألعاب النارية الملونة! وبالطبع: من يزيد فى الضجة المتزايدة ومن يطلق فرقعات مدوية ملونة أكثر، هو الذى يفوز بأكبر عدد من المتجمعين فى «مدينة

الملاهى » الصاخبة !

فى هذا الجو، كان لابد أن تداس بالأقدام كلمات مثل « الموضوعية » و « الواقعية » و « العقلانية »...

وفى نفس الوقت لابد أن نسجل أن هذه الكلمات «فقدت سمعتها» بسبب نوع آخر مقابل من الممارسة الرديئة فعلا..

فقد عرف التاريخ العربى الحديث طوال الخمسين عاما الماضية ــ من قاموا فعلا بأدوار الهزيمة والاستسلام والتقاعس... وأطلقوا على أفعالهم تلك كلمات « الواقعية » و « الموضوعية » و « العقلانية »...

الأمر الذى هو كفيل ــ وحده ــ بأن يكفر الرأى العام بهذه الكلمات، أو يضعها فى غير موضعها الصحيح من القاموس، ومعه الحق...

ولكن، هل معنى ذلك أن نسقط هذه الكلمات من قاموسنا، وننزع الصفحات التى تتكلم عنها من كتبنا، ونمحوها محوا من العقل العربى...

مستحيل...

وهذه معركة يجب أن يخوضها كل ذى مسئولية وكل ذى فكر... حتى لو تعرض لاطلاق النار من الجانبين فى وقت واحد... من جانب الغوغائية والديماجوجية النشيطة، ومن جانب الانهزامية الحقيقية المتخاذلة. وأنا أقصد الغوغائية والانهزامية ليس فى مجالاتها السياسية فقط كما يتبادر إلى الذهن... ولكن على كافة مستويات الحياة العربية... من تقاليد وعادات وثقافة وتحول اجتماعى وتطور انمائى وسياسى.

إن الشعب العربى هو الذى نزل القرآن بلغته... والقرآن أكثر كتاب

مقدس وغير مقدس تحدث عن العقل والعمل والتفكير والتذكير... فمن المستحيل أن تكون هذه اللغة بالذات هى اللغة التى تفقد فيها هذه الكلمات سمعتها...

الغرب يتباهى علينا ويعلمنا، أنه أقام نهضته على أساس «سيادة العقل».. ويذكر لنا ديكارت وقبل ديكارت...

وكتابنا السابق على هذا كله بقرون، هو أول من أقام للعقل سلطانا عظيما.

وهو أول دين تجىء معجزته فى شىء واحد فقط هى: كتاب!

وأول كلمة فى وحيه كانت: (اقرأ باسم ربك الذى خلق، خلق الانسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذى علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم).

وأكثر ما يخاطب فى سطوره وآياته، يخاطب العقل.. ويفرق بين ذوى العقول وسواهم...

(وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون).

(وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير).

(كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تعقلون).

(تحسبهم جميعا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون).

(ومن يؤت الحكمة فقد أوتى خيرا كثيرا).

(فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

(قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون).

وما معنى العقلانية والموضوعية وغيرهما من المصطلحات الحديثة، إلا: استخدام العقل؟

إذا نزعنا عن هذه الكلمات أرديتها السيئة التي أساءت إلى سمعتها، وبحثنا في معانيها التي صكت من أجلها، فماذا نجد؟

أليست «الموضوعية» مثلا.. هي البدء في كل أمر بدراسة «الموضوع»؟... والموضوع بالنسبة للعالم حقيقة طبيعية مثلا. وبالنسبة للقائد العسكرى الخريطة الدقيقة لساحة المعركة بهضابها ووهادها، وتقدير قوته، وقوة العدو قبل الصدام؟ وبالنسبة للسياسى دراسة علاقات القوى السياسية في موقف ما، وحشد الطاقات المتوافرة لمواجهة هذا الموقف، ورسم خطة للتحرك.. إلى آخره..

وما معنى الواقعية إلا أنه يجب أن تكون دراستنا «للموضوع» دراسة واقعية، مستندة إلى الواقع لا إلى التمنى، لأننا ـ ككل الناس ـ مرغمون على التعامل مع واقعهم وليس مع تمنياتهم.

والخضوع للواقع أمر... وتغييره أمر آخر. وفي هذا يختلف فكر الناس، ومدى همتهم، وجدوى حساباتهم...

وأعظم الذين غيروا وجه التاريخ، كانوا أعظم الواقعيين. لأن اختراق طرق التغيير يقتضى معرفة الطريق الممهد، من الطريق الوعر، ومن الطريق المسدود تماما!

وقد يبدو تصدى هؤلاء لمهمة التغيير في البدء مستحيلة. ولكن المستحيل وقع. ذلك أنه لم يكن مستحيلا، إنما العظماء الذين يغيرون الواقع يرون من خبايا هذا الواقع وفي ثناياه ما لا نراه، وبالتالى فهو ممكن. وعلى هذا الأساس ينهضون للعمل. ويقع المستحيل، الذى لم

يكن مستحيلا. لأن المستحيل حقا لا يقع...

إن اللغة تترك أثرها فى ضمائر النـاس، وتشـكل أحيـانا طـريقة تفكيرهم...

وقد ذهب كاتب عربى كبير - عبد الله القصيمى - إلى حد اصـدار كتاب عنوانه «العرب ظاهرة صوتية!».. لا أوافقه عليه.. ولكن الصحيح فيه ربما قول بعض المستشرقين أن العربى إذا «قال» شيئا، تتحقق له راحة من «فعل» الشىء. وذلك موضوع لصيق بحديثنا. لـكنه يحتـاج تأملا آخر...

إنما القضية المطلوبة هنا فقط أن نعيد للعقـل مـكانته فى حيـاتنا العربية. ولا يمكن أن نعيد للعقل مكانته فى نفوسنا، إذا بقينا نسخر من الكلمات الداعية إلى استعمال هذا العقل...

اللغة العربية
سياسة وحضارة واستراتيجية معا!

● هذا الموضوع يلح على خاطرى كثيرا...

ولعلى كتبت عنه قبل ذلك، ولكن أحداثا كثيرة متنوعة تسوقه دائما إلى ذهني.

ذلك أنه موضوع تعليمي، ثقافى، سياسى، حضارى، فكثير من الأحداث أو الأنباء التى تقع، على اختلافها وعلى تباعدها الشديد، فى موضوعاتها وفى مظاهرها، تزيد هذه القضية - التى اعتبرتها استراتيجية - فى ذهني اشتعالا..

ولا أملك إلا أن أسأل نفسي: هل ما زال العالم العربى، بتمزقاته، وصراعاته، وانشغاله بتوافه يومه، قادرا على أن يخصص من عقله وماله ورجاله، جزءا يعمل للقضايا ذات الحجم الاستراتيجي الضخم؟ أو أن ما سيقوله أى كاتب فى مثل هذه الأمور يعتبر «ترفا» لا نقوى - ونحن مشغولون بما نحن فيه - على التفكير والتدبير والعمل؟ بل مجرد إدراك أهميته؟...

إن الموضوع عنوانه «اللغة العربية» ولكن ليس جوهره هنا النحو والصرف والاعراب. ولكن جوهره «اللغة» كسلاح، أو كعنصر استراتيجي، يحيي الأمم ويميتها، ويقيم الحضارات ويهدمها، ويشكل الجغرافيا البشرية والسياسية للعالم...

مثلا...

تتفاقم قصة الصراع فى القرن الأفريقى.. فيخطر على بالى، من بين عواملها الكثيرة، قضية اللغة العربية!

أو.. يصدر فى دولة باكستان قانون يجعل دراسة اللغة العربية الزامية كلغة ثانية فى كل المدارس فأتذكر القضية...

أو.. تبدأ الصراعات الدولية فى الوصول إلى الحـزام الأفـريقى، فى منطقة «التداخل والتماس» بين العالم العربى والعالم الـزنجى.. مثـل تشاد وغيرها، فأتذكر القضية...

أو.. أتابع تطورات حل مشكلة جنوبى السودان...

أو.. أتلقى دراسة مفصلة، من لندن، عن فرقة «إنجليزية» تخصصت فى ترجمة المسرحيات العربية الحديثة – لكتاب مثل الفريد فـرج – وتقديمها للجمهور الانجليزى.. مشـفوعة بـاقتراح خـلاصته «إذا كان العرب يشترون العمارات والفنادق والشركات فى إنجلترا وغيرها.. فلماذا لا يشترون مسرحا فى لندن؟» تقدم عليه هذه المسرحيات علـى نـطاق أوسع، وتعرض عليه الفرق العربية لمليـون عـربى تقـريبا فى لنـدن وما حولها؟.. وتفاصيل تبدو أول الأمر طريفة ولكن تأملها يكشف عـن جديتها وأهميتها!

أو.. أتلقى التقرير السنوى للمنظمة العربية للتربية والعلوم والثقـافة (اليونسكو العربية) ومحاولتها وضع اسـتراتيجية للثقـافة العـربية .. وما لديها ملاليم.. إذا قيس إلى «ما يمكن» أن يكون لديها من ملايين.. لو تأملنا الأمر من زاوية أخرى..

● ● ●

هكذا، من صراع عالمى معقد رهيب فى القرن الافريقى.. إلى فكرة فردية خلاقة عن مسرح عربى فى لندن.. حيثما أتجه أو أتابع، أجد هذه القضية تفرض وجودها، قضية اللغة، مرة أخرى، ليس لمجرد أنها لغة نعتز بها.. بل بوصف أن اللغة لها تلك الآثار الحياتية فى تشكيل العالم، التى أسلفت ذكر بعضها.

إننا نعرف أن القوميات لها مقومات عديدة. من وحدة التراث، ووحدة التكوين النفسي، والتلاحم الجغرافى، إلى آخره. ولكن لعل أستاذنا المرحوم ساطع الحصرى كان أهم من أبرز أن عنصر وحدة اللغة يلعب الدور الأكبر بين هذه العناصر كلها فى توحيد أمة ما.

ذلك أن اللغة الواحدة هى - من ناحية - عنصر أساسى فى حد ذاته، وهذا الأمر لا يحتاج إلى تدليل. ولكنها - من ناحية أخرى - هى المفتاح الأكبر لسائر العناصر. فوحدة التراث والتاريخ مثلا تكون بالتأكيد أقوى وأمنع وأقدر على مقارعة القرون إذا كانت محفوظة فى وعاء لغة واحدة.

والتكوين النفسى الواحد ماذا يصنعه؟ ربما جغرافية واحدة، وبيئة واحدة . وربما أصول تاريخية واحدة، وعقائد واحدة، أو متشابهة، ولكن المؤكد أن عنصر الأدب الواحد والفن الواحد - فى أصوله - وأدوات التعبير الواحدة تلعب الدور الأساسى، وهى لا تتوافر إلا بلغة واحدة.

.. ونحن هنا لا نتحدث عن اللغة فيما يتعلق بالقومية العربية. فلا توجد هنا مشكلة تقريبا. والاحساس بها بديهى. فما كانت الجزائر مثلا لتعود عربية حقا إلا ببرنامج التعريب الجبار فيها، حتى تجتث جذور مائة وخمسين سنة من محاولات الفرنسة، وطمس اللغة العربية.

ولكننا نتحدث فى أوسع من الحدود القومية...

وهنا نجد أن اللغة الواحدة، لا تصنع بالضرورة قومية واحدة.

فانجلترا مثلا والولايات المتحدة واستراليا ونيوزيلندا وغيرها لغتها هى الانجليزية. ولكنها ليست قومية واحدة رغم أنها تكاد تكون من أصل عرقى واحد. ومع ذلك، وهذه هى قضيتنا هنا، لا شك أن وحدة اللغة أوجدت «علاقة خاصة» و «روابط خاصة» بين هذه البلاد على تباعدها الجغرافى الهائل...

ولم أذكر كندا لأنها نموذج أكثر دلالة. فلأن كندا فيها لغتان - إنجليزية وفرنسية - واحتفظت بازدواجية اللغة. ورغم أن كل ظروف العقل والمنطق والمصلحة تقتضى أن يظل كندا بلدا واحدا. فإننا نجد الآن، وفى أواخر القرن العشرين، حركة انفصالية عنيفة، من مقاطعة «كويبك» ضد سائر كندا، لأنها المقاطعة الفرنسية اللغة.

مرة أخرى لأن اللغة ليست مجرد وسيلة تخاطب. اللغة هى وعاء الفكر ووعاء العاطفة معا. فالفرد الكندى فى كويبك لا يتحدث بالفرنسية فقط. إنه «يفكر » بالفرنسية و«يشعر» بالفرنسية. حتى صارت روابط كويبك الثقافية والتعليمية مع فرنسا، عبر المحيط الأطلنطى، أقوى من روابطها مع عاصمة دولتها «أوتاوا».

والأمة العربية تتميز بوضع خاص وفذ.

ذلك أن القرآن - الكتاب المقدس لأغلبيتها الساحقة - نزل باللغة العربية. وقد امتد الاسلام إلى أمم وشعوب وقوميات أخرى، صحيح أنها لا تتكلم اللغة العربية. ولكن الاسلام حمل إليها بالتأكيد روائع اللغة

العربية. ولقحها بها. وجعل لهذه اللغة حتى عند غير أهلهـا «مـكانة» خاصة. وأحيانا «قداسة» خاصة. لأنها لغة كتابهم المقدس.

ونحن نرى.. إلى أى حد حاربت دول لتفرض لغتها بالقوة. وأنفقـت المال لتفرض لغتها بالاغراء وجاهدت القرون لقلب اللسان المحلى إلـى لسان أوروبى. ولم يكن هذا حماقة ولا عبثا، فانتشار اللغة مـن أقـوى أسلحة انتشار النفوذ المعنوى، والمشاركة الوجدانية، والتأثر العقلى...

وحين استقلت أفريقيا مثلا، صرنا نرى ما يسـمى بـكتلة أفـريقيا الفرنسية ، وكتلة أفريقيا الانجليزية. ليس على أى أساس سـوى نـوع المستعمر الذى فرض لغته على البلاد التى كان يحتلها. وآثـار هـذا النفوذ موجودة إلى الآن فى التجارة والسياحة والتعليم والنـظرة إلـى الغد.. إلى آخره.

وما هو الشيء الذى يجعل جريدة إنجليزية، أو وسيلة إعلام غـربية كما نقول، لها هذا النفوذ الهائل؟ إنه انتشار لغتها، ووجود من يقرأ بها، فى أى عاصمة من عواصم العالم بأجمعه.

● ● ●

والأمة العربية - ليست ككيان سياسى فقط، بل ككيـان حضـارى أيضا - لديها فرصة نادرة، لأن تكون لغتها سلاحا من أمضى أسلحتها فى كل معاركها، ووسيلة خلاقة للمساهمة فى صراع الحضارات العـالمية الراهن... أو «الحوار بين الحضارات» إذا شئنـا أن نختـار التعبيـر المهذب للمفكر الفرنسى روجيه جارودى.

ولا أريد أن أدخل فى بحث لغوى تاريخى معقد عن العـائلة التـى تنتسب إليها اللغة العربية. ولا عن تأثيرها وتأثرها. فليس هذا ميدانى.

وهو أمر له أصحابه وأهل العلم فيه. ولكن يمكن القول ببساطة ودون الوقوع فى خطأ، إن الشعوب الاسلامية، المتأثرة بالتالى باللغة العربية، تنقسم إلى قسمين...

* شعوب لها قوميات قديمة، ولغة حضارة حية، يتكلم بها عدد كاف من الناس. مثل إيران.

* وشعوب لها لغات مشتتة، أحيانا غير مكتوبة أو مستوعبة للغة الحضارة. كشأن الكثير من مناطق آسيا وأفريقيا المبعثرة. التى كانت إلى وقت قريب قبائل وليست دولا ولا شعوبا بالمعنى الكامل.

ولنتأمل، على سبيل المثال الحرب القائمة فى القرن الأفريقى، والتى وصل المشتركون فيها من روسيا شرقا إلى كوبا غربا، أو المال الأمريكى والسلاح الأمريكى من قبل ومن بعد. وفى منطقة حساسة جدا بالنسبة لما نسميه «العالم العربى»..

«لقد احتلت إيطاليا الصومال وأثيوبيا وإرتيريا معا زمنا طويلا، انتهى بانتهاء الحرب العالمية الثانية..

وفى الصومال استقرت اللغة الايطالية، وأريد لها أن تمحو اللغة العربية تماما، كما حاولت فرنسا فى الجزائر، إدراكا من تلك الدول الأوروبية أن إقامة حاجز اللغة هو إقامة الساتر الحديدى الطبيعى النهائى بين شعب وجيرانه. وصار من قبل ذلك الصومال صومالا إيطاليا وصومالا فرنسيا وصومالا إنجليزيا وصومالا أثيوبيا هو مقاطعة أوجادين.

وبعد الحرب العالمية الثانية أضيف لأثيوبيا - فوق الأوجادين - إرتيريا. وعادت فرنسا إلى الصومال الفرنسى «جيبوتى». ووضع الصومال

الرئيسى – الايطالى – تحت وصاية الأمم المتحدة لفترة يعقبها الاستقلال.

ومثلت الأمم المتحدة بلجنة ثلاثية: مصرى وإيطالى وانجليزى.

وأهم معركة قامت خلال وصاية الأمم المتحدة كانت حول اللغة. فتقرير نوع اللغة التى سيتحدث ويتعلم بها الشعب هو من تقرير هويته واتجاهه الحضارى وتكوينه النفسى.

وكان هم العرب أن يختار الصوماليين اللغة الايطالية، فهى لغة أوروبية على أى حال. وبصماتها بعد الاحتلال كانت قوية. وكل شباب الصومال كانوا لا يتعلمون إلا فى جامعات إيطاليا. ولكن الرغبة الشعبية العارمة كانت فى اختيار اللغة العربية. ولأن مندوب مصر فى لجنة الوصاية الدولية كشف كل المناورات، قتل اغتيالا، ومات السفير كمال الدين صلاح شهيدا لهذه القضية، وأقام الشعب له تمثالا فى عاصمة الصومال.

وكانت مطاردة اللغة العربية هدفا أهم. فأوجد الغرب من يدعون إلى اللغة السواحلية، تحت ستار إثارة نعرة إقليمية. ورغم أن الاستفتاء دل على تفضيل الشعب للغة العربية، فقد آثر الغرب تقرير اللغة السواحلية، أملا فى انقراض اللغة العربية هناك ذات يوم.

وحين دخلت الصومال، جامعة الدول العربية، كان يجب أن يطلب منها الارتباط ببرنامج تعريب. لأنها جامعة دول «عربية».

ولأن أثيوبيا لم تنتبه إلى أهمية القضية كأوروبا، فقد عاشت اللغة العربية – مع السواحلية – فى الأوجادين خمسين سنة. والصور نفسها، مع اختلاف فى طول الفترة، فى إرتيريا.

ومن اتصل بهذه الحركات، وقابل زعاماتها، وشبابها المثقف، يعرف أن اللغة العربية كانت بالنسبة لهم أحد أقوى الروابط والوشائج وحوافز الأمل فى التحرر واسترداد شخصيتهم.

وإننى لأسمح لنفسى أن أروى ، أننى منذ سنوات، وقبل قيام هذه الصراعات بأشكالها الحالية، حين كان السودان على وشك الانقسام فى الحرب فى الجنوب.. فى تلك السنوات، قلت لبعض زعماء وحكام الدول العربية، الذين لديهم الامكانيات الهائلة : إن هناك خدمة بسيطة جدا، ولكن أثرها الاستراتيجى بالنسبة للأمة العربية.. والأمن العربى.. لا يقدر بثمن، وهو الاتفاق، والنضال، من أجل نشر اللغة العربية، على طول الحزام الاسلامى فى أفريقيا... وحيث لا توجد لغات محلية متكاملة.

السنغال.. مالى.. وسط أفريقيا.. تشاد.. غينيا.. شمالى غانا ونيجيريا.. جنوبى السودان.. الصومال بفروعه المبعثرة..

هذا الحزام، كان من حظى أن أذهب إلى بعض مناطقه، فى أول أيام استقلال تلك المناطق، وانهدم الحاجز الذى كان يمنعنا منعا من الذهاب إليه... ورأيت لهفة الناس إلى اللغة العربية.. لغة كتابهم المقدس.. لغة عباداتهم وصلواتهم.. وأحيانا لغة جيرانهم الأقدمين وشركائهم فى التجارة عبر طرق القوافل التى شقها العرب قديما.

هذه اللغة أقرب إليهم. وأسهل لهم. ولم تفرض يوما بالقوة عليهم. إنها ليست الانجليزية ولا الفرنسية ولا الايطالية ولا الألمانية مما تعاقب عليهم.

وقد حاولت بعض الدول العربية محاولات محدودة فى هذا المجال.

ولكن وجه الخطأ كان فى أنها ركزت على تدريس اللغة فقط. أو تـدريس الدين فقط.

ولكن من زار هذه البلاد – ميدانيا – يجد أن هذه الشعوب على درجة من التخلف تجعل الناس فيها محتاجين أشد الحاجة إلى ما يغير حياتهم. ومن هذه الزاوية دخلت إسرائيل فى تلك الأيام بسـهولة ويسر: كانت تعلم الناس حرفا يدوية تلائم البيئة. أو طرقا حديثة مبسطة لزراعة الأرض البالغة الخصوبة. فيتغير مستوى الفرد ودخله ووضعه. بينما من تعلم اللغة فقط وترك كما هو فى الغابة لم يستفد شيئا.

ثم إنها، على أية حال، كانت مجهودات قليلة وتجريبية تقريبا.

ومن هنا – فيما أذكر – نشأت فـكرة تـطوير الأزهـر فى مصر. ليخرج منه رجل الدين واللغة والعلم معا: الطب مثلا ليعالج أو الهندسة الزراعية ليعلم، إلى جانب تلبية حـاجات النـاس الـروحية المعنـوية المتعطشين إليها تعطشا شديدا. ولكن الأمر فى تطوير الأزهر خرج عـن فكرته الأولى، وتحول إلى جامعة أخرى بين الجامعات العديدة.

ولكن الآن وقد توافر للعرب المال الهائل. وقد افتتحت أفريقيا وآسيا أمامهم وأقبلت عليهم. فلم يعد لنا عذر فى هذا المجال.

وإن المنظمة العربية للتربية والعلوم والثقافة تبحـث حقـا فى هـذا وتتلمس وضع استراتيجية لها. ولكن بملاليم؟

إن نصف الملايين التى تنفق فى شراء السلع حتى الأسلحة القديمة، لا تحقق الفوائد الاستراتيجية التى يحققها اسـتخدام سـلاح اللغـة العربية فى آسيا وأفريقيا إلى أقصى مداه.

لا يكفى أن نستصدر قرارات من الأمم المتحدة ومنظماتها بـاعتماد اللغة العربية لغة رسمية من اللغات العالمية.

المهم أن نجعل هذا واقعا أقوى، وأقوى ، كل يوم...

من بنجلاديش شرقا.. إلى الشاطىء الأفريقى غربا.. أرض وشـعوب أخصب ما تكون لتلقى اللغة العربية وتحويلها إلى لغة أصلية لهـا مـع الزمن.

وهذا نضال وكفاح لا يقل شرفا عـن أى نضـال آخـر.. فى صراع الحضارات الراهن والمستقبل أو – مرة أخرى – فى حوار الحضارات كما يحب أن يقول روجيه جارودى...

وهذا كله وجه واحد من وجوه سلاح اللغة. هو واجب، وهو مسئولية أيضا. وهو عمل حضارى فوق كل شىء. وللأمر وجوه أخرى كثيرة.

لغة الكلام ولغة العمل
ولماذا لا يهتم العرب إلا بالعلاقات السياسية بين الحكام فقط؟

■ كلنا سمعنا عن مشروع شق قناة تحت بحر المانش، لتربط الجزر البريطانية لأول مرة بالقارة الأوروبية. وهو مشروع كفيل بإحداث انقلاب هائل فى حياة الاثنين. وكلنا سمعنا عن مشروع إنتاج طائرة الكونكورد، أول طائرة نقل مدنى أسرع من الصوت، وقد تم إنتاجها بمساهمة من المال والخبرة الفرنسية والانجليزية معا. وقد تم هذا عندما كان ديجول يحكم فرنسا، ويخالف انجلترا، ويعارض دخولها السوق الأوروبية المشتركة. وكلنا نعرف أن نهر الدانوب فى أوربا يمر بحوالى ست دول أوروبية، وأن كل المشروعات الخاصة به كطريق للملاحة تتم بالاتفاق بينها، ولم نسمع مرة عن خلاف فى هذا الشأن، رغم أنه يمر بدول شيوعية ودول رأسمالية ودول محايدة كالنمسا.

ومنذ مدة، أعلن عن مشروع جديد هام، سوف يبدأ تنفيذه قريبا، لشق قناة بحرية تربط أنهار فرنسا المفتوحة على البحر الأبيض بنهر الراين ـ المانيا وبلجيكا وهولندا ـ المفتوح على بحر الشمال، وبذلك يخلق طريق ملاحي جديد من البحر الأبيض إلى بحر الشمال مباشرة دون الالتفاف حول أسبانيا من جبل طارق..

.. أكثر من ذلك أننا نرى مشروعات ضخمة جديدة، مثل مد أنابيب تنقل الغاز بين دول بينها توترات مثل إيران وروسيا، ومشروع آخر لخط

أنابيب ينقل البترول الروسى إلى غرب أوربـــا، رغــم أن كلا منهمـــا فى معسكر..

لماذا أسوق هذه الأمثلة التى يوجد الكثير غيرها؟ وما هى العبـــرة المطلوبة من هذا السرد؟..

.. أريد أن أقول إن هذه الدول التى ســبقتنا فى مضـــمار النضـــج السياسى والاقتصادى والفكرى، أدركت أن الخلافات السياسية لا يجـــوز أن تحول دون وجود مصالح مشتركة، إذا كانت تعود اقتصاديا بـــالنفع على شعوبها. فالحكام يروحون ويجيئون. والسياسات تتغير وتتبدل. ولكن مصالح الشعوب باقية ومستمرة وهى الأساس فى كل سياسة. ومشروعات التعمير الكبرى التى تغير الجغرافيا نفسها أحيانا هى التى غيرت وجه الحياة على مر الزمن.

.. فإذا جئنا إلى بلادنا العربية، لا نجد شيئا من هذا.. إنما نجـــد منطقا عكسيا تماما.

والبلاد العربية تقول انها تمثل أمة واحدة. وان طريقها الطويل إلـــى الوحدة هو سبيلها الوحيد إلى التقـــدم. وأن التـــكامل العـــربى فى كل المجالات الممكنة هو الذى يضاعف ثروة العرب وقوتهم وتأثيرهم علـــى العالم.

ومع ذلك فالحكام والحكومات يسلكون مسلكا آخر تماما.

فإذا اختلف حاكم مع آخر، أو حكومة مع أخرى على قضية سياسية ما، سرعان ما ينعكس هذا فورا على القليل النادر من هذا النوع مـــن الروابط العضوية. إما أن تغلق الحدود. وإما أن تقفل المكاتب التجارية أو المعارض الصناعية لدى الدولتين المختلفتين. وإما أن توضع القيود

على حركة المواطنين. وإما أن يوقف تنفيذ الاتفاقات التجارية.

وتعود الأوصال القليلة إلى التقطع. وتعود الدورة الدموية ـ فيما نزعم أنه جسد واحد ـ إلى التوقف. ولا تشعر المشروعات المشتركة بالأمان. وقد تطمئن دولة عربية فى تخطيطها إلى دول غير عربية أكثر من اطمئنانها إلى دول عربية، لأن الأولى غير معرضة للهزات بينما الثانية معرضة دائما للهزات، وأحيانا للأمزجة.

.. ودعك بعد ذلك من أن الجانب الايجابى، وهو المشروعات المشتركة وخطط التكامل، كلها مشروعات على الورق، أو عناوين فى الصحف، تمر السنون دون أن ترى النور فى قليل أو كثير.

إن أجهزة التخطيط فى اسرائيل، قامت بعد حرب ١٩٦٧ بإعداد كتاب شهير عن المنطقة سنة ٢٠٠٠ على أساس أن اسرائيل صارت مفتوحة تماما على العالم العربى. ونترك جانبا هذا الجانب السياسى. ولكن المهم أنهم حين طرحوا على أنفسهم هذا السؤال نظروا للمنطقة نظرة واحدة شاملة، ودرسوا أين يكون المال وأين توجد الثروة الطبيعية، وأين توجد الثروة البشرية وأين توجد الأسواق.. الخ. وتصوروا منطقة تتخصص أقطارها فيما يناسبها وفيما يتكامل مع غيرها.

وقد ردت مؤسسة الدراسات الفلسطينية بوضع كتاب مقابل تعرض لنفس الموضوع عن دور إسرائيل. ولكن المرء يشك فى أن المسئولين العرب قد اطلعوا مجرد اطلاع على هذه الدراسة.. دعك من محاولة الدعوة لها والعمل من أجلها.

ونحن نقول إن بلادنا العربية فيها كل شيء: الخامات. المعادن. المياه. الأراضى الصالحة للزراعة. المناطق الصالحة للسياحة. الأيدى

العاملة والسوق المستهلكة. الشواطىء التى تطل على عدة بحار ومحيطات. ولكن ما قيمة هذا كله إذا كان مبعثرا؟..

إن أحد أسرار قوة أمريكا من جهة، وروسيا من جهة أخرى، أن كل دولة منهما تتميز بوجود كل هذه المقومات جميعا داخل حدودها. بعكس الدول القوية التى هبطت للدرجة الثانية، إذا كان لديها شىء وليس لديها أشياء.. فانجلترا لديها الفحم والصناعة، ولكن ليس لديها الزراعة. واليابان لديها الخبرة واليد العاملة، ولكن ليس لديها فحم ولا حديد ولا بترول. والمانيا فيها الحديد، ولكن ليس فيها بترول أو مواد أخرى كثيرة.. وهكذا.

وهذا الشرط غير متوافر الآن بعد روسيا وأمريكا إلا فى العالم العربى. وهو حقا ليس دولة واحدة، ولكن هاهى دول أكثر تباعدا كدول أوروبا تعوض نقصها بالتكامل رغم الخلافات وتغير الحكومات واختلاف النظم.

والعرب لا يتحركون فى هذا الاتجاه.

موضوع قديم؟.. ولكنه إلى أن يبدأ فى التحقيق فهو جديد!

والأمر يحتاج فوق الامكانيات إلى خيال. خيال مبنى على العلم والتنبؤ الصحيح والتجرد من الهوى.. والارتفاع عن الاقليمية..

ويحتاج قبل ذلك إلى أن نعرف أن هذا حق الشعوب. وحق المستقبل العربى فى عالم يتحرك بسرعة مذهلة.

ويحتاج على الأقل إلى ألا تكون هذه الأمور صريعة الخلافات

السياسية.. وأحيانا تغير الأمزجة.. والوسيلة؟

أن يوجد رأى عام عربى قوى يضغط فى هذا الاتجاه، ويـرفض كل تصرف سواه!

* * *

نحو.. نظرية أمن عربية شاملة

لست أحب أن يظن القارئ العزيز، إننى أنظر إلى المستقبل العربى نظرة قاتمة.

كلا. إننى على العكس متفائل بالمستقبل العربى. متفائل بـاليقظة الشاملة فى الضمير العربى العام. متفائل بالتطلعات العربية حتـى وإن كانت متعجلة. متفائل بالامكانيات المتاحة للامة العربية ماديا وبشريـا، مهما شابها من فوضى أو سوء استعمال أو إهدار.

وإذا كنت أميل إلى جانب التحذير، فإنه لهذا السبب ذاته.. فلو كانت الأمة العربية كما مهملا، أو كانت أرضها عاقر، أو عقلهـا غـافل.. أو خالية من التطلعات.. إذن لما اهتم بها فى العالم أحد، ولما تربص بهـا عدو، ولا أحاطت بها أطماع.

ولكن بقدر إمكانيات الأمة العـربية الـواسعة، وبقـدر طمـوحاتها المشروعة، وبقدر ما لها من سابق تاريخ يثبت قدرتها على النمو والقـوة والابداع، بقدر ما علينا أن نتصور المخاوف التى تثيرها هذه الأمـور لدى الآخرين. وما يمكن أن ترتبه هذه المخاوف والتوقعات لديهم مـن سياسات..

من أجل ذلك فإننى لست أحب أن ينام المواطن العربى على حـرير من الرضا عن النفس، والاطمئنان إلى المستقبل.

إننا مازلنا نعيش فى عالم لا تسوده السلوكية الأخلاقية، ولا قـواعد

القانون الدولى، ولا مبادئ العدالة الانسانية. نحن نعيش فى عالم سيظل زمنا طويلا تحكمه شريعة الغاب، والظفر والناب.

وإذا كانت بعض العلاقات الدولية تبدو أكثر «تشـذيبا» ممـا مضى، فهذا مظهر فقط. وتغير فى الأساليب لا غير. الأساليب غير المباشرة اليوم أخطر مائة مرة من الأساليب المباشرة. المواجهات المباشرة كانت علـى الأقل ظاهرة للعيان، أما اليوم فأسلحة الفتك بدولة ما أو بمجتمع مـا، ليست فقط محصورة فى الاسلحة والجيوش، ولكن لها أسـلحة أخـرى ما خفى منها هو الأعظم. ابتداء من إفساد الـذمم والضـمائر علـى مستويات عالمية. إلى تأليب عناصر الفتنة والتخريب بأيد مجهولة خفية. إلى الايقاع بين الاخوة والجيران. إلى إثارة الحروب المحليـة التـى يستفيد منها طرف ثالث بعيد. دون أن تتلوث يداه.

ورجوعا إلى ما سبق أن قلته فى هذه الصفحات، واكرره، من أن ثمة حربا صليبية شاملة – بالمعنى الحديث – تشن حاليا علـى العـالم العربى، فإنه لابد إلى التنبيه إلى بعض مظاهر ما نتعرض له بـالفعل، وما يمكن أن يكون مقدمة لأشياء أكبر وأخطر، فى المستقبل القريب...

خصوصا إنه لابد أن يسجل المرء، مع الأسف، أن كثيرا من دولنـا ومجتمعاتنا والتيارات الفـكرية لـدينا، تقـع فى بعض هـــذه الشراك المنصوبة، دون أن تراها...

إن العالم الأجنبى، خصوصا قـواه المـؤثرة والفـاعلة عسـكريا واقتصاديا وسياسيا، يهمه بوجه عام أن ينشغل العلم العـربى بنفسـه، بصراعاته وخلافاته ومشاكله بشتى أنواعها، وأن يمزق نفســه بنفســه، بحيث تتعطل فاعليته تماما، على الأقل لمدة تتراوح فى حساباتهم بيـن

العشر سنوات والعشرين سنة المقبلة، حسب تقديراتهم للفترة اللازمة إما لاستنفاد النفط، وإما لانهاء دوره الاستراتيجى كسلاح فعال بظهور المصادر البديلة للطاقة، ولاجهاد الأمة العربية خلال هذه الفترة بوجه عام. بحيث تكون فترة إرهاق واستنزاف وتمزق وضياع، ولا تكون فترة بناء وتعمير وتنوير ووضع أسس القوة العربية الذاتية لقرون عديدة مقبلة.

والزوايا التى تمكن معالجتها كثيرة.

ولكن لننظر مثلا إلى الحدود العربية، أو الجبهات التى على الحدود العربية. فقبل ظهور قوة البترول وتعاظمها. وقبل ظهور إمكانية التضامن العربى عسكريا كما حدث فى حرب اكتوبر. وقبل التزام العرب بمساعدة بعضهم البعض بالمال والمواد الاستراتيجية والسلاح...

قبل هذا كله، وطوال ربع قرن، كانت «الجبهة» الوحيدة التى تشغل بال «الأمن العربى» ـ فضلاً عن الحق المسلوب ـ هى جبهة إسرائيل...

الان ماذا نرى؟...

جبهة إسرائيل اتسعت، واستشرت، وتفاقم خطرها...

.. «ثم هناك جبهة الخليج».. وقد بدأت السفن الحربية الأجنبية تسبح فيها من حين لآخر، ولا يمر يوم دون مئات المقالات فى صحف العالم عن المخاطر المحتملة فيها..

.. ثم جبهة «باب المندب» والبحر الأحمر بوجه عام. فالدول الكبرى تسعى إلى إقامة قواعد عسكرية على مقربة من مدخل البحر الأحمر

الجنوبى... وإسرئيل ذاتها تجرب بعض قطعها البحرية، وتحصل على طائرات تصل إلى هناك.. وصار على من يفكر فى الأمن العربى أن يكرس اهتماما كبيرا بأمن البحر الأحمر...

.. «ثم جبهة أفريقيا»... فى المشاكل التى تتعرض لها حدود السودان، المطلة على تسع دول أفريقية، ومحاولات تقسيمه وتمزيقه..

فالجبهات المعرضة زادت. وتعددت. والتحرشات توالت. أو فى القليل إرهاصات هنا وهناك تشير بأن مداخل العالم العربى ومفاتيحه الجغرافية، صارت محل إهتمام واضعى الاستراتيجيات الأجنبية، الأمر الذى يفرض على واضعى الاستراتيجيات العربية أن يضعوا هذه الأمور الأضخم، والاوسع، فى حساباتهم الجديدة، بما يلقيه هذا عليهم من أعباء بشرية ومالية ضخمة.

وحين نتأمل هذه الجبهات التى انفتحت علينا، وقد ينفتح غيرها غدا، نجد أن الأمة العربية باتت فى أشد الحاجة إلى نظرية أمن جديدة، وإلى استراتيجية موحدة شاملة للأمن القومى العربى كله.

وحين أقول نظرية أمن عربية جديدة، أو «استراتيجية أمن قومى» شاملة.. فلا يجب أن ينصرف الذهن إلى المعنى العسكرى وحده.

إن العنصر العسكرى هو جزء واحد فقط من أجزاء كثيرة تتكون منها «الاستراتيجية». فاستراتيجية الأمن تشمل سياسة الدفاع العسكرى، وسياسة الاقتصاد، وسياسة العمير، وسياسات أخرى كثيرة...

الاستراتيجية مثلا تفترض وجود حد أدنى من التنسيق السياسى إزاء العالم.

والاستراتيجية تفترض دراسة «مخارج» البترول العربي، وغيره من الثروات الهامة جدا التي يطغي عليها البترول حاليا كالفوسفات والكبريت، بحيث تتنوع هذه «المخارج» وتتوافر لها البدائل، بما يحتاجه ذلك من مشروعات...

والاستراتيجية تفترض رسم سياسات لملء الفراغات الجغرافية الحدودية للعالم العربي.. بتعميرها وإسكان الناس فيها...

والاستراتيجية تفترض ربط أجزاء العالم العربي بشتى أنواع المواصلات، ليس بالطائرات وحدها، ولكن بالطرق البرية والسكك الحديدية، حتى تترابط شرايين الوطن العربي ترابطا ينعكس على صحته في حالات السلم والخطر على السواء...

وهكذا...

وهذا يجرنا إلى زاوية أخرى من زوايا الهجمة الشاملة المتنوعة المصادر والأغراض، على الأمة العربية..

تلك هي الهجمة، أو الهجمات، من الداخل...

إنني من أشد الرافضين لفكرة القاء اللوم دائما على الغير، وبالتالي إعفاء أنفسنا من المسئولية..

ولكن هذا لا يجب أن يقودنا إلى سذاجة تجعلنا ننكر أن ثمة أيدي أجنبية كثيرة تتحرك بشتى الوسائل المعقدة، لاحداث أنواع من الصراعات الداخلية في بلادنا...

.. وإلا، فكيف تقبل عقولنا أن نجد في هذه الظروف بالذات جيوشا

عربية تواجه جيوشا عربية... على حدود بين أقطار شقيقة... فى أكثر من مكان من الوطن العربى؟

.. وكيف تقبل عقولنا توالى الفتن، بأشكال شتى، من حروب أهلية إلى درجات أقل، فى سلسلة من الأقطار العربية فى هذه الظروف نفسها؟

... وكيف تستريح ضمائرنا، ونحن نرى ما نرى، أى أن ما هو أشد هولا قد يكون كامنا فى طريقنا، وإن لم يتبين لنا ذلك بعد؟...

إن خطة إسرائيل فى التوسع تقوم فى الدرجة الأولى على أساس تمزيق الكيان العربى من الداخل..

والأساليب المؤدية لذلك كثيرة جدا، وليست مباشرة بالطبع ولكن لها مسارب خفية تصل إلى استخدام بعض العرب ضد بعضهم وهم لا يعرفون..

ولاسرائيل حلفاء أقوياء فى هذا المجال، فى القارات الخمس! فمتى تقف الحرب الأهلية العربية نهائيا؟

وإلا فكيف يمكن، قبل ذلك، الحديث جديا، عن نظرية أمن عربية جديدة؟

نحن والتاريخ

حرية الرأى والعقيدة
كانت المفتاح السحرى فى يد العرب

الحرب والسلم، أو اللاحرب واللاسلم، علاقات تتوالى بين الدول، أو الشعوب، أو القوميات أو النظم.

وتتراوح حظوظ الأطراف يوما عن يوم، تبعا لعلاقات القوة فى فترة ما، وللظروف المحلية، والظروف الدولية، وغيرها... خصوصا ونحن فى عالم يزداد تقاربا وتأثرا متبادلا، فلم تعد هناك أزمة أو مشكلة أو قضية، يمكن عزلها عن ظروف العالم الذى نعيش فيه، وتفاعلاته المتغيرة...

من هذا المنطلق، كنت ولا أزال لا أتصور للصراع العربى الاسرائيلى إلا نهاية بعيدة. قد تتوالى الفصول وتتعدد الوقفات والنهايات الوقتية. ولكن نهاية «طبيعية» حقيقية، لا سياسية فحسب، لن تكون إلا بوجود مجتمع يهودى، مهما كان الاسم السياسى الذى سوف يحمله، يعيش تحت ظل وارف من وجود مجتمع عربى واسع كاليوم، له قيمه الحضارية والانسانية التى تتسع لهذا الوجود وأمثاله فى البحر العربى الفسيح.

بمعنى آخر: مجتمع يهودى يرضى عنه العرب، بل ويكونون هم حفاظا عليه.. وليس «قوة كبرى محلية»، روابطها وشخصيتها أجنبية تماما.

والتاريخ لا يكرر نفسه، على الأقل لا يكرر نفسه بنفس الأسلوب.

ولكن هذا لا ينزع عن الشهادة التاريخية قيمتها تماما. ذلك أن التاريخ لا تتكون أحداثه من فراغ، ولكن وقائعه تنشأ من ظروف معينة. فهو يتشابه ولو بوسائل شتى بتشابه الظروف.

والظروف المتشابه الذى ينطلق منه تفكيرنا، هو وجود حضارة عربية قوية متجددة، يمتزج فيها أحسن ما فى ماضيها بأحسن ما يمكن أن نحققه فى حاضرها ومستقبلها..

لو قام هذا الظرف ـ وما أظن إلا أنه يوما سيقوم ـ فلا يمكن تصور أى صيغة أخرى للعلاقة العربية الاسرائيلية.. أو غيرها من العلاقات فى المنطقة..

وقبل أن نخوض فى المراجع الاسرائيلية، من حقنا أن نعود إلى مؤلفات المؤرخ العربى الكبير النزيه عبد الله عنان، أهم من أرخ للاندلس فى العصور الحديثة.

ينقل الأستاذ عبدالله عنان عن «ابن خلدون» قوله: إن شمال أفريقيا الغربى كانت توجد فيه قبل الفتح الاسلامى قبائل يهودية، تلقت تعاليمها الدينية من بنى إسرائيل فى المشرق. ولكن تلك الأقطار كانت تحت حكم الامبراطورية قبل الاسلام. وكانت تتعرض لغزوات «الوندال» من شواطىء فرنسا وأسبانيا. وكانت الامبراطورية الرومانية تعمل على تنصير الأهالى بالقوة. فمنهم من تنصر ومنهم من تعرض لعذاب شديد.

«وكان يهود الجزيرة (شبه جزيرة أيبيريا التى هى حاليا أسبانيا والبرتغال) كتلة كبيرة عاملة، ولكنهم كانوا موضع البغض والتعصب والتحامل، يعانون أشنع ألوان الجور والاضطهاد. وكانت الكنيسة منذ اشتد ساعدها ونفوذها تحاول تنصير اليهود، وتتوسل إلى تحقيق غايتها

بالعنف والمطاردة. ففى عهد الملك سيزيوت فرض التنصر على اليهود أو النفى أو المصادرة، فاعتنق النصرانية كثير منهم كرها ورياء (سنة ٦١٦ ميلادية). ثم توالت عليهم بعد ذلك صنوف الاضطهاد والمحن، حتى ركنوا مرة إلى التآمر وتدبير الثورة، وتفاهموا مع يهود المغرب على المؤازرة والتعاون. ولكن المؤامرة اكتشفت قبل نضجها (٦٩٤ ميلادية)، وكان ذلك فى عهد الملك راجيكا، فقرر أن يشتد فى معاقبتهم، واجتمع مؤتمر الأحبار فى طليطلة للنظر فى ذلك. وأجاب الملك إلى ما طلبه، وقرر معاقبة اليهود باعتبارهم خوارج على الدولة يتآمرون على سلامتها، ولأنهم ارتدوا عن النصرانية التى اعتنقوها من قبل. وقرر أن ينزع أملاكهم فى سائر الولايات الأسبانية وأن تحول إلى جانب العرش، وأن يشردوا ويقضى عليهم بالرق الأبدى للنصارى. وأن يهبهم الملك عبيدا لمن يشاء، وألا يسمح لهم باسترداد حرياتهم ما بقوا على اليهودية، وأن ينزع أبناؤهم منذ السابعة ويربون على دين النصرانية. وألا يتزوج عبد يهودى إلا بنصرانية، ولا تتزوج يهودية إلا بنصرانى. وهكذا عصفت يد البطش والمطاردة باليهود أيما عصف. فكانوا قبيل الفتح الاسلامى ضحية ظلم لا يطاق وكانوا يتوقون إلى الخلاص من هذا النير الجائر، ويرون فى أولئك الفاتحين الذين يتركون للناس حرية الضمائر والشعائر مقابل جزية ضئيلة، ملائكة منقذين».

كانت هذه الصورة للواقع اليهودى فى المغرب والأندلس بين سنتى ٦١٦ و٦٩٤ ميلادية تقابل - فى المشرق - الفترة الواقعة بين الهجرة النبوية تقريبا وخلافة عمر وفتح الشام وفارس ومصر والعراق، وخلافة على. وقيام الدولة الأموية، ثم أول اصطدامات ضد البيزنطيين فى ديارهم ذاتها وأول حصار للقسطنطينية سنة ٦٧٩ ميلادية. ولم يتأخر فتح الأندلس (٧١١) كثيرا.

ولا شك أن كسر العرب لشوكة الامبراطورية الرومانية فى عقر دارها، كان أكبر عامل لسكان شمال أفريقيا وأسبانيا على الثورة، وأكبر أمـل لهم فى الخلاص.

ولذلك لم يكن غريبا، حين عبر طارق بن زياد بجيوشه إلى أسـبانيا، أن «اليهود كانوا يعاونون المسلمين فى تلك الفتوح.. وعندما وصل طارق بن زياد بجيوشه إلى طليطلة مخترقا هضاب الأندلس.. كان القوط قـد فروا، ولم يبق بها سوى اليهود وقليل من النصارى، فـاستولى طـارق عليها، وأبقى على من بقى من سكانها، وترك لأهلها الـكنائس، وتـرك لأحبارها حرية إقامة الشعائر الدينية.

يقول المؤرخ الأمريكى سكوت «.. كان دفع الجزية يضمن الحمـاية لأقل الناس، وكان يسمح للورع المتعصب أن يزاول شعائره دون تدخل، كما يسمح للملحد أن يجاهر بآرائه دون خشـية المـطاردة والأحبـار يزاولون شئونهم فى سلام!».

حرية الرأى والدين والعقيدة، كانت مفتاح الحضارة العـربية الـذى فتحت به الأبواب على ظلام العصور الوسطى فى أوروبا نفسها. وما زالت ولا تزال فى كل مكان مفتاح كل تقدم...

يقول المستشرق الأسبانى جاينجوس «لقد سـطعت فى أسـبانيا أول أشعة لتلك المدنية التى نثرت ضوءها فيما بعـد علـى جميـع الأمـم النصرانية، وفى مدارس قرطبة وطليطلة العربية، جمعت الجذوات الأخيرة للعلوم اليونانية بعد أن أشرفت على الانطفاء. وإلـى حـكمة العـرب، وذكائهم، يرجع الفضل فى كثير من أهم المخترعات الحديثة وأنفعها».

ويقول المؤرخ لين بول «أنشأ العرب حكومة قـرطبة التـى كانـت

أعجوبة العصور الوسطى! بينما كانت أوروبا تتخبط فى ظلمات الجهل، فلم يكن سوى المسلمين من أقام بها منائر العلم والمدنية».

ويعود الأستاذ عبدالله عنان، وقد استقرت الأندلس وازدهرت فيقول فى سياق حديثه «أما اليهود فقد كانت منهم أقليات فى معظم المدن الأندلسية تتمتع بحماية الحكومات الاسلامية ورعايتها. وقد ازدهرت هذه الأقليات اليهودية فيما بعد، وظهرت منها شخصيات بارزة تولت مناصب كبيرة فى الدولة، وغلب نفوذها فى بعض المناطق، كما حدث فى مملكة غرناطة، وظهرت كذلك فى ميدان العلوم والآداب، ونبغ منها علماء نابهون مثل ابن ميمون وغيره».

وفى سياق آخر من تاريخ عبدالله عنان الضخم عن الأندلس، يروى أن الأندلس كانت أول بلد فى أوروبا تشيع فيه القراءة والكتابة بين الناس، بينما كانت فى بقية أوروبا مقصورة تقريبا على رجال الدين. وفى عصر «الحكم المستنصر» الذى أنشأ المكتبة الأموية الكبرى، شاع اقتناء الكتب واقتناء المكتبات الخاصة «وكانت سوق الكتب فى قرطبة من أشهر الأسواق وأحفلها بالحركة، وسرى هذا الشغف باقتناء الكتب إلى النصارى واليهود» بعد أن شاعت اللغة العربية بينهم «وكان كثيرون منهم يتذوقون ثمرات التفكير العربى من أدب وشعر وفلسفة وغيرها، وكان من أشهر هؤلاء الطبيب اليهودى حسداى، طبيب الحكم الخاص، وفى ظله وتحت رعايته كتب يهود قرطبة باللغة العربية، وألفوا بها مختلف الكتب. وكان من أشهر المكتبات الخاصة فيما بعد، مكتبة يوسف بن إسماعيل بن نغرالة اليهودى، وزير باديس أمير غرناطة»

ومن أكثر الفقرات دلالة، قوله «ويجب أخيرا ألا ننسى الأقلية اليهودية فقد عومل اليهود منذ الفتح بمنتهى الرفق والرعاية، وازدهرت

أعمالهم التجارية والصناعية فى ظل ذلك التسامح الاسلامى المأثور. ووصلوا فى قرطبة فى ظل الخلافة إلى ذروة النفوذ والرخاء. وفى أيام الناصر تولى أحدهم، وهو العلامة حسداى بن شبروط، الاشراف على الخزانة العامة، وكان قبل ذلك قد حظى برعاية الناصر لخدماته الدبلوماسية، وترجمته لكتاب ديستوريدس عن الأعشاب الطبية، من اليونانية إلى العربية، وهو الكتاب الذى أهدى قيصر منه نسخة إلى الناصر. وفى ظل هذه الرعاية، وفد كثير من العلماء والأدباء اليهود إلى قرطبة، أيام الناصر وولده الحكم، وقامت فى ظل نشاطهم مدرسة قرطبة التلمودية، ومؤسسها الرابى بن حنوش، وازدهرت فى ظلها البحوث التلمودية، وغدت مركز الرياسة والتوجيه لهذه البحوث. واستمرت الخلافة الأموية، ومن بعدها حكومات الطوائف على رعاية الأقلية وتشجيعها. وكان يهود قرطبة يرتدون الزى العربى، ويتخلقون بالتقاليد والعادات العربية، ويمتازون بثرائهم ومظاهرهم الفخمة».

وفى بحث حديث جدا، منشور منذ شهور قليلة، للكاتب الاسرائيلى «الفريد مورابيا»، عنوانه «الثقافة اليهودية فى أسبانيا الاسلامية»، نجده يعطينا تقريبا نفس الصورة التى رسمها المؤرخ الكبير. ومن أخذ عنهم من المؤرخين الأسبان...

ويستهل «الفريد مورابيا» دراسته بكلمة للأستاذ ج. فاجولا، يقول فيها «لم يحدث طيلة العصور الأولى وحتى آخر القرون الوسطى أن حققت اليهودية المبعثرة ذاتها فى بيئة غير يهودية، كما فعلت فى أسبانيا». يقصد بذلك العصر الأندلسى للاسلامى هناك...

ومعظم هذا البحث، يقدم لنا ما يشبه القائمة الطويلة لأسماء أهم

اليهود الذين ترعرعوا فى ظل الدولة الاسلامية فى الأندلس وتأثروا بهـا وتركوا لليهود أهم تراثهم.

وهو يركز ـ من باب الاختصار ـ اختياره فى مجالات أربعـة هـى: الدين، واللغة، والشعر، والفلسفة...

والقائمة طويلة جدا...

ولكن، يكفى تسجيل بعض الملاحظات عليها:

أولا - أن القائمة، التى هى على سبيل المثال لا الحصر، طـويلة جدا وغزيرة. وأن أبحاث هؤلاء العلماء لم تتناول فقـط علـوم الحيـاة كالطب والهندسة. ولكن الكثير منها تخصص إما فى تعميق وإيجاد أسس اللغة العبرية، وإما لتعميق وتحليل وشرح أسس الديانة اليهودية.

والدين واللغة أمران من أهم الأمور التى تحفظ استمرار أى شعب. والتسامح الاسلامى فى هذا المجال بالذات يلفت النـظر ولـه أهميـة خاصة. لأنه يدل على اتساع الحضارة الاسلامية العربية لهذه الأعمـال التى أصبحت أهم مراجع التراث اليهودى. فى حين كان الشائع فى غيـر ذلك العصر، تشجيع أصحاب الأديان الأخرى فقط على الأمور الـدنيوية من طب وهندسة، لأنها تفيد الجميع.

ومؤرخون يهود - مثل أبا إيبان وزير خارجية إسرائيل السابق - يحاولون إذا ذكروا فضيلة التسـامح أن يبرروا بروز اليهود بـأبحاثهم الدنيوية فقط. أو كفاءتهم فى الطب مثلا. وسنعود لذلك بعد قليل.

ولكن دلالة التسامح والتشجيع فى صدد دراسات تستكمل وضع قواعد اللغة العبرية والديانة اليهوديـة، أكبر وأعمق. فهى تدل فوق اسـتنارة

السلطة الحاكمة وتسامحها فى حرية العقيدة، على ثقة هائلة بالنفس.

ثانيا ـ إن معظم التراث اليهودى، فى تلك المواضيع وغيرها مـكتوب باللغة العربية التى كان يتعلمها ويتقنها هؤلاء. وأبا إيبان نفسه يعترف فى أحد كتبه بأن حوالى ٦٠ فى المائة من التراث اليهودى ما زال غيـر مترجم إلى العبرية بعد.

ثالثا ـ إن هؤلاء المؤلفين، لم يكن عملهم مقصورا على إنتاجهم هذا فى الأندلس الاسلامية فقط. إنما نجد الكثيرين منهم جابوا آفاق العـالم الاسلامى العربى فى ذلك الوقت من بغداد شرقا إلـى طليـطلة غـربا. بعضهم طلبا للعلم. وبعضهم لينشر أفكاره عن اليهودية بين يهود العالم العربى فى شتى أماكنهم. كما يقول المؤلف الاسرائيلى القريد مورابيا فى بحثه هذا الذى نعرض له! كان التسامح إذن يشـملهم فى كل العـالم العربى الاسلامى، بينما كانوا لا يجسرون على الحركة فى نصف العـالم الآخر فى ذلك الوقت: كل ما هو شمال البحر الأبيض من دول أوروبيـة مسيحية، فنجد مثلا:

اسحق الفاسى، الذى ولد فى «قلعة حماد» بـالقرب مـن قسـنطينة الجزائر الآن» واستمد اسمه من فاس التى عاش فيها معـظم عمـره، وتلقى دروسه فى القيروان. وعاش حتى الخامسة والسبعين من عمره بين المغـرب والأندلس. يقول المؤلف الاسرائيلى أنه من أهـم مـن فسروا التلمود، ونشر تعاليمه بين تلاميذه مثل يوسف بـن ميجـاش ويهـوذا هالفى، وافرايم الحمادى (نسبة لقلعة بن حماد) وباروخ بن الباليه، وكان يرسلهم إلى أنحاء العالم الاسلامى حيثما وجد مجتمـع يهـودى لنشر تعاليمه.

- مناحم ابن ساروق، صاحب أهم قاموس عبرى تلمودى إلى الآن... والوحيد الذى كتب قاموسا حتى ذلك الوقت بـالعبرية مبـاشرة، إذ كان معظم الكتاب اليهود يكتبون بالعربية، ثم تترجم بعض أعمـالهم إلـى العبرية.

- دوناش بن الأبرط. الذى ولد فى بغداد، وتتلمذ على يد «سعيد بن جاعون» ثم جاب العالم العربى حتـى اسـتقر فى فـاس. وكان لغـويا وشاعرا.

- يهودا بن داود الذى يعتبر مؤسس قواعد اللغة العبرية إلى الآن، وقد ولد فى فاس. وكتب مؤلفاته فى تأصيل قواعد اللغة العبـرية بـاللغة العربية، وترجمت بعد ذلك. واستعان بكثير من قواعد اللغة العـربية فى وضع قواعد جديدة للغة العبرية.

- موسى بن عزرا : أحد أهم الشعراء العبرانيين. وأهم مؤلفاته اسمه بالعربية «كتاب المحاضرة والمذاكرة».

- يهودا الحريزى الذى وصفه المؤلف بأنه كان يسافر كثيـرا بيـن الأندلس، ومصر، وفلسطين أو سوريا، وما بين النهـرين (أى العـراق) يقدم أعماله الفنية والفكرية لكل مجتمع يهودى. وهو أول من أخذ شعر «المقامات» من العرب واستخدمها باللغة العبرية.

- وفى مجال الفلسفة يقول الباحث الأسرائيلى إن الأندلس الاسلامية كما أعطت للعالم كله ابن طفيل وابن رشد وغيرهما، فقد تربى ونشأ فى أعقابهم أهم فلاسفة اليهودية مثل «باهى بن باقودة» الذى ألف أحـد أهم كتب الفلسفة اليهودية بعنوان «كتاب الهداية إلى فرائض القلوب». ولم يترجم كتابه إلى العبرية إلا بعد مائة سنة من تأليفه.

... إلى آخره.. إلى آخره...

وإذا عدنا بعد ذلك إلى «ابا إيبان» المؤرخ والسياسى قبل أن يكون أستاذ تاريخ، نجده لا ينكر شيئًا من هذا فى الأساس...

بل يقول فى كتابه «قصة اليهود» إن اليهود لم يعرفوا درجة من الازدهار وتحقيق الذات طوال التاريخ كله إلا مرتين: مرة فى الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ومرة فى الأندلس الاسلامية منذ قرون!

ونقول له إن هناك مع ذلك فارقا: فما وصلوا إليه فى الولايات المتحدة جاء بعد العصر الحديث وانتشار التنوير فى العالم كله.. فى حين أنهم وصلوا إلى ذلك فى الأندلس، فى العصور الوسطى. ووسط ظلامها، وفى أوج التعصب والاضطهاد الدينى فى أوروبا!

ثم إن أبا إيبان – كما سبق ذكرت – يركز على الذين برزوا فى ظل العالم العربى فى تلك الحقبة بمهاراتهم الشخصية فى الطب أو المال أو الهندسة أو الترجمة. ومن الطبيعى أن لا يبرز ولا يوضع فى كتب التاريخ إلا أسماء الأكفاء والمشهورين. ولكن أليس هذا البروز بحاجة، فوق الكفاءة، إلى شىء آخر.. وهو جو التسامح واحترام حرية العقيدة؟

إن النابيهن لا يبرزون فجأة فى عصر دون عصر. ولا فى قطر دون قطر إنما يبرزهم عنصر أساسى يسمح للموهبة أن تتفتح إلى أقصى قدراتها. وذلك هو جو احترام حرية العقيدة.

والغريب أن ابا إيبان يقول فى إحدى صفحات كتابه عن «قصة اليهود» إن سبب بروزهم قام على إتقانهم اللغات المختلفة، بحكم وجودهم فى أقطار مختلفة. وبالتالى كانوا ضروريين للنقل والترجمة بين تلك الأقطار. وبين عالم العرب وعالم أوروبا مثلا فى تلك الحقبة التى

نتحدث عنها. وهو من حيث لا يشعر يحاول أن يجعل هذا دورا خـالدا لليهود، يميزهم عن سائر الدنيا، ويجعلهم ضروريين لتسيير هذه الدنيا.

وهو بهذا يهزم قضيته من وجوه كثيرة دون أن يدرى.

صحيح أنهم قاموا طويلا بدور المبعوثين والمترجمين بين الدول...

ولكن هذا يفترض دوام وجودهم فى «الشـتات»، بعـكس العقيـدة الصهيونية التى تريد جمعهم فى وطن واحد.

ثم إن هذا مفهوما فى عالم كانت القراءة والكتابة ودراسة اللغات كلها مقصورة على القلة النـادرة، لضرورات الفـكر والاطـلاع أو لضرورات العامل التجارى والسياسى. وكانت مقصورة تقريبا على رجال الدين.

أما الآن، وقد أصبح التعليم ومعرفة اللغات شيئا شائعا وأساسيا بل ومفترضا وجوده فى أى مجتمع إنساني.. فإن هذه الوظيفة الخاصة قـد انتهى دورها. ولم يعد دور اليهودى العالمى مطلوبا!

والواقع أن الاسرائيلى حين يكتب يحتار دائمـا بيـن اختيـار دور المواطن الصهيونى وبين دور المواطن العالمى. وهما نظرتان مختلفتان.

وبعده...

فلم يكن موضوع هذا الحـديث كل العـلاقة العـربية الاسـلامية اليهودية، وإلا لطال الحديث. ولذكرنا آلاف الأدلة على أن ازدهار العرب وتحضرهم وقوتهم كانت تلقائيا تعطى اليهود فرصة أكبر...

وإنه ليكفى أن نذكر أن عمر بن الخطاب هو الذى أعادهم أول مـرة إلى القدس بعد أن حرم الرومان عليهم سكنى المدينة.

وإن صلاح الدين الأيوبى هو الذى أعادهم مرة ثانية بعد أن هـزم الصليبيين، الذين حرموا اليهود بدورهم مـن مجـرد الاقتـراب مـن القدس...

ولكن الحديث انصرف أساسا إلى تجـربة واحـدة، هـى التجـربة الأندلسية، التى لم يتسع المجال مع ذلك إلا لمجرد سرد لمحات خاطفة منها... تثبت صواب ما ذهبنا إليه فى أول هذا الحديث علـى المـدى التاريخى.

* * *

إن النظرة التاريخية المفصلة، تثبت قول بعض البـاحثين اليهـود أنفسهم، من : أن عصر التنوير العربى فى أوج الامبراطورية الاسـلامية وحضاراتها، هو الذى لعب أكبر دور فى حفظ استمرارية اليهـود كبشر، وكتراث، وتاريخ، ومعتقدات.

فلم يكن لهم طول التاريخ مكان آخر يتنفسون فيه.

إعادة كتابة التاريخ الاسلامى والعربى
.. من لهذه المهمة الصعبة؟

■ بصرف النظر عما سوف تكون عليه الصورة فى لبنان، عندما تصل هذه السطور إلى يد القارئ، فإن هناك جوانب هامة، باقية، من آثار الحرب الأهلية اللبنانية، توحى لكل عربى بالتأمل، فيما هو أوسع منها..

إننى أكتب هذه السطور، وقد بلغ عدد القتلى عشرة آلاف، والجرحى أضعاف هذا العدد. والحرب الأهلية مازالت تهدأ يوما، ويستعر أوارها أياما أخرى وأسابيع..

والصراع بين الأخيار والأشرار مستمر. بين الذين يريدون أن يبقى لبنان الذى نعرفه، والذين يريدون تقسيمه. بين الذين يحاربون معركة الحاضر والمستقبل، والذين يحاربون معارك الماضى.

فقط، يجب أن نسجل قبل الانتقال إلى هذا الجانب، أن الحرب الأهلية اللبنانية إذا كانت قد اتخذت طابع الحرب الطائفية، إلا أن أسبابها أعقد من ذلك بكثير، باعتراف جميع الأطراف. ولو كان الجانب الطائفى هو الجانب الوحيد فيها، لأمكن التوصل إلى حل، قبل أن يتفاقم القتال إلى الحد الذى وصل إليه...

فهناك القضية الاجتماعية، والاتساع الهائل بين الفقر والغنى، والذى جاء ارتفاع الأسعار العالمى والتضخم ليزيد من المسافة والمرارة معا.

وهناك العنصر الخاص بأزمة الشرق الأوسط، والذى تمثل فى الوجود

الفلسطينى المسلح فى لبنان، ورضا البعض عن ذلك كحتمية لا مفر منها ورفض آخرين لها.

وهناك استغلال إسرائيل لهذا الواقع، ومحـاولتها الـدائمة لتفجيـر الكيان اللبنانى، أملا فى العصف بالوجود الفلسطينى من جهة، وبالعصف بالوجود اللبنانى كله من جهة أخرى، كنموذج حى على قدرة العرب على تحقيق التعايش بين الأديان والطوائف.

وهناك صراع الدول الكبرى، التى صارت المنطقة العربية بالنسبة لها جميعا قضية هامة، بل أهم القضايا، وذلك لموقعها الفـريد، وسـوقها الواسعة، ووجود أهم ثروة اسـتراتيجية ـ البتـرول ـ فى أراضـيها، وإطلالها على كل المواقع الحساسة من المحيط الهندى والخليـج إلـى البحر الأحمر، والبحر الأبيض، والمحيط الأطلنطى..

كل هذه العوامل تفاعلت وتداخلت فى أزمة لبنان التى انقلبـت إلـى حرب أهلية مستعصية على الحل..

.. ومع ذلك، فإننا يجب أن نواجه المشكلة الطائفية التى يتحرج كل من هو غير لبنانى عن الحديث عنها..

.. ليس فقط لأنها لعبت دورا أساسيا فى الحرب الأهليـة فى لبنـان، لأنها الأسهل استخداما، والأكثر فعالية فى اثارة النعرات المتطرفة لدى الانسان، ولكن أيضا لأن العالم العربى ـ بحكم اتساعه وتنوع ظـروفه وتاريخه ـ حافل بالطوائف والمذاهب والأقليات، فهى قضية أبعد مـدى من لبنان. وان كان لبنان حتى فى هذا المجال له ظروفه الخاصة، بحكم التعدد الكبير للطوائف الدينية والعرقية من جهة، وبحكم التقارب الكبير بين الأرقام العددية لهذه الطوائف، الوضع الذى لا مثيل له فى أى بلـد

فى العالم العربى أو غير العربى..

الحقيقة الأولى التى يجب أن تسجل، هى أن «المارونية» دين، وليست سلالة عرقية. فالموارنة كطائفة ليسوا كالأرمن مثلا، ولكنهم مزيج من مسيحيين عاشوا فى الشرق الأوسط قبل الاسلام، ومن قبائل عربية جاءت مع الفتح الاسلامى، ومن تجمعات عربية مسيحية كانت فى مناطق أخرى، ثم تجمعت بسبب الاضطهاد أو رغبة التجمع فى جبل لبنان، ومن بقايا الحملات الصليبية. وإن كان يجب أن نسجل هنا أيضا ـ تاريخيا ـ أن ليس كل من بقى من الحملات الصليبية بقى فى لبنان، وليس كل من بقى فى لبنان منهم صار مارونيا. فالكاثوليكية فيها المارونى وغير المارونى. وبقايا الصليبيين توزعت على طول الشاطىء من شمال سوريا إلى جنوب فلسطين.

الحقيقة الثانية هى أن الموجة العربية حين شملت كل العالم العربى كما نعرفه اليوم، لم تكن هناك ـ بعد ـ مارونية. بل إن المارونية ـ كفرع من الكاثوليكية ـ ظهرت أول ما ظهرت فى الشام، فى كنف الدولة العربية الاسلامية، ثم تجمعت فى جبل لبنان، وأقامت مجتمعها الخاص بها فى كنف الدولة العربية الاسلامية، وبعد قيامها بقرون طويلة. وتلك حقيقة بالغة الأهمية، لأن معناها ان الدولة العربية الحاملة لواء الاسلام لم تقف فقط عند حد الابقاء على الأديان السماوية التى كانت موجودة، بل تكونت بعدها فروع وطوائف من هذه الأديان السماوية، كالمارونية المتفرعة من الكاثوليكية المسيحية، مما يغنى عن أى دليل آخر على جوهر التسامح فى الحضارة العربية والدين الاسلامى.

وقصة عمر بن الخطاب عند فتح القدس المسيحية معروفة. حين رفض الصلاة فى الكنيسة حتى لا يختلف الشعب العربى من بعده عليها،

وصلى بجوار الكنيسة، حيث يقوم مسجده الصغير ملاصقا للكنيسة إلى الآن. وحتى اليهود الذين طردوا من القدس وحرم عليهم دخولها على يد روما المسيحية، لم يسمح لهم اليهود بالعودة إلى زيارتها وسكناها، إلا فى ظل الخلافة العربية الاسلامية، بعد أن حرموا من ذلك بقرون.

الحقيقة الثالثة، هى أن التاريخ فى المنطقة لم يخل بعد ذلك من الاضطهاد بكل أنواعه. الاضطهاد الدينى والاضطهاد العرقى. خصوصا على يد المماليك أحيانا - وهم فى الأساس شراكسة ليسوا من عنصر عربى، وكانوا ينظرون للعرب - مسلمين ومسيحيين - نظرة أقل، أو على يد الحكم التركى.

ولكن فترات الاضطهاد، والحروب الدينية أو بالأحرى الحروب باسم الدين، عرفتها كل الحضارات فى فترات معينة من تاريخها. وليس أشهر من الحروب الدينية التى أغرقت أوروبا المسيحية طوال العصور الوسطى. ولم يعرف جزء آخر من العالم درجة من العسف كالتى عرفتها أسبانيا مثلا فى عصر محاكم التفتيش.

وفى العالم العربى قامت الحروب الدينية بين المذاهب الاسلامية ذاتها، وفى فترات الحكم التى سادت فيها عناصر غير عربية، تعرض العرب للاضطهاد مسلمين ومسيحيين على السواء. فلا نجد عصرا كان فيه الاضطهاد موجها إلى الأقليات المسيحية بالذات، أو مطاردة المسيحية كدين منتشر فى شتى أرجاء العالم العربى، حتى فى أيام الحروب الصليبية المتعاقبة.

ولكن تلك فترة من الزمن ومن القيم مرت على العالم كله وانتهت، ومع عصور التنوير وما تلاها من تقدم حضارى وقيام الدول الحديثة لم يعد لمعارك الأمس مكان، صار الدين لله والوطن للجميع..

وحتى حين نجد، هنا أو هناك، حروبا صغيرة فى مجتمعات صغيرة، ذات طابع دينى، كالحرب بين الكاثوليك والبروتستانت فى ايرلندا الشمالية، ونجد هؤلاء وهؤلاء يحتفلون ـ نكاية ـ بذكرى معارك حربية وقعت قبل خمسة قرون، نجد أن جذورها الحقيقية ليست دينية بقدر ما هى أولا : اجتماعية، حيث يشعر الكاثوليك ـ الأقلية ـ أنهم لا ينالون نفس حقوق البروتستانت، الأغلبية الأكثر انتماء لانجلترا. وثانيا : وطنية، كبقية لحركة الاستقلال الايرلندية الشهيرة، التى انفصلت بها ايرلندا عن إنجلترا، وما زال فى الشمال من يرى نفسه ايرلنديا ويفضل الالتحاق بجمهورية ايرلندا ويرى أن الانجليز «غزاة».

وكل دارس للتاريخ العربى الحديث، يعرف أن المسيحيين العرب ـ وفى مقدمتهم الموارنة بالذات ـ كانوا من أول الذين ناضلوا فى سبيل إستخلاص استقلال العرب من السطوة التركية، وساهموا فى إحياء التعريب ومقاومة التتريك.

لقد عربت الكنيسة العربية صلواتها. وكانت الأديرة فى لبنان أول من أدخل المطابع ذات الحروف العربية فى المشرق، وهاجر مجاهدون منهم إلى مصر خلال حركتها الوطنية الأولى، وكان صاحب شعار «مصر للمصريين» مهاجرا غير مسلم جاء من «بر الشام» ليجاهد مع مجاهد مسلم عظيم هو جمال الدين الأفغانى وسائر تلاميذه.

وأنقل عن «الخورى يواكيم مبارك» المارونى اللبنانى بعض ما جاء فى مقال له فى ذروة الفتنة هناك قوله لمواطنيه الموارنة : «.. أما موضوع الاسلام فقد رافق تاريخ كنيستنا منذ نشأتها.. ولكنى ألاحظ أن نشأة هذه الكنيسة (المارونية)، تحت الضغوط الدينية والسياسية آنذاك لم تكن بسبب الاسلام. فالمارونية التى تكونت خلال الفتح العربى

وأخذت تستوطن لبنان، سواء عن طريق الرسالة، أو عن طريق الهجـرة والعصيان، تبلورت شخصيتها ووضحت معـالمها فى النضـال، لا مـع الاسلام، بل مع الفرق المسيحية الأخرى.

«إن استعراب المارونية الذى سيكلل مسيرتها الـطويلة فى القـرنين الثامن عشر والتاسع عشر، لم ينتظر هذه الحقبة الحديثة، ليبرز صـفته المميزة فى هيكل الجسم المارونى، غربا وشرقـا، فـالتراث المـارونى الأصيل والشاهد التاريخى الأول علـى الـروحية المـارونية والنـظام المارونى معا، هو عمل لا نعرفه إلا فى صيغته العـربية، أعنـى كتـاب الهدى، وكتاب الهدى هذا ليس نموذجا لاستعراب الـكنائس الشرقيـة إبتداء من صدر الاسلام، موصولة بالكنيسة العربية ما قبـل الاسـلام، وبلوغ الجميع على أيام الأمويين ثم العباسيين، مشاركة وثيقة فى تبنـى ثقافة واحدة».

«.. وحين نصل إلى عصر الاستعراب الكامل الذى لاحت بشائره منذ البدء، نلاحظ تبنى المارونية العميق للحضـارة العـربية فى صـيغتها، والاسلامية فى كثير من مفاهيمها، على يد الألمعيين من المـوارنة، وفى مقدمتهم المطران جرمانوس فرحات، بل إن الموارنة الذين أحسوا بنوع من الانكماش على مجالات العالم العربى والاسلامى، لـم يتـرددوا فى الانعتاق من هذه الطائفية الضيقة. هذا كان شأن جبار العرب فى القرن التاسع عشر وصقر لبنان «أحمد فارس الشدياق». وقد تبعه ألمع مـن ظهر فى المارونية، كأمين الريحانى وجبران خليل جبران».

إننا هنا لا نتناول قضية لبنان السياسية، ولكننا نتناول إحدى خلفيات هذا الصراع الدامى المقيت، ونتناوله للوصول إلى خلفية أكبـر، تهـم العالم العربى كله.

إن العودة إلى دراسة التاريخ مفيدة وهامة. ولكن لكى نستفيد من دروسه ومجمل عبره، لا لكى نعود القهقرى، ونحارب معارك فات أوانها وتخطاها الزمن.

وكل أمة لابد أن تكون لها ذاكرة، وإلا انقطعت عن جذورها، ولكنها ذاكرة تساعدها على تفهم المستقبل، ولا تغرقها فى دوامة الماضى.

والعالم العربى الاسلامى، أولا بحكم إتساعه، وترامى أطرافه وتنوع بيئاته وخلفياته التاريخية، وثانيا بحكم ظهور كل الأديان، ومعظم المذاهب والفسلفات فيه، وثالثا بحكم موقعه الوسط من العالم، وبالتالى كثرة الهجرات والغزوات فى تاريخه.. هذا العالم العربى، رغم أن الاسلام صار أساس تراثه وإطار تجمعه، فإنه لهذه الأسباب السابقة ظل فى كل أقطاره حافلا بمظاهر التنوع، فى مجال الأغلبيات والأقليات من داخل الاسلام ذاته ومن خارجه.

ولاشك أن اتجاه العالم العربى السريع إلى مرحلة التمدن، والأخذ من جديد بأسباب الحضارة بعد طول رقاد، تجعل هذا الواقع المتعدد ينصهر ولا يتباعد، ولا شك أن ما حدث فى لبنان ليس هو القاعدة فى العالم العربى ولكنه الاستثناء، ولكن هذا لا يمنع من مواجهة المشكلة بالعقل المستنير، وبالروح الاسلامية السمحة، وبمسئولية الأغلبية عن احتضان الأقلية، وتزويدها بالدفء والرعاية والاطمئنان والأمان.

ومن أجل أن ننجح تماما فى هذا، لابد من التطرق إلى قضية أخرى بالغة الخطورة والأهمية، وهى إعادة كتابة التاريخ العربى والاسلامى.

لماذا؟

لا شك أن الحضارة العربية الاسلامية قد عرفت بداياتها الطاهرة،

المثالية، وينابيعها الصافية الأولى على عهد النبى وخلفائه الراشدين.

ثم بعد ذلك، وبعد أن اكتملت الأسس والقيم والمبادئ، عرفت الحضارة العربية الاسلامية طريقها إلى تكوين الدولة الحديثة بمعايير ذلك العصر.. على عهد الأمويين ثم العباسيين.. فضلا عن عهود الفاطميين فى مصر، والحضارة الأندلسية الفذة..

ولكن، لاشك أيضا أن هذه الحضارة عرفت كُل ما عرفته الحضارات الأخرى بعد ذلك من عهود الاستبداد والظلم، ومن الصراعات السياسية التى ارتدت ثيابا دينية، حتى دخلت مراحل الجمود ثم الاضمحلال والتحلل والضعف، حتى تبارى فى نهبها الطغاة من الحكام، والأقوياء من الأجانب..

وحين نقول «التراث» فإن التراث قد مر بدوره بكل هذه المراحل، سطعت أنواره فى عصور النهضة، وخبا ضياؤه فى عصور الاضمحلال. وجاءت أوقات كانت حتى الفتاوى الدينية خاضعة لهوى الحاكم، مبررة لمظالمه وانحرافاته...

هذا التاريخ ينبغى إعادة كتابته بسلبياته وإيجابياته، هذا «التراث» ينبغى إعادة انتقائه واختياره.

ففى الذهن العربى العام، نجد أن كل ما حدث خلال خمسة عشر قرنا هو كتلة واحدة مضيئة من التاريخ، وكل كتاب مضى على وضعه مئات من السنين.. تراث!

وكثيرون من الأجانب «المتخصصين» يركزون على الجوانب السلبية من هذا التاريخ والتراث، ويستخرجون منها استنتاجاتهم عن الاسلام والعرب، وكثيرا ما ترتد هذه الآراء إلينا وإلى الشباب المثقف القارىء

للغات الأجنبية بالذات.. على أنها النظرة الصحيحة للأمور.

وهكذا يدرس التاريخ والتراث فى المدارس!

وهذا غير صحيح...

فكما أن هناك أمثلة الحرية والتقدم الكبرى، فهناك محنة أحمد بن حنبل مثلا أيام فتنة «القرآن هل هو قديم أو مخلوق»..

وكما أننا نجد «أبا ايبان» وزير خارجية إسرائيل السابق، وأستاذ التاريخ والأدب العربى السابق، يقول فى آخر كتاب له «شعبى» إن اليهود عرفوا خلال تاريخهم مرحلتين ذهبيتين: الأولى فى الأندلس العربى الاسلامى، أيام ظهر ابن ميمون (اليهودى) وغيره، وأن تسعة أعشار التراث اليهودى مكتوب باللغة العربية.. والثانية هى حياة اليهود اليوم فى الولايات المتحدة الأمريكية.. فإننا نجد مراحل ضاقت فيها حلقة الفكر على المسلمين أولا، ونزل الظلم والتزييف بالمسلمين العرب قبل غيرهم.

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

لقد عرفنا فترة ظهر فيها أمثال محمد عبده وطه حسين والعقاد.. قاموا خلالها بجهود فردية فى هذا المجال، وكانت ميزتهم أنه قد تهيأ لهم رسوخ القدم فى دراسة التراث القديم من جهة ورسوخ القدم فى فنون النقد والكتابة والفكر الحديث من جهة أخرى..

بعدهم.. جاءت أجيال قل فيها من يجمع بين الأمرين.. فهو إما خريج الدراسة الدينية المحضة وإما نتاج التكوين الأوروبى المحض، فوقع الانقسام الفكرى، ونقص عدد القادرين على التكامل.

ولا أقول إن هؤلاء غير موجودين، ولكن الأمر صار أكبر وأهم، بحيث يحتاج إلى جهد جماعي، ترعاه هيئة أو دولة تدرك قيمة هذا العمل..

فمن، لهذه المهمة الكبرى؟

هناك أمران بديهيان:

الأمر البديهى الأول: هو أن التاريخ ليس شيئا يكتب مرة واحـدة. ولكنه مادة تكتب مئات المرات، وتعاد كتابتها باستمرار. سـواء بسـبب ظهور معلومات مستجدة عن أى صفحة من صفحات التاريخ، أو بسـبب تطور فى مذاهب التاريخ وفلسفاته، وظهور ادوات فكرية جديدة تستخدم فى فهم التاريخ. أو بسبب أبسط وهو ظهور أى كاتب أو مؤرخ يجـد فى نفسه القدرة والرغبة على ان يدلى بدلوه فى التعرض لموضوع ما مـن موضوعات التاريخ..

أليس من المألوف أننا إذا اردنا الرجوع إلى موضوع من موضوعات التاريخ أن نعود إلى الفهارس فنجد عشرات الكتب أو مئـاتها، حسـب أهمية الموضوع، المكتوبة عنه؟

كتابة التاريخ اذن.. تاريخ فرد أو أمة أو عـالم.. عمليـة بـطبيعتها متجددة، لا يصدر قرار ببدئها ولا يصدر قرار بايقافها. وليس فى هـذا جديد، كل ما فى الأمر ان الشعوب فى مراحل يقـظتها الفـكرية تـزداد اهتماما بتاريخها، تماما كما تزداد اهتماما بحاضرها ومستقبلها، فاليقظة لا تكون إلا شاملة. وبالتالى تشتد حركة التأليف عن التـاريخ، ويـزداد الناس اقبالا على قراءته. وفى حالات الخمول تنام الأمم عـن مـاضيها ومستقبلها معها. تستسلم لما وجدته مكتوبا عنها من قبل، ولما ترى أنه «مكتوب لها» فى المستقبل.

الامر البديهي الثانى. هو انه كما ان التاريخ ليس شيئا يكتب مـرة واحدة، كذلك فإنه ليس شيئا تكتبه جهة واحدة.

ولعل هذا الأمر الثانى أكثر بديهية من الأمر الأول. فليس هناك فرد ولا جهة ولا دولة ولا مجموعة دول تحتكر كتابة التاريخ حتى ولـو كان تاريخها، فلو أراد أحد أن يكتب عن تاريخ العرب أو الصين أو بلاد واق الواق. فلا يوجد أحد يملك منعه من ذلك. ولا يملك فرد ولا مجتمـع أن يمنع الغير من الكتابة عنه، وكلما كانت الحضارة غنية تعدد جنسـيات الذين يكتبون عنها. بل ان جامعة أمريكية مثلا قد تنفق الملايين لترسل علماءها إلى ابعد بلاد الدنيا لعمل حفريات ودراسـات تـاريخية عـن موضوع لا صلة لها به. ذلك ان التاريخ والحضارات ملك مشترك للمعرفة الانسانية كلها. ومرة أخرى، نجد أن الشعوب كلما زادت تقدما، صاحب ذلك اهتمامها بحضارات العالم كلها...

فى مصر.. نجد ان الذين اكتشفوا حجر رشيد وفـكوا اسرار اللغـة الهيروغليفية، فرنسيون. والذين كشفوا آثار وكنوز تـوت عنـخ آمـون انجليز. والذين ينقبون عن آثار مدينة الفسطاط القديمة مـن جـامعات أمريكية. وحضارة العرب أشبعها «المستشرقون» كتابة وتحليلا.. ونحن ترجمنا عنهم واستفدنا بهم. وهم روس والمـان وانجليـز وفـرنسيون وهولنديون.. إلى آخره.

وأصحاب أى تاريخ يفرحون باهتمام الآخرين بهم. فما كان كل هؤلاء المستشرقين مثلا ليهتموا بالحضارة العربية، ويقيموا لها مراكز الأبحاث فى جامعاتهم وأقساما خاصة فى متاحفهم، لـولا أنهـا حضـارة غنيـة وتاريخها مهم، وأنها حلقة جوهرية فى التاريخ الانسانى كله.

هاتان البديهيتان، الواضحتان للعيان لا تحتملان اى مناقشة أو جدل أو خلاف.. كانتا السبب فى «رد فعلى» هذا ازاء الموضوع كله واعتذارى عن مجرد مناقشته..

على أننى بعد أن استنفدت المناقشات نفسها وطويت صفحاتها، وجدت نفسى أتأمل الموضوع من زوايا اخرى طرأت على البال. بعضها ظاهر للعيان ولكنه قد يحتاج إلى تفسير، وبعضها اثارته التأملات فى خاطرى، مما وجدت انه قد لا يكون من ضياع الوقت أن أشغل القارئ بها، ووجدتها تفرض نفسها على فرضا ساعة جلست إلى الورق أكتب هذا الحديث...

عدم ثقة الناس فى الحكومات

ينسب المؤرخون إلى بعض فراعنة مصر القدامى، قبل آلاف السنين، وحين كان التاريخ يسجل عن طريق حفر نقوشه حفرا على الحجر الصلد.. انهم كانوا يمحون ما سبق أن حفره أسلافهم، ويعيدون كتابة بعض الأحداث ناسبين إلى أنفسهم معارك لم يخوضوها، وانتصارات لم يحرزوها، وأعمالا لم يقوموا بها.. سواء كان طمسا لحكام سابقين عليهم، أو انتحالا لفضل لاحق لهم فيه...

وفى الثلث الأول من القرن العشرين.. وبعد أن مات لينين قائد الثورة الروسية، ودار صراع عنيف على السلطة من بعده بين أبرز رفيقين له وهما ستالين وتروتسكى، انتهى بانتصار ستالين وبطرد تروتسكى من البلاد.. عرفنا أن ستالين عاد إلى وثائق الثورة، بسلطة الدولة يمحو منها كل عمل هام قام به تروتسكى للثورة.. وظهرت من الكتب ودوائر المعارف طبعات جديدة تعيد شرح أحداث الثورة بطريقة أخرى تمحو اثر

تروتسكى أو تشوه دوره، حتى اللوحات الزيتية التى رسمها الـرسامون لاحداث الثورة ومواقفها الحاسمة وعلقت فى المتاحف العـامة، اعيـدت الريشة اليها لتمحو وجه تروتسكى حيثما ظهر فى أى موقف منها.. بـل ان عددا من الصور الفوتوغرافية الهامة فى الأرشـيف أجـريت عليهـا تعديلات فى الاتجاه ذاته.

إذن فمن بعض فراعنة الأسرة الأولى قبل أربعة آلاف سـنة.. إلـى قيادة أوروبية حديثة قبل أربعين سنة.. وقع نفس الشيء، وتحت محاولة «اعادة كتابة التاريخ» بصورة واحدة!

ولا شك ان العادة لم تنقطع تماما بين هـذين النمـوذجين اللـذين تفصل بينهما أربعة آلاف سنة.. بصورة أو بأخرى..

وبالتالى فإن النفس الانسـانية، أو نفسـية «السـلطة» والشـعور بسطوتها حين تمتلك البشر، فيها ملامح متشـابهة، مسـتمرة، عـرضة للتكرار..

ولذلك، فمن الطبيعى ان يشك الناس فى كل ما هو «تاريخ رسـمى». وبالتالى، فحين يذكر موضوع إعادة كتابة التاريخ.. وتشتم منه رائحة ان الدعوة موجهة إلى «الدولة» لتعيد هى كتابة التاريخ.. فالمناقشة تصبح واردة. ومن السهل أن نلمح فى المناقشات تيارا يحرض الدولة علـى أن تقوم بذلك. وتيارا آخر يعارض هذه الدعوة، لاشتباهه فى انطوائها علـى هذا التحريض للدولة.. خاصة وقد انتشرت بـالفعل «مـوضة» تـكوين اللجان الرسمية المكلفة باعادة التاريخ فى اكثر من بلد عربى...

ونحن نعرف فى قاموسنا الحديث عبارات «الرقابة علـى الصـحف والكتب» و «الحظر على الأنباء» و «مصادرة المطبوعات»، وأحيانا حتى

التشويش على موجات الاذاعة، ولكن هذه وسائل حديثة، ظهرت لمواجهة وسائل حديثة لنشر المعلومات، ولكن قبل ظهور الطباعة والصحافة والاذاعة.. ربما لم تكن تلك الوسائل المضادة غير موجودة لعدم وجود مبرر لها. ولكن مبدأ إخفاء المعلومات بوجه أو بآخر، لاشك أنه كان موجودا فى نظم المجتمعات الانسانية عبر التاريخ كله..

بل ان الكتمان فى الأزمنة الماضية كان أسهل. فالتاريخ كان يدور فى قليل من الدور والقصور. والأحداث كانت تتم داخل جدران قلاع بعيدة واماكن محرمة إلا على القلة الموثوقة، وكانت معرفة الأخبار لا تتم إلا بالنقل الشفوى وبتواتر الروايات من شخص لآخر، مع كل ما تمر به خلال ذلك من تحريف مقصود أو غير مقصود.. لذلك كانت معرفة الناس بسيطة، دعك من المؤرخين الذين يأتون بعد ذلك بمئات السنين. يحاولون تجميع ملامح الحدث أو العصر بصعوبة بالغة، ومن شواهد نادرة. وحتى الآن يعثر الناس على وثيقة أو على مخطوط أو على قطعة حجر، فتقلب تاريخ عصر كما نعرفه رأسا على عقب. وتلعب المصادفات فى ذلك دورا كبيرا...

فهى علاقة بين السلطة حين تكتب وبين الناس حين تتلقى، قديمة.. والشكوك فى شأنها منذ أقدم صفحات التاريخ.

وحتى حين جاء العصر الحديث، غير الكثير جدا، ولكنه لم يقض على الظاهرة أو لم يقتل بذرة الشك الموجودة دائما لدى الناس..

لقد صارت الصحف والاذاعة تعلن الأنباء يوما بيوم. والكاميرا أو التليفزيون ينقلها حية إلى عيون المشاهدين. وبعض الدول صارت ترفع السرية عن أوراقها الرسمية بعد خمسين أو ثلاثين سنة، لمن شاء أن

يقرأ ويدرس وينشر. وانتشرت ظاهرة نشر المذكرات. فكل من عاش قصة هامة سرعان ما ينشر مذكراته عنها بمجرد تركه لـوظيفته. بـل صـار مسئولا ــ مثلا ــ فى أخطر موضع مثل كيسـنجر، يتعـاقد علـى نشر مذكراته حتى قبل أن يترك وظيفته. وذلك تحت اغراء المبالغ الـكبيرة التى صارت تدفعها دور النشر وتصل إلى ملايين الدولارات، وهو أمـر لا نعرف هل هو مفيد أو ضار. فكل رسمى، فى ادق مباحثات مثلا، صار يعرف ان حديثه السرى سينشر بعد سنوات، وهو مازال على قيد الحياة.

وإذا كانت « الندرة » هى مشكلة العصر القديم، فالكثرة هى مشـكلة عصرنا الراهن. ومرة أخرى صار كل رسمى يحب أن يشرح رأيه ويرسم صورته للتاريخ قبل أن يرسمها غيره. وبالتالى فهو يلـون مـا يـكتبه بالالوان التى تناسبه. وان لم يكذب صراحة، فهو على الأقـل يحـذف مالايريد له أن يذيع.

وخلال كتابتى هذا الحديث على سبيل المثال، كنت اقرأ ــ كعـادتى ــ عدة كتب فى وقت واحد : مذكرات هنرى كيسنجر ــ مذكرات ابا ايبان وزير خارجية اسرائيل الاسبق ــ مذكرات موشى ديان وزيـر خـارجية إسرائيل السابق ــ مذكرات اسحق رابين رئيس وزراء إسرائيل السابق..

وكنت اقرأ عن مواقف شهدها الأربعة، وكانت بين الروايات الاربـع خلافات أحيانا، وتناقضات تامة أحيانا أخرى. والاربعـة أحيـاء. ومـا يروونه لم يمر عليه سوى سبع سنوات.

فهل ياترى مهمة المؤرخ، امام الندرة القديمة كانت اصعب.. أم أنها أمام هذه الكثرة الحديثة هى الأصعب؟!

وأيهما أكثر بعدا عن الحقيقة.. الرواية أوالمشاهدة، أم « الـطرف »

وصاحب الدور فى الحدث، الذى يهمه أكثر تلوين صورته باللون الـذى يريد...

وسواء فى المجتمعات التى يشتهر عنها الوضوح الشديد، أو الغموض الشديد، فمازال ممكنا أن تبقى الحقيقة مستترة ولو فترة مـن الـزمن. بفعل السلطة الرسمية أو بفعل جهات ذات قوة ونفوذ فى مجتمع ما..

كنت فى أمريكا مرة، وكعادتى فى زيـارة لبعض الجـامعات، حضرت محاضرة فى جامعة «كارنيجى - ميلون» فى بتسبرج. وكانت المحـاضرة عن المسرح!

وكان الأستاذ يقول: إن من أسباب أزمة المسرح فى العالم أن الدراما التى يراها الناس حية على شاشة التليفزيون تلغى أى دراما أخرى. فى المسرح يدخل الرسول ويروى ما حدث لملك بلاد كذا مثلا. ولكن الآن - يقول الأستاذ - رأى الناس على شاشة التليفزيون، على الهواء، حـادث اغتيال الرئيس جون كيندى كاملا. وزادوا بعد ذلك حادث اغتيال القاتل «لى هارفى أزوالد» على الشاشة ساعة وقوعه.

ودون استطراد حول هذه القضية الفنية، نعود إلى سياق حديثنا عن التاريخ ونسأل: إن الناس رأوا الاغتيال يتم على شاشة التليفزيون وهم فى منازلهم. ورأوا القاتل وهو يغتال بدوره.

ولكن، وبعد مضى ثمانية عشر عاما على مقتل جون كيـنـدى مـازال المواطن الأمريكى يسأل: من الذى قتل جون كنيدى؟

وكلما مر الزمن زادت الشكوك. وكل سنة تتكون لجنة جديدة لأنهـا عثرت على دليل جديد. والانقسام مستمر حتى بين الخبراء حول ما إذا

كانت رصاصة ازوالد هى التى قتلته، وما إذا كانت هناك رصاصة ثانية من جهة ثانية هى التى قتلته...

رغم أن القضية بحثها أكبر القضاة فى أمريكا، ولكن المواطن ظل يعتقد أن «السلطة» تخفى عنه شيئا! وأن جهات ما لا مصلحة لها فى القطع بالحقيقة!

وسيضاف هذا إلى سؤال مشابه، معلق منذ حوالى مائة سنة، هو: من الذى قتل ابراهام لنكولن عشية انتصاره فى حرب تحرير العبيد فى أمريكا؟

وفى نظام أخر وحدث آخر يسأل العالم: من الذى قتل محمد تراقى الذى قاد الانقلاب الماركسى الأول فى افغانستان قبل أقل من سنتين؟

لقد قالت السلطة فى عهد خلفه أنه مات بمرض مفاجئ، فلما وقع انقلاب آخر على خلفه – حفيظ الله أمين – وجاء برباك كارمل، قالت السلطة: إن حفيظ الله أمين أمر بقتله.. وإنه مات قتلا، وليس مرضا.

ما هى الحقيقة؟...

الشك لدى الناس فيما يصدر عن السلطة إذن قديم. وهو مستمر.

وبالتالى كان لابد أن يمتد الشك إلى كل مشروع تتولى فيه السلطة كتابة التاريخ.. أو إعادة كتابة التاريخ.. أو «إعادة إعادة» كتابة التاريخ...

ولذلك فانه من الحق أن يعجب المرء من كتاب ومؤلفين يطالبون الدولة بكتابة التاريخ!

لماذا لا يكتبون هم ما يرون وما يريدون من تاريخ.. ويلقون بما

يكتبون فى خضم سائر الكتابات التاريخية؟..

ولا اعتراض طبعا على أن تقوم الدولة بكتابة ما تشاء مـن تـاريخ، ولكن لا لكى يكون ـ كما يريد البعض ـ القول الفصل والحكم القاطع. ولكن لكى يكون مرجعا من المراجع لا أكثر ولا أقل.

إن الدولة ـ أى دولة ـ تساهم فى كتابة التاريخ بقسط وفير.

فالدولة هى التى تكتب التاريخ الذى يدرس فى المدارس. أى تـكتب المقرر الذى يقرؤه ويدرسه كل طفل منذ سن الطفولة حتـى الشـهادة الثانوية، وعلى الأغلب الجامعية.

والدولة هى التى ترعى المشروعات الـكبرى كالمـوسوعات ودوائـر المعارف وطبع كتب التراث وهو نوع من كتابة التاريخ بحكم الانتقـاء، وبحكم النشر.

وهذا يكفى...

وما يمكن أن يطلب من الدول هو أن «تسهل» كتـابة التـاريخ. أن تمكن المؤرخ من ممارسة عمله. أن تمول الحفريات والتنقيب والبحـث. أن تنظم الوثائق الممكن نشرها وتضعها حيث الاطلاع عليها والاستعانة بها.

وفى أمريكا صار تقليدا أن كل رئيس دولة، بمجرد تركه الحكم، يضع كل أوراق عهده فى مكتبة مستقلة، وقد يسمح للباحثين بالاطلاع فـورا على جزء منها، ويوصى صاحب الأوراق بإبقاء بعضها سرا عشر سـنوات أو عشرين سنة، ولكنها تصير إلى ملكية الأمة على أى حال.

ولكن كتابة التاريخ بعد ذلك قضية شخصية...

فحتى إذا كانت «الوقائع» ثابتة ومتفقا عليها. فان التاريخ ليس سرد وقائع. ولكن هو وضع الوقائع فى إطار معين، وتحليلها فى ضوء منطق معين. فالتاريخ فى أرقى صوره وجهة نظر، الحقيقة فيه ملك القارئ؟ ووجهة النظر ملك الكاتب المؤرخ. وهناك وقائع تاريخية كبرى ثابتة، يتخاصم المؤرخون على تحليلها طيلة ألف سنة!...

ومن الخواطر المتصلة بهذا الموضوع، أننا لو دققنا النظر فيما حولنا، وفى خضم الادوات التكنولوجية المتاحة فى العصر الحديث، وفى عصر ديمقراطية المعرفة بمعنى وصولها إلى الجميع حتى الأميين.. إن لم يكن بالقراءة فبالسماع أو بالمشاهدة.. نجد أن أمامنا مشكلة أخرى تحتاج إلى تدبر، وهى ما يجرى كل يوم من إعادة لكتابة التاريخ!

نترك الآن جانبا الكتب والمؤلفات العلمية والوثائق والمذكرات، وكل ما يخطر على البال حين نتحدث عن كتابة التاريخ، أو لكى نستعمل عبارة أوسع «إعادة صياغة التاريخ»...

ما القول فى أفلام السينما التاريخية، بالوانها والشاشة «السينما سكوب»، وجاذبيتها الهائلة على مئات ملايين المشاهدين فى العالم من كل المستويات فى الأعمار والمدارك والثقافة؟

ما القول فى الحلقات التليفزيونية المسلسلة التى تتحدث عن التاريخ وتدخل كل بيت؟

ما القول فى المسلسلات الاذاعية التاريخية؟

ما القول فى الروايات المكتوبة؟

ما القول فى مجلات الأطفال وكتب الأطفال ورواج ذى الطابع التاريخى منها؟...

القليل من هذا الفيض الهائل، هو الذى تتوافر له الدقة التـاريخية. وعدم التضحية بالنزاهة فى سبيل التشويق، أو الربح، أو الدعاية لوجهة نظر معينة..

والكثير غير ذلك...

كل الأفلام التى تنتجها السينما اليهودية عن قصص الانجيل...

كل المخرجين الذين يغريهم الـربح بـافلام عـن كليــوباترا أو سبارتاكوس أو غيرهما...

إلى آخره.. إلى آخره...

إن فيلما واحدا، بنجومه وأسمائه والوانه ومـوسيقاه، عـن حقبـة تاريخية.. هو الذى يلصق بالذهن. ويمحو من الذاكرة أثر مائة كتـاب. فما بالنا وهو يتجه لملايين لا تقرأ الكتب، وليس لديها مناعة المعلومات السابقة، أو قدرة ادراك الخطأ أو التحريف؟

وجه الممثل الذى يقوم بالدور يصبح فى الذهن العام وجـه البـطل. كيرك دوجلاس هو سبارتاكوس. واليزابيث تايلور هى كليوباترا. وأحمـد مظهر هو صلاح الدين الايوبى! الثياب، والقصور، والجـدران، وصـور المعارك، أو الحفلات... كلها تلصق صورة فى ذهن الجمهور. مـا هـى دقتها يا ترى. هل كانت حقا ثياب العصر، والـوانه، وحـركات النـاس وسكناتهم.. كما نراها على الشاشة؟

إنها نظرة المخرج، وتصوراته والله أعلم بمدى قربها أو بعدها عـن الحقيقة. ولكن هذا هو ما يستقر فى الذهن ويمحو سواه.

وأعظم كتاب تاريخ يقرؤه آلاف، فى حين أن أى فيلم يراه مـلايين.

وأى مسلسل تليفزيونى يراه مئات الملايين. وأى كتاب أطفال يقرؤه عشرات الملايين. وأى كتاب تاريخ مدرسى، وضعته الدولة يقرؤه شعب بأكمله، سنة وراء سنة وراء سنة!

إن ديمقراطية المعرفة، وأن التكنولوجيا الحديثة، كلاهما تحول عظيم فى حياة العالم. وقد رحبت بهما الانسانية مفتوحة الذراعين. ولكن الانسانية لم تجد بعد ما تعالج به مخاطرهما ومحاذيرهما. لم نكتشف بعد «المضادات الحيوية» لما يحمله الجديد من جراثيم!

إعادة كتابة التاريخ الاسلامى

ولقد تذكرت، وأنا أدير هذا الحديث فى نفسى، أننى دعوت، وعلى نفس هذه الصفحات إلى إعادة كتابة التاريخ الاسلامى!

ومازال هذا المنبر الذى اخاطب القارئ منه، مؤمنا بهذه الدعوة، وملتزما بها. ومازلنا نحاول ممارسة ذلك فى حدود الطاقة..

فهل هناك تناقض، بين أول الحديث وآخره..؟

كلا. فالدعوة كما قصدتها، دعوة إلى الانفتاح على الحقيقة، وليست دعوة إلى الانغلاق دونها، كما توحى كتابات بعض المطالبين بإعادة كتابة التاريخ...

فالتاريخ الاسلامى، قد كتب جانب كبير منه فى ظل ظروف من تحكم السلطة.. وفى عصور مظلمة فكريا وثقافيا، واجتماعيا.. وبالتالى فلابد من إعادة النظر فى كل هذا...

والبعض ينظر إلى التاريخ الاسلامى نظرة يخلط فيها بين التاريخ

الذى صنعه البشر، وبين الاسلام ذاته. فاسبغوا على البشر عصمة الدين. وبالتالى جعلوا التاريخ وكأنه كتلة مقدسة تتساوى فى قيمتها. وكأن الخليفة عمر فى مكة فى مقام الخليفة العثمانى فى اسطنبول!

ثم إن أمهات الكتب التاريخية الاسلامية ذات القيمة، صارت بعيدة عن متناول القارئ، وصعبة على فهم حتى المتعلم، الأمر الذى يبرز الحاجة إلى طرحها على الناس باعادة نشرها، مع حسن الانتقاء، وتبسيط بعضها، لتصل لجمهور أكبر...

ثم إن هذه الدعوة تنطلق مما نراه من إدخال أشياء على حياة المسلمين ليست من الاسلام. وأخطرها المذاهب المتعددة التى تنتمى إلى أحداث خاضها البشر. وصنعها البشر. ومزقت المسلمين تمزيقا. وأخذها الناس عبر آلاف السنين على أنها الدين وهى اجتهادات على أحسن الأحوال. فالنبى الكريم ترك اسلاما واحدا ومذهبا واحدا، ولم يترك عشرين مذهبا تفرق المسلمين حتى اليوم.

ولكن لن يكون هذا إلا باعادة طرح التاريخ. وإعادة تحليل أحداثه. وفرز الغث من السمين فيه. فتبقى للقداسة حرمتها. ويبقى ما هو من صنع البشر للبشر.

من... حضارة ذهبية قديمة
إلى... حضارة جديدة لا مفر منها

■ كان الحديث يدور بين بعض «المثقفين»، فى الكويت، وإن جاءوا من أقطار عربية مختلفة عن حريق دار الأوبرا فى القاهرة، وما أعلن وقتها عن إعادة بنائها فورا، ولماذا لم يتم شىء من هذا إلى الآن، وبقى مكان الأوبرا ساحة واسعة لوقوف السيارات. وذلك بوصف أنها كانت دار الأوبرا الوحيدة فى العالم العربى، وأنها كانت أحد أبرز معالم القاهرة، ليس بمبناها، ولكن برمزها ومعناها، وما كانت تقدم فوق خشبتها من أعمال فنية، وفرق عالمية، وما كانت تقوم به بالتالى من دور كهمزة وصل بين عاصمة عربية وعواصم العالم المتقدم فى مجال هام من مجالات الثقافة والفكر والفن والمتعة الراقية.

وتحمس فريق لضرورة إعادة بناء دار الأوبرا، مهما كانت ظروف الحرب وظروف الاقتصاد، فلابد أن يقتطع لها نصيب من ميزانيات وزارات الثقافة والتعليم والتعمير، لأن الأوبرا حجر أساس فى الثقافة والتعليم والتعمير جميعا.

وتحمس آخرون لأن يتبرع الشعب فى مصر ـ ومن يشاء بعد ذلك من خارج مصر ـ وخصوصا المثقفون منه لبناء الأوبرا، ففى التبرع الشعبى معنى المبادرة العامة من المهتمين بارتقاء بلادهم فى مجال يهتمون به.. وإذا كان غيرهم من أبناء الشعب يقاتل فى ساعات أخرى، فتلك ساحتهم التى يقاتلون فيها...

وطرح آخرون سؤالا هاما:

صحيح أن احتراق دار الأوبرا فى القاهرة، كان خسارة فادحة بكل المعانى..

ولكن، أما وقد احترقت فعلا وانتهى الأمر، وصار إعادة بنائها أمرا يكلف مبالغ ضخمة من ميزانية الدولة كانت أو من أموال التبرعات، فهل يا ترى بناء دار للأوبرا، بهذه التكاليف الضخمة، يأتى حقا فى هذه المرتبة المتقدمة من سلم الأولويات بالنسبة لأى شعب يواجه متطلبات أخرى أولى وأهم، حتى فى ميدان الثقافة؟

إن دار الأوبرا فى أى مكان لا يرتادها إلا الخاصة من المثقفين، وهم قلة قليلة بين مجموع أى شعب من شعوب بلادنا...

فهل إنفاق المال على بناء دار للأوبرا أهم، أم أن الأجدى إنفاق هذا المال فى مكافحة الأمية مثلا؟ أو فى توسيع نطاق المدارس والجامعات؟ أو على الصحة العامة... إلى آخره.

واحتدم النقاش، دون أن يصل إلى قرار.

أثار هذا النقاش فى خاطرى قضية أساسية من القضايا التى تواجهها بلادنا وكل البلاد الآخذة فى التقدم، وهى قضية: النخبة، والجماهير...

كما أنه أثار فى خاطرى قضية أخرى هامة، هى قضية العلوم العلمية والتطبيقية.. كالهندسة والطب والكيمياء.. والعلوم الانسانية كالقانون والأدب والفن والاجتماع والتاريخ...

وعلاقة الأمرين بحكاية الاختيار بين بناء دار للأوبرا أو الانفاق على محو الأمية، علاقة واضحة.

فبالنسبة للعلوم التطبيقية والعلوم الانسانية.. نجد أنه لو قـام مـن يدعو إلى إنفاق الملايين لتوفير وسائل البحث العلمـي مـن أجهـزة ومعامل، لما اعترض عليه أحد، فى حين أنه لو قام من يدعو إلى إنفـاق هذه المبالغ على ما يشبه هذه المعامل بالنسبة لأهل العلوم الانسانية، لجادل فى ذلك المجادلون، وذلك مظهر من مـظاهر التصـور الـكاسح للحضارة بوصفها تتمثل فى الجوانب المـادية للحيـاة، دون الجـوانب المعنوية. فالحضارة هى السيارة والطائرة والمصنع والمدفع، وأى شىء يساعد على التقدم فى هذه العلوم أساس ومفهـوم ومـوضع حمـاسة الجميع. أما الجوانب المعنوية للحضارة التى تتمثل فى «مجموعة القيم» التى يأخذ بها المجتمع المتحضر، وهى القيم التى تحـرسها وتـرعاها وتطورها العلوم الانسانية، فهى أمور صارت فى نظر الناس ثـانوية، أو نوعا من أنواع الترف...

وقد نجد هذا الرأى قويا بين المجتمعات التى لديها ذخيرة قـديمة من العلوم الانسانية. من فلسفة وعقائد وفكر وفن، ولكنها مع ذلك تشعر انها فى الذيل من طابور التقدم.

وينطبق هذا مثلا على عالمنا العربى بتراثه الغنى فى كل هذه الأمور، وفقره فى أرباب القوة المادية.

ويختزل هذا الموقف، القول المأثور عن أمين الريحانى: أنـا الشرق عندى فلسفات، من يأخذها ويعطينى دبابات وطائرات!

ومثل هذه الاتجاهات فى حياة الشعوب، فى فترات معينة، كثيـرا مـا تكون بمثابة «رد فعل»...

فالبلاد ذات الحضارات العريقة كالعرب والهند والصين مثلا، تجد أن

لديها تراثا عريقا كما ذكرت من الثقافة والتراث وكل ما يدخل تحت باب العلوم الانسانية... ولكنها مع ذلك تجد نفسها فى عالمنا هذا الحديث مستضعفة. فهى لم تلحق بالثورة «الصناعية» التى هى نتيجة العلوم التطبيقية.. ثم لم تلحق بعصر «ما بعد الثورة الصناعية» الذى نعيشه الآن، فاتها عصر البخار، ثم عصر الكهرباء، ويفوتها الآن عصر الذرة. وإزاء هذا يكون رد الفعل حادا، أحيانا يكون بالفزع من مواجهة مستقبل هذا وصفه، وبالهروب إلى الماضى، والدعوة إلى استرجاع عصر كان ذهبيا، فى حين أنه كان ذهبيا فى ظروفه وزمانه، وعودته برمته لا يعنى بالضرورة أنه سيكون ذهبيا مرة أخرى، وأحيانا يصل ببعض الشعوب إلى درجة كراهية هذا الماضى المجيد، والرغبة فى تحطيمه، كأنه هو العقبة التى تحول دون تقدمها، كما حدث فى الصين، خلال ما أسمته بالثورة الثقافية فقاموا يهاجمون كونفوشيوس، ويندودن بكل الحكماء الأوائل، ويحطمون تماثيلهم وآثارهم الفنية الرائعة الجميلة!

ولاشك أن رد الفعل، فى كلتا الحالتين، خطأ...

على الأقل لأسباب ثلاثة:

الموقف من الماضى

السبب الأول، أن تحطيم الماضى والثورة الشاملة عليه، ومحاولة محوه.. فوق انه أمر غير ممكن عمليا، فإنه عمل غير منتج، لأن أى حضارة قديمة لا شك إنها تميزت بشىء، وخطت بالانسانية خطوة، وساهمت بدور فى وضع أسس الحضارة الحديثة التى نراها، ليس فقط فى جوانبها الفلسفية والفكرية، ولكن أيضا فى جوانبها المادية والتطبيقية...

فنحن ننسى مثلا أن اختراع الدبابة كان مستحيلا، لولا سلسلة طويلة جدا، بدأت منذ آلاف السنين، على يد الفراعنة، حين اخترعوا العجلة الحربية. ونحن نرى اليوم أن العجلة شيء بديهي. ولكن كل شيء يبدو بديهيا بعد اكتشافه وصنعه بزمن. فمن يولد اليوم يجد أن الطائرة مثلا شيء بديهي. ولكنه لم يكن كذلك قبل أقل من عشرين سنة، بل كان مجرد خيال علمي طريف.

ونحن ننسى أنه لولا اختراع الورق فى الصين قبل آلاف السنين، لما أمكن اختراع المطبعة، والكتاب، والجريدة، وبالتالى انتشار العلم وجعله ميسرا وفى متناول الملايين...

ونحن ننسى أنه لولا اكتشافات علماء العرب فى الرياضيات والفلك. كالبيروني وغيره. لما أمكن الوصول إلى النظريات الرياضية الحديثة، وأينشتين، والنسبية، وتحطيم الذرة.

إذن، فالذين يحاولون تحطيم حضارات الماضى القديمة بأسرها، ومحوها محوا.. ينسون مسألة بديهية، وهى أن تلك الحضارات، كان التقدم فيها يمشى على القدمين معا: على التقدم والابتكار فى العلوم العقلية والانسانية، وعلى التقدم والابتكار فى العلوم التطبيقية. وكلمة التكنولوجيا كلمة جديدة. ولكن معناها قديم. وهو تحويل المعرفة العلمية النظرية إلى نتيجة تطبيقية علمية، يستوى فى ذلك اكتشاف النار من الانسان الأول مع اكتشاف الالكترون من قبل الانسان الحديث.

ولربما كان السبب، فى نسيان الناس لهذه الحقيقة، هو أن العلوم التطبيقية، سريعة التغير بطبيعتها ينسخ أحدهما الآخر ويلغيه ويستغنى عنه، كالانتقال من السفينة التى تسير بالشراع إلى السفينة التى تسير

بالبخار، إلى السفينة التى تسير بالطاقة الـذرية. فى حيـن أن العلـوم الانسانية أطول عمرا وأطول بقاء، وأحيانا إلى درجة الخلود. لأن العلوم الانسانية فى جانب كبير منها تتناول الانسان ذاته. وهو أكثر العنـاصر بقاء وأقلها تغيرا. فى مشاعره وأحاسيسه وغرائزه، والعوامل المـؤثرة فى صفاته.

وليس أدل على القيمة الكبرى للماضى بهذا المعنى المتكامل، من أننا نجد أن أكثر الدول تقدما وتحضرا ورقيا بمعايير العصر الحديث، هـى الدول التى تتميز بالمخترعات الحديثة والمظاهر المادية للتقـدم، هـى نفسها أكثر الدول اهتماما وعناية فى التنقيب عن آثار الماضى، مهما كان بعيدا عنها فى الزمان والمكان..

اكتشاف جمجمة إنسان ترجع إلى عشرات الآلاف مـن السـنين، فى أقصى أنحاء الأرض، خبر هام ينشر فى الصفحات الأولى مـن صـحف أوروبا وأمريكا، ويتجادل فيه العلماء، وتحتدم حوله الاستنتاجات..

الجامعات الأمريكية والأوروبية الكبرى.. هى التى تـرسل البعـوث، وتعتمد الميزانيات، لعمل الحفريات والتنقيب عـن آثـار عمـرها آلاف السنين فى البحرين، أو فى جزيرة فيلكا أمام شاطىء مدينة الكويت، أو فى الكشف تحت تراكمات الزمن فى مدينة قديمة كالقاهرة لدراسة نظم البناء والمعمار وشبكات الماء والمجارى فى المدن الفـاطمية القـديمة التـى اندثرت.

وحين جاء نابليون إلى مصر ومعه بعثة من أعـظم علمـاء فـرنسا، ليكشف عن آثار مصر، ويعثر على حجر رشـيد، ويفـك لغـز اللغـة الهيروغليفية، لتفهم أسرار حضارة بادت منذ آلاف السـنين.. كل هـذا

ليس ترفا. ولكنه فى جانب أثر من آثار غريزة الانسان فى الحاجة إلى معرفة أمه وأبيه وأصوله، ومن أين جاءت، وفى جانب منها إدراك عميق أن الانسان كلما زاد معرفة بتاريخه زاد معرفة بنفسه، وكلما زاد فهمه لماضيه زادت قدرته على تصور مستقبله.

النقطة الثانية، أو رد الفعل الثانى، وهو الفزع من حضارة العصر الحديث، بتحدياتها العنيفة والجانب القاسى من ملامحها، ومواجهة ذلك بالهرب إلى الماضى، والاستكانة إلى القديم، والانسياق لحلم غامض بالرجوع إلى عصر كان ذهبيا فى أوانه، فهو بدوره رد فعل خاطئ، نفهمه فى الحقيقة من خلال علم النفس، أكثر مما نفهم من خلال مصلحة المجتمع، والأمر هنا يبدو بديهيا لا يحتاج إلى أكثر من استخدام العقل السليم، رغم أنه فى العادة - كالحال فى بلادنا - محل خلاف شديد.

فلا يمكن لمجتمع يريد الحياة أن يرجع كليا إلى الوراء. ولا يمكن أن يهرب مجتمع إلى كهف ينام فيه قرونا ثم يصحو ليجد أن الأمور قد تطورت لصالحه أو أن الحياة قد توقفت عند لحظة إغفاءته. فكل ترتيب وضعه الانسان قبل ألف سنة ليواجه ظروفا معينة، لا يمكن أن يصلح لورثته بعد ألف سنة. ولا يمكن أن يعفيهم من واجبهم فى ترتيب أمورهم من جديد، اكتفاء بجهد الأجداد والأسلاف العظام. فهؤلاء الأسلاف كانوا عظاما لأنهم لم يركنوا إلى ما وجدوه من قبلهم ولكنهم تقدموا وصنعوا الجديد فى عصرهم، وكل ماض تندثر منه أشياء وتبقى منه أشياء.

الظروف تتغير باستمرار ولابد من مواجهة الظروف الجديدة بحلول جديدة.

الواحة غير القرية غير المدينة الكبيرة. الرعاة غير الفلاحين غير العمال المحتشدين فى المصانع والمحكومين بالآلات.

تبقى من الماضى قيم أساسية. وقسمات خاصة بكل شعب كانت له فترات حضارية عظيمة. وتكوين نفسى عام نتيجة الرسالة السماوية، وأحداث التاريخ، وحقائق الجغرافيا الباقية، والامتحانات التى مر بها. ولكن يتغير أسلوب الحياة وأنماط السلوك بتغير شكل الانتاج وأسلوب التجمع السكانى وقدرات العلوم والاكتشافات المتتالية.

ولو أننا احتكمنا إلى المنطق المجرد، لقلنا إن الأمة التى كانت لها حضارة عظيمة وتاريخ مجيد، هى التى يجب أن تكون أسرع فى اليقظة من سباتها، والتخلص من عوامل تخلفها، والانطلاق إلى التقدم. ولكن كثيرين من علماء وخبراء «التنمية» المعاصرين يلاحظون أن العكس هو الذى يحدث فى حالات كثيرة. فالمجتمع البادىء من نقطة ليس لها تاريخ، يتحرك بسرعة أكبر، لأنه ليس لديه ما يجعله ينظر إلى الوراء. وليس له هوية قديمة يحرص على الاحتفاظ بها وهو يقتحم مغامرة التقدم.

والمثل على هذا فى العصر الحديث نجده فى المقارنة بين السرعة التى اندفعت بها الولايات المتحدة الأمريكية والبطء النسبى الذى سارت به أوروبا وهى الأم فى كل مجال تفوقت فيه أمريكا.

ذلك أن أمريكا بدأت بالمهاجرين. المهاجرون جاءوا إليها هربا من ماضيهم فى أوروبا، كطريقة للفرار من سيئاته ومعوقاته. الاضطهاد الدينى، الحروب الوطنية، التعصبات الاقليمية، النظام الطبقى.. كل هذه الملامح الأوروبية فر منها مهاجرون، ارتادوا أمريكا، يعملون فقط، بغير

هذه العقد، كل فرد حر فى دينه. الولايات التى تكونت هناك التحمت فى بساطة شديدة فى وطن واحد كبير. البوتقة صهرت الفرنسى والألمانى والانجليزى والاسبانى الذين ظلوا فى أوروبا قبل ذلك وبعد ذلك يتحاربون. امتيازات الوراثة لم توجد ـ وليس صدفة ـ ولادة أول نظام جمهورى هناك. الفرصة المتكافئة كقاعدة فى المجتمع بدأت هناك من جديد...

ولست أنسى دهشة ذلك الصديق من كندا كلما قلت له فى القاهرة: هذا المبنى عمره ألف سنة.. وقوله: عندما نجد فى كندا مبنى عمره خمسون عاما نعتبره أثرا تاريخيا عريقا!

فالبلاد ذات الحضارات الذهبية القديمة ـ مثلنا ـ تواجه فى الواقع معادلة لابد من حلها.

فإلغاء التاريخ عبث، والسكنى بين مقابره وآثاره انتحار. إنما لابد من الاسراع بإيجاد صيغة تجمع بين القدرة على استيعاب التراث ومواجهة المستقبل.

وهذا لا يكون إلا بمعاملة التراث معاملة انتقاء، لا معاملة اكتفاء وانكفاء. والتوجه إلى المستقبل فى شجاعة وليس فى خوف واتقاء.

ولعله مما يسهل علينا هذا، أن ندرك ما ننساه فى نظرتنا إلى الحضارات القديمة، من أن التقدم فيها كان إنسانيا وماديا على السواء. كما ذكرت من قبل، تماما كأى حضارة حديثة.

وهذا ينقلنا إلى النقطة الثالثة... وهى أننا كثيرا ما ننسى أن الحضارة الحديثة الراهنة، هى أيضا قامت كسابقاتها على أساس من

التقدم فى الناحيتين : العلوم الانسانية والعلوم التطبيقية أو التكنولوجية على السواء.

لاشك أن الحضارة الحديثة، بحكم التقدم العلمى المتسارع، تبدى من نفسها للناس وجها طاغيا فى ماديته. الأمر الذى جعل الكثيرين يظنون أن هذا الجانب المادى الساحق هو الحضارة كلها، فالتقدم التكنولوجى الذى تم فى مائتى سنة لم يرث مثله فى ألفى سنة قبل ذلك. ظل الانسان آلاف السنين مثلا يركب الدواب أو ما تجره الدواب، ولكن الانسان فى خمسين سنة، أى فى عمر متوسط الانسان، عرف الدراجة والسيارة والقطار والطائرة والغواصة والصاروخ والأقمار الصناعية!

هذا الوجه الطاغى فى ماديته للحضارة الحديثة، كان من خصائصه أيضا إيجاد تسهيلات مباشرة للحياة اليومية للفرد العادى. فقصور الاباطرة والملوك والأمراء عبر آلاف السنين لم تكن فيها التسهيلات الموجودة فى بيت أى فرد بسيط من مياه جارية وإضاءة سهلة نقية بالكهرباء ومصاعد وثلاجات وسخانات وأجهزة تكييف الهواء وتغسل الأوانى والثياب وراديو وتليفزيون وأجهزة تنقل الأخبار والأصوات والصور عبر آلاف الأميال فى ثوان.

هذا كله رسخ فى أذهان كثيرة أن الحضارة الآن هى إعادة فى كل مظاهرها. وأنها كلها خرجت من معامل الباحثين فى العلوم التطبيقية والتكنولوجية.

وهذا خطأ كبير...

فهذه الحضارة الحديثة كغيرها من قبل قامت على العلوم الانسانية والتطبيقية معا. عصر النهضة عرف الرسامين العظام والأدباء والفلاسفة

الكبار جنبا إلى جنب مع العلماء. ولو اخترنا رمـزا لـوجب أن نـذكر ليوناردو دافنشى رسام عصر النهضة الذى كان يرسم أجمل اللـوحات ويرسم نماذج علمية للغواصة والكبارى المعلقـة وغيـرها، الحضـارة الحديثة صنعتها ريشة رافايللو وبيكاسو كما صنعتها موسيقى بتهـوفن وكما صنعتها فلسفة ديكارت وهيجل وكما صـنعتها تجـارب اديسـون وماركونى، ورياضيات اينشتين وصواريخ فون براون وقنابل اوبنهـايمر الأمريكى وزخارف الروسى الذرية والهيدروجينية، ومطبعة جوتنبرج وأدب فولتير والفكر السياسى لتوماس جفرسون وأبحاث فرويد ويـونج فى نفس الانسان، مهما كانت محل خلاف أو اتفاق.

إن الحضارة كل لا يتجزأ. إنها تربة واحدة تنتج زهورا مختلفة لكنها متسقة متكاملة. إنها مجموعة قيم، بخيرها وشرهـا، يفلسـفها الفـكر وترعاها العلوم الاجتماعية وتدعمها العلوم التكنولوجية، ولا يتصور قيام تحضر أعرج يعتمد على عنصر واحد دون سائر العناصر التـى تعـطى الظاهرة الاجتماعية اسم الحضارة. وتعطى كلمـة الحضـارة معنـاها، وترسم لها مسيرها، نموها أو اندثارها.

ولقد استنفدت فيما يبدو الصفحات التى لى، فى الحديث عن قضـية واحدة من القضيتين اللتين أثارتهما مناقشة عن بناء دار للأوبرا...

أردت أن أقول إن إقامة «مجمع فنى» رفيع لا يقل قيمة وأهمية عن إقامة «معمل أبحاث» رفيع، والظن بأن الثانى يعـطى بمفـرده نتـائج ملموسة محسوسة مادية يمكن أن تكون وحدها حضارة، ظن خاطئ..

أما القضية الثانية، قضية «النخبة والجماهير» فيبدو أنه لابد مـن تركها لحديث آخر...

استعمار التاريخ..
والحوار بين الحضارات!

«عندما هزم شارل مارتل الفرسان العرب في بواتييه سنة ٧٣٢، بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية الأوروبية»

أناتول فرانس

في كتاب «الحياة بالزهور»

يبدو أنه لا يوجد في عالم اليوم مفكر واحد راض، أو متفائل. ولا نتحدث طبعا عن أولئك «الكتبة» لا «الكتاب» الذين يملأون الصحائف كل يوم، إما بتملق حكامهم أو بتملق قرائهم أو بتملق أنفسهم. هؤلاء الذين يعيشون بالغرائز لا بالمشاعر. بالنقل لا بالعقل، ربما كانوا أحد أوبئة الحضارة التي جعلت النشر سهلا واسعا ميسرا ولم يعد «بابا ضيقا» كما كان الأمر في الماضي عندما كان لا يظهر إلا الجديرون، الذين يشقون ويتعبون ويرهقون الناس معهم، عملا بكلمة الانجيل «اجهدوا للدخول من الباب الضيق».

وليست هذه الظاهرة ولا هؤلاء «الكتبة» هم موضوع حديثنا هذا. ولكن العذر هو أن المرء يضطر أحيانا وهو يتحدث إلى أن «يهش الذباب»!..

● ● ●

ومن هذه الأرواح القلقة، التى يفيدنا قلقها خصبا ومعـرفة وتـأملا، مفكر فرنسى لأعماله صلة وثيقة بالعصر كله من جهة، وبعالمنا العـربى بالذات من جهة أخرى، وهو روجيه جارودى.

كان روجيه جارودى معظم حياته عضوا فى الحزب الشيوعى الفرنسى، حتى صار أهم مفكريه، وأشهر أعضاء قيـادته المتمثلـة فى المـكتب السياسى، ولكنه بدأ تحت وطأة صدمات العصر الحديث ومطارق العلـم ودوار التغيير السريع.. بدأ يعيد النظر، ويقلب الفكر، ولـم يـكن هـذا مما يتسق مع وضعه القيادى فى حزب حديدى، ففصـل مـن الحـزب الشيوعى الفرنسى، بعد محاكمة «فكرية» شهيرة..

وقد أصدر بعدها كتابا أحدث ضجة واسعة، إذ سجل نقطة خـلافه الأساسية مع الفكر الماركسى التقليدى عنوانه البديل L'Alternative.

ولكن قضايا هذا الكتاب ليست موضوع هذا الحديث. ولكن موضوعنا هو ثلاثة كتب أخرى له، متكاملة أو متداخلة:

أولها: كلمات إنسان Parole D'Homme.

وثانيها: من أجل حوار بيـن الحضـارات. Pour Un Dialogue Des Civilisation.

وثالثها (وقد صدر أخيرا): كيف يصبح الانسان إنسانيا؟ Comment L'Homme Devient Humain.

والكتاب الثالث لم يصلنا بعد. ولكن بين أيدينا أجزاء كثيـرة نشرت منه، ومناقشات دارت حوله إلى جانب الكتابين الأولين...

ببساطة شديدة يقول الكاتب المفكر الفرنسى لجمهوره الغربى: إن كل

مصائب الدنيا مصدرها أن العالم الغربى يظن أنه صاحب الحضارة العظمى ومصدر كل التقدم فى هذه الدنيا لمجرد أنه ـ اليوم ـ هو الأقوى، وهو المصدر...

ويطلق جارودى صيحة أذهلت مواطنيه: إن الغرب مجرد صدفة!... L'occident Est Un Accident! فالغرب ليس تعريفا جغرافيا، ولكنه تلك المجموعة من القيم والقوى والثقافات والماديات التى تميزه كحضارة متقدمة فى عصرنا الراهن.

ولكن حضارة الغرب لم تولد من العدم. ولكنها كأى شيء له أصل وله جذور.. ولو نظرنا نظرة صحيحة فاحصة إلى كل ما لدى الغرب اليوم، وما يشعه على العالم من أفكار ومبادئ ونظم وفنون وماديات، فسنجد له جذورا فى حضارات أخرى...

ثم إن الغرب ـ كحضارة حديثة ـ عمره لا يزيد عن مائتى سنة! ومع ذلك فهو يبدو على وشك أن يجر العالم إلى الهلاك بمخترعاته الذرية واستخداماته للقوة الغاشمة.

فهو لم يثبت بعد قدرته حتى على البقاء زمنا طويلا. لأن حضارة المصريين القدماء، عاشت زاهرة ثلاثة آلاف سنة. ولأن حضارة الصين عاشت ألفين ـ لا مائتين ـ من السنين!

وبالتالى فهو يرى أن الحضارة الغربية قد أثبتت أنها عاجزة عن قيادة العالم.

والحل هو:

أولا: أن تدرك هذه الحضارة الغربية حجمها الحقيقى بين حضارات العالم الأخرى.

والثاني: أن يقوم حوار بين الحضارات، تتبادل فيه مفاهيمها ومثلها وقيمها وتجاربها، وعلى قدم المساواة، حتى يصبح ممكنا أن يعيش العالم فى سلام...

ولكن، متى بدأ روجيه جارودى الفرنسي، الماركسي، هذا الانعطاف الهام؟

يقول ردا على ذلك: إنه تدرج فى نفسه طويلا وببطء. وبدأ بلقائه الأول بالحضارة العربية الاسلامية.. «بدأ اهتمامى الأول بهذا الموضوع سنة ١٩٤٧ حين أصدرت كتابا صغيرا بعنوان «محاولة تاريخية لفهم الحضارة العربية».. وقد أسعدنى أن أعرف أن بعض الشباب الوطنى فى مصر ترجمه وقدمه لجمال عبد الناصر. ولكن، سبق لى قبل ذلك حادث لا أنساه أبدا: فى سبتمبر ١٩٤٠، خلال الاحتلال الألمانى لفرنسا، كنت شيوعيا أعمل فى المقاومة ضد حكومة فيشى، فألقى القبض على وأرسلونى إلى معسكر اعتقال عند واحة «غرداية» فى قلب صحراء الجزائر الكبرى. وبعد وقت قصير، قمنا بحركة تمرد فى المعتقل، وأمر الضباط جنودهم الجزائريين بإطلاق النار علينا وقتلنا. كان عمرى سبعا وعشرين سنة. ولكن الجنود الجزائريين العرب رفضوا إطلاق النار. فأنا عشت بعد ذلك بفضلهم».

ويقول جارودى: إنه ليس أول من قال بهذا الرأى، وإن كان هو قد عكف على شرحه وقرر جعله موضوع ما تبقى من حياته..

ثم يذكرنا بكلمة قالها الكاتب الفرنسي الشهير «اناتول فرانس»: «إن أهم تاريخ فى حياة فرنسا هو معركة بواتييه سنة ٧٣٢ ميلادية، حين هزم شارل مارتل جيوش الوالى عبد الرحمن، ففى ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام البربرية الأوروبية!».

ويروى جارودى أنه استشهد بهذه الجملة فى محاضرة له فى تونس سنة ١٩٥٥. وكانت تونس ما تزال تحت الاحتلال الفرنسى. وفى اليوم التالى طردته السلطات الفرنسية من تونس بتهمة قيامه بدعايات مضادة لفرنسا !

●●●

ويشرح روجيه جارودى فى إسهاب لماذا يعتبر «الغرب.. صدفة».. فى كتابه «حوار بين الحضارات».

وإذا رجعنا إلى قول «بول فاليرى» أن الغرب قد صنعته ثلاثة عناصر:

أخلاقيا: المسيحية، والكاثوليكية بالذات.

سياسيا وقانونيا: روما وقوانينها.

فكريا وفنيا: الاغريق..

فإنه يمكن القول أن المسيحية ولدت فى آسيا، وأن حضارة الاغريق والرومان ولدت فى حجر البحر الأبيض، وبتأثير شديد جدا من شواطئ أفريقيا وآسيا.. فكلها عناصر «شرقية»، خارج «الغرب» بمعناه المعاصر..

ويقول جارودى إن حضارة أوروبا نبتت جذورها كلها لأول مرة فى أفريقيا وآسيا: وبالتحديد فى مصر، وبلاد ما بين النهرين (العراق)..

فروح حضارة الغرب ومنطلقها هو التوجه نحو سيطرة الانسان على عوامل الطبيعة، وعلى ذاته وإعلائها..

ولكن فى بلاد ما بين النهرين، ومنذ خمسة آلاف سنة قبل «الياذة هوميروس»، يرفع الستار عن أسطورة «جلجامش». التى تتحدث عن مارد ثلثه إنسان وثلثاه إله، ظهر فى مدينة «أور» بعد الطوفان، ورحل إلى أرض الأنهار الخمسة، حيث تجرى الأسطورة متحدثة عن كل أشواق الانسان إلى تحدى الطبيعة والسيطرة عليها، وتجاوز إمكانياته كبشر.. فمنذ أربعة آلاف سنة قبل ميلاد المسيح، كان «فاوست» الذى ألفه «جوته» واتخذ رمزا لروح الغرب، قد ظهر فى أسطورة «جلجامش».

وحين سئل جلجامش فى الأسطورة العراقية القديمة «ولماذا تحاول المستحيل؟» رد قائلا «إذا كان هذا الأمر لا تجوز محاولته، فلماذا اتقدت فى نفسى نار القلق والرغبة فيه؟».

ذلك هو أساس كل حضارة الغرب، التى تناقلها بعد ذلك فلاسفة الاغريق حتى أوصلوها إلى أوروبا.

أما «الجرثومة» الأخرى للفلسفة الاغريقية التى ولدت فى فينيقيا وكريت خصوصا عن طريق أفلاطون فنجدها فى مصر.

فالفلاسفة والمؤرخون الاغريق تأثروا تأثرا كبيرا وأعجبوا إعجابا عميقا بمصر القديمة. وفكرة أفلاطون التى ألهمت أوروبا عن الدولة الفاضلة التى تجمع بين الاستقرار السياسى والديمقراطية الحية، كان وحيه فيها من مصر، ألهمت مصر كل تجارب الاغريق.

فلو فحصنا ما أنجزه الاغريق.. بدءا من فن النحت إلى الفلسفة إلى السياسة نجد تأثرهم العميق بمصر وتمثلهم الدائم بها.

ويضرب جارودى المثل بثلاث «مساهمات» مصرية قديمة أساسية فى تراث الانسانية كلها:

الأولى: أسطورة أوزوريس الذى يقاوم الطبيعة فيمزقه أعداؤه إلى قطع ينثرونها فى الوادى كله، ثم تجمعه من جديد. موجهة بفكرة البعث، أخته إيزيس بحبها وبدموعها عبر سنوات المعاناة الطويلة، فهى أول حديث عن رموز العلاقة اللانهائية بين الانسان، والطبيعة والآلهة..

والثانية: «كتاب الموتى»، ثم صراع الفراعنة التاريخى ضد الموت بفكرة إقامة مبان تدوم إذا فنى الانسان، وتسجل طابعه وعمله دهورا بعده، كالأهرامات وقبور وادى الملوك وهى فكرة جوهرية فى حضارة الغرب.

والثالثة: إخناتون الفرعون الذى مات فى الثلاثين من عمره بعد أن اكتشف أول فكرة انقلابية فى التاريخ وهى عقيدة التوحيد، بعد تعدد الآلهة التى نجدها بعد ذلك فى فلسفة الاغريق وفى التوراة.

ويضيف جارودى فضلا ثالثا إلى إخناتون، فيقول: إنه أول من رفع المرأة، فبدت فى تماثيله جالسة على حجره، وقد نقش على الجرانيت أول قصائد حب.

«هكذا نجد جذور الغرب وقد تشكلت فى مصر وبلاد ما بين النهرين: صراع الانسان ضد الطبيعة للسيطرة عليها، ونضاله لكى ينفرد من بين كل المخلوقات بصفاته، وبقدرته على التفكير المجرد.. وكل محاولة لقطع جذور الغرب عن جذوره الشرقية لا تؤدى إلا إلى افقار الانسان».

أما ما تسميه كل المراجع «عصر النهضة» فى أوروبا، فهو عصر نمو الرأسمالية وبدء الاستعمار. هو بداية صعود الغرب ولكنه كان بداية تدمير هذا الغرب نفسه لحضارات أخرى أرقى من حضارة الغرب.. سواء فى علاقة الانسان بالله، أو علاقة الانسان بالطبيعة، أو فى علاقة

الانسان بالمجتمع.. وهى العناصر التى تحدد رقى أى حضارة...

وقد فعل الغرب ذلك عن طريق شيء أساسى وهو: تفوقه فى استخدام القوة العسكرية دون أى نوع آخر من القوى ذات العلاقة بالتقدم والرقى.

ويحلل جارودى حضارة الغرب الراهنة ـ السائدة ـ تحليلا فلسفيا طويلا، نحاول تبسيطه فى قوله أولا: إن تاريخ الانسان يتلخص فى ثلاث مراحل:

الأولى: مرحلة سيطرة الطبيعة على الانسان.. أى حين كان الانسان يصارع عن مركز ضعفه ضد قوى الطبيعة الأقوى منه.

الثانية: مرحلة سيطرة الانسان على الطبيعة.. وهى حين نجح الانسان فى التقدم بدرجة سمحت له باستئناس الطبيعة إلى أحد كبير بما أوتى من عقل وعلم وحضارة.

والثالثة: وهى التى نعيشها حاليا ويسميها «مرحلة محاولة سيطرة الانسان على نفسه» ذلك أن الانسان بما وصل إليه من تقدم وعلم وصناعة أطلق قوى تدميرية هائلة من عقالها باتت تشوه حياته وتدمر بيئته ومقوماته وتهدد وجوده ذاته، والنتيجة فى هذا الصراع الأخير مشكوك فيها!

والمرحلة الثالثة، مسئولة عنها حضارة الغرب، بتخليها عن القيم المشتركة مع الحضارات الأخرى والمستلهمة منها.

وبأسلوب آخر.. ان حضارة الغرب قامت من ثلاثة منطلقات:

أولوية العمل كقيمة أساسية («والعمل» كما يقول تقليد بـورجوازى وقيمة اشتراكية).

وأولوية العقل بوصفه أداة حل كل المشاكل والرد على كل الأسئلة.

وأولوية القيمة التي سماها هيجل «باللامتناهي».

ولكن هذه القيم تحولت وشوهت بحيث ركزت كلها على الذكاء.. ولم تترك مجالا للحب، والشعور، والضمير..

والأولويات الثلاث صارت أثقالا، لا حوافز..

قيمة العمل تحولت إلى خضوع الانسان للاستهلاك.

قيمة العقل تحولت إلى خضوع الروح للذكاء.

وقيمة اللامتناهي تحولت من الكيف إلى الكم.

والسؤال الوحيد الذى يطرحه الآن الانسان على نفسه كل ساعة إزاء أى مشكلة أو موقف هو: «كيف»؟

ولم يعد أحد يسأل أبدا السؤال الأكثر أسـاسية وإنسـانية وهـو: «لماذا؟».

وفى فصل هام عن «الفرص الضائعة» يتحدث جارودى فى إسهاب عن ضياع فرص تأثر الغرب باطراد وتواصل الحضارات الأخرى. وقد يكفى هنا أن نضرب مثلا بحديثه عن حضارتنا العربية.. وعن تزوير الاستعمار الغربى للتاريخ بتصويره التوسع العربى، منذ القرن الثامن الميـلادى، على أنه موجة من موجات «البربرية الآسيوية» التى هددت الغرب!

هذا فى حين أن الغزاة الانجليز والفرنسيين والأسبان هـم الـذين

دخلوا أرض الاسلام مدمرين للحضارة العربية فى كل أشكالها..

«.. إن ما يسميه الغرب «بغزو أسبانيا» لم يكن غزوا عسكريا فقط كغزوات الأوروبيين، فأسبانيا كان فيها من السكان عشرة ملايين ولم يدخلها من الفرسان العرب أكثر من خمسين ألف فارس.. ولو كان الأمر حربيا فقط لما نجحوا. ولكن تفوق حضارة على أخرى كان هو عنصر النجاح الساحق».

«وما فعله العرب فى أسبانيا يجعلنا نفهم ما فعله ماوتسى تونج فى الصين»!! أتى بنظام اجتماعى أرقى. حرر العبيد وأنهى الرق وسوى الحقوق ودعم النظام. وعلى أنقاض الفوضى الاقطاعية أقام العرب أعظم مساقط المياه فى ذلك العصر وأغنى البساتين القائمة إلى الآن.

«وما رأيته فى تونس.. من آثار عربية قديمة تدل على سابق الازدهار.. ومن واقع - خلال الاحتلال الفرنسى - ينم عن الافقار والدمار.. يعطينا صورة ساطعة عن الفرق بين حكم الأغالبة فى شمال أفريقيا، وحكم الفرنسيين.

«الحضارة التى زرعها العرب عندنا فى أوروبا وبالقرب منا فى أفريقيا تمتد جذورها إلى الشرق فى آسيا. وحين سافر الفرنسى «جيربر» إلى معاهد الشرق وعاد حاملا علومه قال الناس فى أوروبا إنه قد اتصل بالجن لكثرة معارفه! وبعد قليل جعلوه بابا على روما باسم البابا سيلفيستر الثانى.

«ونحن مدينون للعرب بأول كليات الطب. وأولها كلية الطب فى مونبليه الفرنسية. وحتى القرن التاسع عشر كانوا يدرسون فى جامعات فرنسا وإنجلترا باسهاب علوم الطب العربية، ومؤلفات الرازى..

ولكن منذ انتصار شارل مارتل على العرب فى بواتييه تكونت لدى أوروبا عقدة اسمها «حماية الحضارة الغربية من البرابرة!»

إن كتب التعليم تلقن الأوروبيين منذ طفولتهم أن معركة بواتييه كانت نقطة تحول إذ طردت الهمج عن أوروبا المتحضرة. وهذا هو استعمار التاريخ بعينه. فالواقع هو العكس. فهزيمة العرب ضيعت على فرنسا وأوروبا فرصة الالتقاط المبكر لحضارة العرب.. وأخرت أوروبا عشرة قرون على الأقل.. حتى بدأت أوروبا ترى النور بعد القرون الوسطى!

● ● ●

ولست هنا فى مجال الاستشهاد بأقوال جارودى عن مآثر العرب، وقلب أوروبا لحقائق التاريخ، أو استعمار التاريخ، كما قال بحق، فالأمثلة كثيرة..

ولكن المهم أنه يستشهد بنفس الأسلوب بحضارات أخرى غير الاسلام، أهمها الصين. وعدم الاستفادة منها. إنها فكرة عداء الحضارات لا تكاملها..

المهم هو المشروع الذى نذر جارودى ما استقبل من حياته له وهو:

نزع استعمار التاريخ، وتصحيحه..

وإقامة حوار بين الحضارات كلها.

وبكلماته «كيف يمكن بناء تاريخ لا تحتكره حضارة واحدة؟»

إنه يرى فى هذا المشروع الخلاص الوحيد للبشرية من خطر الفناء

فهل نشاركه هذا المشروع؟

بعد كتابة هذا الحديث، أنهى جارودى رحلته الفكرية القلقة، باعتناق الاسلام، والحج إلى بيت الله الحرام، وتغيير اسمه إلى «رجاء جارودى».

نحن.. والآخرون

نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة!

■ نحن نعيش الآن الحرب الصليبية العاشرة!

استنتاج مؤسف، لا يتمكن من يقرأ التاريخ، ومن يدرس ويحلل الحاضر من منظور تاريخي، إلا أن يصل إليه...

وأبادر فأقول إن الكاتب إذا كان مضطرا إلى استخدام هذا التعبير الكريه، تعبير «الحروب الصليبية».. فلأن هذا هو الاسم التاريخي للحروب الصليبية الغابرة، ولأنه فعلا، وعندما بدأت قبل قرون من غرب أوروبا ضد العالم العربي والاسلامي، جاءت جيوش الغزو تحت راية الصليب، وبشعار استرداد الأراضي المقدسة من «المسلمين»، وتحت رعاية البابا فى روما، وحاكم ورئيس كنيسة الامبراطورية البيزنطية...

ولكن الصبغة الدينية لهذه الحروب، كانت تقل مع الزمن ويبرز من خلفها جوهرها الحقيقى، وهو بداية تحرك أوروبا إلى الاستعمار والاستغلال الاقتصادى، وتنافس ملوكها وأمرائها فى هذا المجال..

ولا نحتاج إلى الغوص وراء أدلة كثيرة قد تجرفنا عن جوهر هذا الحديث، ولكن يكفى أن نحتكم إلى مرجع غربى واحد، دقيق، يزن الكلمة والسطر، ولا يتهم بالتحيز للعرب والاسلام، بل العكس، وهو «الانسيكلوبيديا بريتانيكا»، أو دائرة المعارف البريطانية...

فهى فى مفتتح حديثها عن الحروب الصليبية تقول: إن السبب الأول هو اضطراب الأمن فى الأناضول (تركيا) مما كان يزعج قوافل الحجاج الأوروبيين الذاهبين إلى القدس، وكان الأناضول فى ذلك الوقت، القرن الحادى عشر، محل صراع بين الأتراك والبيزنطيين.

والسبب الثانى، والأساسى، الذى تشرحه الانسيكلوبيديا هو أن أوروبا بعد أن انتهت من حروبها مع القبائل الغازية ـ المجيار والفايكنجز وغيرهم، وبعد أن تمت مسيحيتها، انتعشت فيها التجارة، وزادت حركة المال، وكان لابد من مجال «لاطلاق القوة الزائدة فى غرب أوروبا من عقالها»، تعبير مهذب عن الاتجاه إلى الخارج، وراء المستعمرات.

الدليل الثانى ما نجده فى صفحات تاريخ الحروب الصليبية من صراع بين ملوك وأمراء أوروبا الغزاة، لا على القدس وكنيسة القيامة كما زعموا، لكن على اقتسام أجزاء واسعة من المشرق العربى الاسلامى، صراع تضاءلت إلى جانبه الرغبة فى تحرير القدس وغيرها من الأماكن المقدسة...

والدليل الثالث أنهم حين دخلوا القدس مثلا ذبحوا «المسلمين واليهود» كما تقول دائرة المعارف البريطانية أيضا. ونضيف إلى ذلك أنهم حرموا على اليهود سكنى القدس حتى حررها صلاح الدين الأيوبى بعد ما يقرب من مائة سنة. والأهم من ذلك قول دائرة المعارف البريطانية أن المسيحيين الأرثوذكس الشرقيين اشتركوا فى مقاومة الغزو الأوروبى البيزنطى المشترك، ورفضوا الخضوع لهذه الكنيسة أو تلك، وحين سقطت إمبراطورية بيزنطة كلها «قبل المسيحيون الشرقيون حكم المسلمين».

وتعترف دائرة المعارف البريطانية فى تحليلها لنتائج الحروب الصليبية كلها ـ الحملات الثمانى خلال خمسة قـرون ـ بـأن المشرق العـربى الاسلامى لم يكن يعرف التعصب ضد أى دين قط، قبـل أن تـداهمه أوروبا بهذه الحروب، وأن الحـروب الصـليبية، وتنـكيلها الـوحشى بالمسلمين واليهود وأحيانا بالمسيحيين العرب، هى التـى تسـببت فى حالات الاضطهاد الدينى بعد ذلك، كنوع من رد الفعل.

فأوروبا سعيا وراء مصالحها المادية، هى التى صـدرت إلـى بعض بلاد المشرق بعض صور التعصب الدينى، الذى كانت أوروبا تتوسل به كأسلوب لتبرير السيطرة والنفوذ.

وأيضا، وفى تحليل دائرة المعارف البريطانية لآثار كل هذه الحـروب الصليبية طوال قرون، تقول إن أوروبا أخذت عن العالم الاسلامى الكثير من العلوم والفنون والصناعات التى كانت تجهلها، وحملت إلى أوروبـا البضائع الشرقية والنظم الغربية عليهم على السواء. وازدهرت التجـارة والملاحة عبر البحر الأبيض، ثم يقول نفس المصدر إن أوروبا لم تقدم للشرق العربى الاسلامى أى شىء له قيمة حضـارية، لأن أوروبـا ذلك العصر لم يكن لديها ما تقدمه ! وان كثيرين من الأمراء الـذين جـاءوا معتقدين أن المسلمين برابرة متخلفون، دهشوا حين وجدوا أن لـديهم كل هذه المظاهر للحضارة والتقدم والنظم التى لا تعرفها أوروبا !

المهم نعود إلى ما أسلفت ذكره من أن اهتمام أوروبـا بـالاحتفاظ بالقدس ـ وهو حجة الحروب الصليبية كلها ـ تضاءل إزاء اهتمـامها باستعمار المشرق، بدليل أن كثيـرا مـن الحمـلات ـ أو معـظمها ـ استهدف إقامة ما يسمى «دولا لاتينيـة» فى المشرق، فـاهتموا بغـزو أنطاكية، وحلب، والموصل فى العراق، ودمشق، بل وحين وجدوا أن مصر

تلعب دورا فى مساندة المشرق، شنت بعض الحملات الصليبية، بقصد الاستيلاء على الدلتا والوصول إلى القاهرة.

وفى إحدى الحملات تحالفوا مع المغول ـ الوثنيين ـ ليحصروا المنطقة العربية الاسلامية من الشرق والغرب. واهتم المغول بعد ذلك ـ لأسباب خاصة بهم ـ بالاندفاع من أجل اكتساح العالم العربى الاسلامى، فدمروا بغداد، ودخلوا دمشق، حتى تجمعت كلمة العرب المسلمين وهزموهم فى الموقعة التى غيرت وجه التاريخ.. «عين جالوت»، بالقرب من مدينة الناصرة الفلسطينية الآن. وكان قائد المغول فى تلك المعركة قائدا أوروبيا مسيحيا بعثه الأوروبيون إلى المغول ليحسن قيادتهم!

كانت أوروبا فى ذلك الوقت تقلل من حروبها الدينية الداخلية، وخلافاتها، وتزداد قوة، وتتجه إلى الخارج...

وكان العالم العربى الاسلامى على العكس، قد وصل إلى قمة الحضارة، ولكنه بدأ مرحلة التفكك والخلافات الاقليمية والصراعات...

ولهذا فكرت أوروبا فى هدفها الذى لم يتغير من وقتها: غزو الشرق. أو فى القليل إقامة دويلات أوروبية فيه، منها تتحكم فى بقية تلك المنطقة الاستراتيجية، الغنية، القريبة منها..

فى سنة ١٠٨٥، انهار الوضع الاسلامى فى الأندلس، إذ سقطت طليطلة...

وفى سنة ١٠٨٧، احتل أهل «جنوا» الايطالية مدينة «المهدية» فى تونس...

وفى سنة ١٠٩١، طرد الأوروبيون المسلمين العرب من جزيرة صقلية...

«مد» أوروبى متصل.. و«جزر» عربى إسلامى.. وتأمل التسلسل التاريخى الذى أسلفت ذكره...

وقد كان طبيعيا، بعد ذلك أن تبدأ أول «حملة صليبية» لغزو قلب الشرق كله، سنة ١٠٩٥ ميلادية!

لقد استقر فى كتب التاريخ كلها، أن الحروب أو الحملات الصليبية فى التاريخ، عددها ثمانية...

وليس هذا مجال التأريخ لهذه الحروب الطويلة المعقدة المتشابكة، ولكن ربما لم يكن هناك مفر من سرد الحروب الثمانية، سردا يوحى لنا بالعبرة فقط، ولكى نصل إلى الاضافات التى توضح كيف أننا نعيش الحرب العاشرة.

وسوف نلمح من هذا السرد كيف أن الأغراض الدنيوية كانت فيها أقوى من الأغراض الدينية، كما سوف نلمح أن هزائم العرب كانت مرهونة بخلافاتهم، وأن انتصاراتهم كانت تتوقف على تضامنهم.

لقد بدأت فكرة أول حرب صليبية من التقاء رغبتين: رغبة «الكسيوس الأول» حاكم بيزنطة فى الاستعانة بجيوش غرب أوروبا ضد غزو الأتراك السلاجقة للأناضول وانتزاعهم أجزاء من بيزنطة.. ورغبة البابا أوربان الثانى فى روما، فى إعادة توحيد الكنيسة البيزنطية والكنيسة الرومانية تحت رئاسته. فوجد أن إرسال جيوش أوروبا تحت شعار تحرير الأراضى المقدسة، سيكون وسيلة سهلة لعبور جيوش أوروبا الكاثوليكية إلى بيزنطة وما بعدها، وبالتالى ضم الكنيستين مع الوقت بعد أن يتم

«إنقاذ بيزنطة». فأوعز إلى ملوك وأمراء غرب أوروبا بتجييش الجيوش والاتجاه شرقا لهذا السبب...

١ ــ وتحركت أول حملة صليبية، بكل الحماسة الدينية لدى الأهالى والجنود، وكانت بقيادة «بوهيموند» أحد ملوك فرنسا.. ولكن ما إن وصل «بوهيموند» إلى «أنطاكية» ــ وهى ليست أرضا مقدسة ــ حتى أقام ما سماه «أول دولة لاتينية» فى الشرق. وغضب بابا روما. لأن هذا سيثير مخاوف بيزنطة قبل الأوان، ولكن بوهيموند لم يلق بالا إلى هذا الغضب، فالمهم هو وضع «مسمار» غربى فى المنطقة. وقد سقطت انطاكية فى يوم ٥ يونيو أخر سنة ١٠٩٨!!

وكانت المنطقة العربية الاسلامية تحكمها النزاعات بين الولايات والحكام. وقد تمزقت وحدة الدولة. وصار وجود الخليفة العباسى فى بغداد شكليا..

وكان ثمة صراع ــ وقتال ــ بين المسلمين السنة فى الشام والمسلمين الشيعة ــ الفاطميون ــ فى مصر. وكان الفاطميون قد انتزعوا القدس لمدة سنة، ووصلت جيوش الحملة الصليبية إلى أسوار القدس والأمور على هذا النحو، وفى ١٥ يوليو ١٠٩٩ اقتحموا القدس، وقاموا بأكبر مذبحة رهيبة ضد المسلمين واليهود وبعض المسيحيين الشرقيين. ومرة أخرى أقاموا حول القدس ــ مثل أنطاكية ــ دولة لاتينية، ورفضوا أن يسلموها للكنيسة أو للحكومة الدينية، بل طبق الأمراء الغزاة فيها نفس نظام الاقطاع الذى كان يسود أوروبا.

وبنفس المنطق، وإزاء تفكك المسلمين العرب، وتعاظم مطامع الملوك والأمراء والتجار الأوروبيين، أسفرت الحرب الصليبية الأولى عن إقامة

عدة دويلات لاتينية عواصمها أنطاكية ـ القدس ـ طرابلس.. شملت الشواطئ السورية واللبنانية والفلسطينية.

كانت إقامة هذه الدويلات ـ بمثابة إقامة أوروبا والغرب لدولة إسرائيل سنة ١٩٤٨ : فأوروبا المسيحية هى التى أقامت إسرائيل اليهودية. ولكن الدين ليس هو القضية، إنما كانت القضية كما تعرف الآن سياسة استراتيجية اقتصادية: موقع متقدم للغرب، فى قلب عالمنا، يتحكمون من خلاله فى شئون المنطقة ذات الأهمية الفريدة فى العالم.

٢ ـ ولكن العرب المسلمين، بعد أن استكانوا زمنا، ظهرت فيهم روح المقاومة من جديد، وبدأ نشاط عماد الدين زنكى وولده نور الدين من مملكة حلب يهدد ممالك اللاتين من الشرق، واستولوا على بعض أطرافها، فجاءت الحملة الصليبية الثانية بعد ما يقرب من سبعين سنة.. أرادت أن تحصن ممالكها بالاستيلاء على حلب ففشلت، وحاصرت دمشق حصارا طويلا، فلم تقدر على اقتحامها، ولكن ملك القدس انتهز الفرصة فهجم فى اتجاه مصر، واستولى على عسقلان وتوسع حتى آخر ما عرف بعد ذلك بفلسطين.

وقد ألهب هذا شعور المسلمين. وساد الاقتناع بأنه بدون تحالف نور الدين والسنة فى حلب ودمشق من جهة، والفاطميين فى مصر من جهة أخرى، فإنه لا يمكن التخلص من هذه الدويلات الدخيلة.

وكانت عبقرية نور الدين أنه بدأ التقريب بين العراق وسوريا ومصر، وأنه جعل أسد الدين شيركوه السنى ليكون وزيرا للحاكم الفاطمى فى مصر. فلما مات أسد الدين شيركوه، خلفه ابن أخيه صلاح الدين الأيوبى. واستمر صلاح الدين بعد موت نور الدين ما يقرب من تسعة

عشر عاما يؤكد هذه الوحدة، ويستعد للحرب التى لا مفر منها...

كان دهاء صلاح الدين السياسى لا يقل عن عظمته العسكرية التى اشتهر بها. فقد وحد الممالك الاسلامية قدر الامكان. وقلب على الأوروبيين لعبة الايقاع بين أعدائهم فبعد أن كانوا يستعينون بتفريق صفوف المسلمين والتحالف مع بعضهم ضد الآخر، لعب صلاح الدين نفس اللعبة ضدهم، وأوقع بينهم سياسيا، مدركا بذلك لحقائق المصالح التى تحركهم. فأوقع بين بيزنطة وروما. واستمال تجار الدول الايطالية بالتجارة المربحة مع مصر.

وفى ٢ أكتوبر ١١٨٧، سقطت القدس فى يد صلاح الدين الأيوبى، ثم أسرع يكتسح معظم الدويلات اللاتينية. وكما تقول الكتب الغربية «هرب اللاتين الأغنياء وبقى الفقراء. أما اليهود والمسيحيون الأرثوذكس فقد عوملوا معاملة حسنة، وقبلوا بترحاب حكم المسلمين».

٣ ـ وأثارت هذه الأحداث أوروبا واستغلت دعائيا لبدء ثالثة الحروب الصليبية، وأشدها، إذ جاءت جيوشهم سنة ١١٨٩، يقودها ريتشارد قلب الأسد، أشهر قادة الحروب الصليبية، لطول ما دار من سجال حربى وسياسى بينه وبين صلاح الدين الأيوبى. حتى كادت تقترن الحروب الصليبية كلها باسم الرجلين، رغم أنها دامت ـ حربا وسلاما ـ عدة قرون.

جاء فى الواقع لأول مرة أهم ملوك أوروبا وأشهر محاربيها : ريتشارد قلب الأسد ملك إنجلترا، واوجستين ملك فرنسا، وفردريك برباروسه ملك ألمانيا. وقد نجحوا فى استرداد عكا وحيفا وقيصرية ويافا. ولكنهم هزموا هزيمة ساحقة عند أبواب القدس. فبقيت المدينة للمسلمين ولكن بقيت للأوروبيين سائر مملكة القدس.

لقد أسفرت الحرب الثالثة عن تقليص حجم الممالك اللاتينية، ولكنها أعطت هذه الممالك ما يقرب من مائة سنة أخرى من العمر قبل أن تنقرض وتجلو تماما.

٤ ـ ولأنها، كما ذكرنا لم تكن مجرد حروب دينية، ولأن الصفة الدينية لهذه الحروب بدأت تشحب لتزداد الأسباب «الاستعمارية» ـ بالقاموس الحديث ـ بروزا، فإننا نجد الحملات الصليبية التالية تتجه فى الشرق العربى الاسلامى وجهات أخرى.

وكانت مصر ـ بعد الدور الذى لعبه فيها صلاح الدين ـ قد صارت القوة الأساسية، وبالتالى اتجهت محاولات الغزو إليها.

فالحرب الصليبية الرابعة أشرف عليها الكسيوس حاكم بيزنطة لغزو مصر سنة ١٢٠٤ بحجة إخضاع الأرثوذكس فى مصر للبابا. ولكن الحرب كانت ممولة من مراكز المال والتجارة الكبرى فى ثغور إيطاليا وإنجلترا وفرنسا.

٥ ـ وفى سنة ١٢١٨ شنت الحملة الصليبية على مصر أيضا، لحصار دمياط، بحجة الاستيلاء عليها، ثم المساومة عليها بتركها فى مقابل استرداد القدس، ودام حصار الصليبيين لدمياط سبعة عشر شهرا. ثم توغلوا محاربين فى الدلتا عشرين شهرا أخرى، ثم انهزموا وانسحبوا من دمياط فى ١٢٢١، وعادت فلولهم إلى عكا.

٦ ـ وبعد سنوات قليلة، انتهزوا فرصة شدة الخلافات بين ورثة صلاح الدين الأيوبى، والصراع بين الكامل فى مصر وابن عمه الناصر فى دمشق، فاستولى فردريك الثانى على القدس دون قتال، وظلت فى أيديهم

حتى استردها جيش مصرى فى فبراير ١٢٢٩. وبقيت فى يد المسلمين العرب منذ ذلك الوقت.

٧ ـ ولم تخمد شهية أوروبا النامية للاستيلاء على هذا الشرق الغنى. فقاد لويس التاسع الحملة السابعة على مصر، واحتل دمياط فى ديسمبر ١٢٤٤، واندفع محاربا بقصد الوصول إلى القاهرة، ولكنه سقط أسيرا فى أيدى جيوش مصر، وسجن فى المنصورة فى أبريل ١٢٥٠، وبقى فى السجن حتى اشترى حريته وحرية قادته بمال كثير، وانسحب من مصر.

انسحب عائدا إلى إحدى ممالك اللاتين فى فلسطين. وبقى أربع سنوات يحاول الايقاع بين المسلمين العرب ليسترد القدس. وتحالف مع هولاكو حين بدأ خطر الزحف المغولى الرهيب يلقى بظله على المنطقة.

ووصل المغول إلى بغداد ودمروها سنة ١٢٥٨، ثم اكتسحوا مملكة حلب، ثم مملكة دمشق. حتى تقدمت جيوش مصر ومعها جيوش سائر العرب المسلمين ودارت معركة عين جالوت التاريخية، فى سبتمبر ١٢٦٠، وانتهى بهذه المعركة خطر المغول بأكمله. وزاد ضعف الممالك اللاتينية، فتقدمت جيوشنا المنتصرة فحررت حيفا وصفد وأنطاكية وغيرها.

٨ ـ فلما تحركت الحملة الصليبية الثامنة والأخيرة من فرنسا، كانت قليلة الثقة، فاترة القوى، فبعد أن أبحرت متجهة إلى الشرق، عادت فاتجهت لاحتلال منطقة أقرب.. وهى تونس!

وفى الشرق مضى السلطان قلاوون يحرر ما بقى للصليبيين من ممالك أو ثغور.. صور وبيروت وطرطوس وصيدا.

وانتهت تلك الصفحة التى دامت قرونا، وسميت باسم الحروب

الصليبية، وقد انقرضت ممالك اللاتين المصطنعة، وعادت البلاد إلى أصحابها. وإن ظلت مرارة تلك المرحلة فى نفوسهم قرونا.. يؤلفون فيها ويعودون إليها، ويدرسونها فى مدارسهم، من وجهة نظرهم طبعا.

● ● ●

ولكن هل انتهت القضية، عند هذا التاريخ؟

.. كلا، فإننا نعيش صورة جديدة منها فى الحاضر.

ومن حقنا أن نضيف إلى الحروب الثمانية المسجلة فى كتب التاريخ، حربين أخريين، ربما تحت نفس العنوان.

فى فترة ما، ظهرت الامبراطورية العثمانية، التى كانت آخر إمبراطورية ضمت تقريبا كل بلاد المسلمين. وكانت الامبراطورية العثمانية بالذات غير ما سبقها من إمبراطوريات إسلامية، فقد قامت على الفتح والقهر، وكانت تنظر إلى البلاد الاسلامية نفسها نظرتها إلى «المستعمرات». كانت فى الداخل إمبراطورية مستبدة ظالمة مظلمة، لم تساهم فى الحضارة الاسلامية بشىء، ولكنها كانت ذات بأس عسكرى منظم قوى، فبعد أن فرغت أوروبا من إخراج مملكة الاسلام المتحضرة المزدهرة من أسبانيا غربا، إذا بها تواجه، وبعد هذه الحروب الصليبية كلها، خطر الغزو الاسلامى أو التركى من الشرق، بعبور الأتراك من آسيا إلى أوروبا واحتلال البلقان بأكمله، والوصول إلى حدود إمبراطوريات روسيا والنمسا وغيرها.

ومر وقت طويل، والامبراطورية العثمانية تشيخ، والعالم الاسلامى العربى يتدهور ويتحلل وتسدل عليه ستائر الظلم والاظلام. هذا بينما بدأت أوروبا عصر النهضة، وقضت على الاقطاع، ويبدأ عصر الخروج إلى

مستعمرات أخرى بعيدة، وعصر الصناعة فى أعقابه يغذيه ويقويه..

صارت أوروبا أقوى قوة فى العالم، هى سيدة المال. وسيدة التجارة، وسيدة الصناعة. وسيدة البحار.

ولقد وصلت قوتها وحضارتها إلى الهند واستراليا شرقا وإلى أقصى أطراف أمريكا وأمريكا الجنوبية غربا وجنوبا.

ولكن الجوهرة الثمينة، الشرق العربى، لم تفارق خيالها. وحفر قناة السويس زاد من أهميتها. ومن هنا يمكن القول أن «الحرب الصليبية» التاسعة بدأت منذ انحلال الامبراطورية التركية إذ بدأت إنجلترا وفرنسا وروسيا تدعى كل منها حقا فى حماية أقلية من أقليات العالم العربى، انتحالا لأسباب التسلل والتدخل، ثم صراع إنجلترا وفرنسا على مصر، وفوز إنجلترا بمصر وبقناة السويس باحتلالها مصر، الأمر الذى لم تقو عليه الحملات الصليبية كلها.. ثم الحرب العالمية الأولى، وخداع الانجليز للثورة العربية، واتفاقية سايكس - بيكو التى قسموا بها العالم العربى سرا بينهم، ووعد بلفور لليهود بوطن قومى فى فلسطين..

هذه السلسلة من الأحداث القريبة، والتى استغرقت فى مجموعها ما يقرب من قرن من الزمان، وتوجت بدخول لورد اللنبى القدس، ودخول الجنرال غورو دمشق، تكون فى مجموعها ما يمكن أن نسميه - استنادا إلى التاريخ الذى سردناه - الحرب الصليبية التاسعة. وهى أول حرب تحقق أغراضها كاملة منذ اندحرت آخر ممالك الصليبيين فى الشرق قبل ذلك بحوالى ستة قرون..

طبعا، كثير من الظروف تغيرت، والأفكار الدينية لم تعد هى الحافز فى أوروبا، بل صارت المصالح الاقتصادية والسياسية هى الأساس

الساقر لكل شيء. ولكن عندما دخل الجنرال غورو، قائد الحملة الفرنسية فى الحرب العالمية الأولى، دمشق، ووقف أمام قبر صلاح الدين الأيوبى، لم ينس أن يقول كلمته الشهيرة: «ها قد عدنا.. يا صلاح الدين!»..

فالجنرال غورو، حين نطق لسانه بهذه الكلمة وهو يقف أمام قبر صلاح الدين، كان يعرف طبعا أنه جاء غازيا لاستعمار الشرق، ولكن غلب عليه ما تعلمه فى المدرسة، وما وراءه من تراث، فخفق قلبه ونطق لسانه بما طاف بخاطره فى تلك اللحظة. وسواء قالها بالمعنى الدينى، أو بالمعنى العسكرى، أو بالمعنى الحضارى، فلا شك أن العناصر الثلاثة كانت متداخلة وهو يقول هذه الكلمة، وإن تغلب فيها عنصر على آخر.

دام هذا النظام الذى أسفرت عنه الحرب التى أسميناها بالحرب التاسعة، دام هذا النظام من سنة ١٩١٩ إلى سنة ١٩٤٨..

كانت هناك حركات وانتقاضات. وشبت ثورات شتى فى هذا القطر العربى أو ذاك. ولكن كل هذه التحديات والثورات والانتقاضات لم تغير كثيرا من وضع المستعمرين الانجليز والفرنسيين وفى خضوع السلطات المحلية لحكمهم.

● ● ●

على أن الحرب العالمية الثانية غيرت الظروف الدولية تغييرا عميقا.

لقد ظهر الاتحاد السوفييتى والمعسكر الشرقى ممتدا إلى منتصف أوروبا بالضبط، ومهددا ما عرف باسم «الحضارة الغربية المسيحية» أو المعسكر الغربى، الذى انضمت إليه وتولت زعامته الولايات المتحدة..

وشبت حركات التحرر فى العالم، وقامت الثورات، وشعرت أوروبا

بالنسبة للشرق أن وجودها فيه مهدد بالزوال، وأن المسألة مسألة وقت..

وكان هذا الشعور قديما، منذ احتلوا الشرق سنة ١٩١٩. ففى وثائق مؤتمر فرساى بعد الحرب العالمية الأولى مذكرة ينصح الانجليز فيها أمريكا بالموافقة على فكرة إقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين، لأن وجود مثل هذا الوطن (على نمط الممالك اللاتينية القديمة) له صفة قابلة للدوام، وسوف يكون خير وسيلة لحماية قناة السويس لحساب الغرب.

فهى نفس فكرة إقامة دولة فى قلب الشرق تحرس مصالحهم ويمسكون منها بخناق العالم العربى.

نفس ما ترجمه وزير الطيران الأمريكى السابق سيمنجتون حين وصف إسرائيل بأنها بمثابة «حاملة طائرات غير قابلة للغرق».

لقد وجدوا فى ظهور الدعوة الصهيونية وسيلة مواتية، لأنهم صاروا فى عصر لم يعد ممكنا أن يقنعوا فيه شعوبهم بحمل الصليب والذهاب تحت اسم الحروب المقدسة. والقدس مفتوحة للحجاج إليها من كل مكان. والحروب الدينية لم تعد مقبولة. ولكن ها هو مجتمع أفرزته أوروبا، وإن كانت قد اضطهدته أوروبا. ولديه حافز قوى للرجوع إلى مملكة القدس القديمة. فالفرصة سانحة لاقامة قاعدة غربية فى قلب الشرق.

لقد ذبحوا اليهود فى القدس ومنعوهم من الاقامة فيها قبل قرون. وقد اضطهدوا اليهود فى بلادهم الأوروبية بشتى أنواع الاضطهاد، ولكنهم الآن صاروا يرون فى إقامة دولة يهودية دينية، هدفا أساسيا وساميا !!

وقد تزايدت أهمية المنطقة بسوقها التجارية الضخمة، وبموقعها الاستراتيجى الخطير، خصوصا بعد ظهور الاتحاد السوفيتى فى الشرق،

وفوق كل هذا طبعا، البترول، الذى لو انتقل من يد إلى يد ـ كما قــال كيسنجر صراحة ـ لانقلبت كل موازين القوة فى العالم.

وربما كان من أكبر الأخطاء، التى وقع فيها العقل العربى العام، بعد نكبة ١٩٤٨، أنهم كانوا يفكرون دائما فى الصراع العربى الاسرائيلــى، بمنطق قصير الأجل. فى حين أننا لو كنا تأملنا الأمر فى إطاره التاريخى الطويل، ومن منظور الأهداف السياسية والاقتصادية لشــتى القــوى فى عالم اليوم.. لأدركنا أن احدى تلك المواجهات الحضارية الطويلة التــى تأخذ أشكالا شتى من الحرب ومن السلم ومــن النضــال العســكرى والسياسى ومن السباق فى ساحة التقدم والتفوق، ومــن نجــاح فى ضــم شتات الأمة العربية تحت حد أدنى من التكافل والتكامل والتنسيق..

وإننى لا أسمح لنفسى بأن أقول إننى حين كتبت قبل حرب ١٩٦٧ ـ حوالى سنة ١٩٦٥ تقريبا ـ أنه لا يوجد حل سحرى للصراع ولا معركة واحدة تنهى المشكلة، لأن الصراع ليس مع إسرائيل وحــدها، ولــكنه صراع حضارى طويل ستتخلله أحداث طويلة ومريرة، وامتحانات ســوف ننجح أو نرسب فيها.. هاجم الكثيرون قولى هذا، ولكن يخيــل لــى أن الاقتناع بأن المواجهة الحضارية طويلة، وأن العالم العربى «مستهدف» ـ بفتح الدال ـ من قوى عالمية كثيرة، ولأسباب معقدة، أقول إن هــذا الاقتناع فيما أظن بدأ يتسع.

ولعل هذا الكلام يصدم الكثيرين..

ولكن الدواء «المنبه» فى هذه الأمور، خير من الدواء «المنوم» على أى حال!

الحركات الاسلامية والغرب

من أكبر المآسى التى عرفناها منذ الحرب العالمية الثانية، أن الولايات المتحدة القوية ذات الامكانيات الهائلة، كانت دائما تفهم العوامل الاجتماعية والسياسية المؤثرة فى العالم الثالث، متأخرا.. أحيانا بعد فوات الأوان، ودائما بعد ضياع وقت ثمين جدا وإهدار جيل أو جيلين على الأقل من الصراع العقيم.

وطبعا يأتى بعد ذلك من يسأل فى أمريكا: من المسئول عن ضياع الصين؟ من المسئول عن ضياع إيران؟.. الخ.

ورد هذا على خاطرى منذ فترة، وإن كان المثل خارج الموضوع، عندما فوجئ العالم فى انتخابات زيمبابوى روديسيا، بفوز روبرت موجابى فوزا ساحقا، وفجأة انقلب موجابى فى الصحف البريطانية من «الشيطان» إلى «رجل الاستقرار»، حتى ايان سميث رحب بفوزه.

تذكرت أننى عرفت موجابى سنة ١٩٥٧ أو سنة ١٩٦٠ فى غانا، عندما عقد أول مؤتمر للأحزاب الأفريقية فى أول دولة تستقل فى أفريقيا السوداء. كان هناك موجابى. ونكومو، ونكروما، ولومومبا، وكان جومو كينياتا مسجونا فحل محله توم بويا.

لم يكونوا شيوعيين. ولا ماركسيين. بل وليست لهم أى صلة بالعالم أو ببعضهم البعض. كانوا وطنيين يريدون زوال الاستعمار فى تعاون مفيد مع الدولة المستعمرة، ولم يكونوا قد حملوا السلاح بعد. باستثناء جومو كينياتا، الذى كان مسجونا كما قلت، وكانت الصحف الغربية

تصور حركة المقاومة المسماة «ماوماو» فى كينيا علـى أنهـا حـركة متوحشين. وقد رأينا كينياتا بعد ذلك غاية فى الاعتـدال، وكان هنـاك الشاويش الذى يحارب مع الانجليز ضد ماوماو، ويكافأ بـالترقية بعـد الترقية على عنفه ضد الثوار، اسمه عيدى أمين.

هل لم يفهم الغرب حقا العوامل السياسية فى أفريقيا مثـلا.. فـطال العذاب عشرين عاما؟ أم أن القوى المسيطرة فى الغرب كانت ببسـاطة لا تحب أن تفهم، وتتصور أنها قادرة على البقاء بـالقوة أطـول فتـرة ممكنة؟

وأحيانا يحدث العكس!

فنرى الباحثين الأكاديميين فى الغرب، يركزون على تفاصيل صـغيرة جدا، ربما تثبت تعمقهم فى البحث ولكنها لا تثبت قدرتهم على الحـكم الصحيح، إذ ينسون فى خلال هذا البحث الميكروسكوبى العوامل الكبرى الأساسية فى منطقة ما.

وهذا النوع من التصور، يجعل الـرأى العـام الغـربى يعتقـد أن ما يجرى فى بلد ما سببه أن أهل هذا البلد أناس مختلفون عـن البشر، وأن ما يحدث عندهم لا يقاس عليه. وأنهم شواذ.

وآخر مثل على ذلك، ما حدث فى إيران، كانت ثورة إيران مفاجأة تامة فى عنفها، وجماهيريتها، ونوع قيـاداتها، وكان أول رد فعـل تحليلـى ما رأيناه من عكوف الباحثين على تحليل المذهب الشيعى الذى يدين به أغلبية الايرانيين. وأنواع الشيعة. ومذاهب الشيعة.

هنا أيضا يمكن أن نقول إنه لا شك أن العـوامل الاجتمـاعية لهـا صفاتها الخاصة فى كل قطر. أو فى كل كتلـة حضـارية مثـل العـالم

الاسلامى، أو أفريقيا السوداء، أو جنوب شرق آسيا.

ولكن ما أعترض عليه هنا، هو: الاسراف فى تجسيم هذه «الخصوصية»، لأن الاسراف والانحصار فيها خطأ مثل خطأ تجاهلها تماما.

إذن، فلكى يأتى حديثنا هذا متوازنا يجب أن نتعرض لأمرين:

الأول ـ العوامل الديناميكية التى يشترك فيها العالم العربى، والاسلامى، ومنطقة الخليج، مع ثلثى العالم كله تقريبا. وهى فى إيجاز قضية الفقر والتخلف.

والثانى ـ العوامل الخاصة بالمنطقة العربية الاسلامية.

هذا العنصر الأول المشترك جوهرى جدا وهام. لأنه العنصر المشترك فيما يسمى العالم الثالث كله. وأحيانا ما تكون الفروق بين المناطق مجرد خلاف فى طريقة التعبير المناسبة لكل بيئة.

وكلنا على علم بقضية العالم الثالث. ارتفاع نسبة الأمية. انخفاض مستوى الصحة العامة. بدائية وسائل الانتاج. اعتماد الاقتصاد على الخامات أساسا. قرب عهدها بالاستقلال والمسئولية عن نفسها. وبالتالى عدم قيام مؤسسات دستورية ثابتة تحقق لها درجة من الاستقرار. انعدام وجود طبقة وسطى كبيرة تكون هى أساس الاستقرار الاجتماعى، واتساع الفجوة بين نخبة قليلة العدد وقاعدة فقيرة وغير متعلمة.

تلك بإيجاز هى ملامح العالم الثالث كله، مع فروق طفيفة. وهى بالتالى ملامح كل بلاد العالم الاسلامى أو أغلبيتها الساحقة.

ولابد أن نضيف إلى ملامح العالم الثالث التى سبق ذكرها عنصرا

آخر، هو ما أدت إليه سهولة وسرعة وسائل الانتقال والاتصال والاعـلام من قيام ما سماه مارشال ماكلوهان «القرية العالمية»، أو ما أدى إليـه هذا التقدم من حقيقة سماها يوجين بلاك بحق ثورة الآمال الكبيرة، فى كتابه الذى يحمل هذا الاسم والذى يعتبر فيه أن هذه الثورة هى أخطر الثورات، وهو حقيقة كبرى بالفعل. فالفرد فى أفقر قـرية الآن يـرى فى السينما وعلى شاشات التليفزيون أنواعا من الحياة البـاهرة، وعـالما مسحورا لم يكن يعرف بوجوده من قبل، ومتعا متاحة لملايين غيره مـن البشر. وقد لا يصل طموح هذا الفلاح إلى أن تكون له مثل هذه الحياة. ولكنه بالتأكيد يشعر شعورا عارما أن من حقه أن ينال نصـيبا منهـا، حتى ولو طرفا صغيرا من ذيلها. والشباب بالذات يرفضون ظروفهم التى تبدو لهم غير مؤدية على الاطلاق إلى نيل أيسر قسط من هذا.

بل ان مجرد الانتماء المعنوى أمر هام. وفى الـريف المصرى تجـد الفلاح فى جيبه عادة علبتى سجائر. علبة سجائر مصرية ـ وهى سجائر جيدة ـ لاستعماله. وعلبة سجائر أمريكية باهظة الثمن، يقدم منها لأى زائر «أفندى» من القاهرة، وهو يعطيك السيجارة الأمريكية، ثم يخـرج علبة سجائره هو ويأخذ منها، ولكنه يشعر أنه أثبت وجود خيـط بينـه وبين ابن المدينة الزائر.

الفقر المدقع يحبس ملايين الناس مـن جهـة، وإعـلانات السـلع الاستهلاكية المثيرة تطارده من جهة أخرى. فيكون شـعوره بمـأساته أعمق وبالظلم الواقع عليه أفدح.

من احتكاك هذين العاملين تخرج شرارة الانفجار.

وهذا العنصر المشترك فى العالم الثالث، هو نفسه الموجود فى معظم العالم العربى والاسلامى.

وبالتالى فإن أهم عنصر استقرار هو فى إيجاد صيغة نظام إقتصادى جديد. وعلاقة جديدة بين ما يسمونه دول الشمال ودول الجنوب.

فإذا انتقلنا من العام إلى الخاص، ومن العالم الثالث بوجه عام إلى العالم الاسلامي بوجه خاص، فسوف نجد فى هذا العالم الاسلامى، بالاضافة إلى الظروف التى ذكرناها، ظروفا أخرى خاصة به، تجعل الموقف أصعب وأخطر. وربما أعنف.

إن منطقة الخليج، التى لا يمكن فصلها عن العالم العربى والاسلامي، إذا أردنا تحليل مصادر التوتر فيها.. فإن فيها بغير شك أسبابا أخرى للتوتر فوق الأسباب التى لدى العالم الثالث كله.

المنطقة تعتبر من العالم الثالث، بمواصفاته السابقة. ولكن الظروف شاءت أن تتفجر فيها ثروة هائلة فى قيمتها المادية والاستراتيجية معاء وهى البترول، حتى صارت صورة البترول فى العالم مقترنة بصورة العربى والمسلم.

ان هذا الواقع المفاجئ أضاف إلى توتر الفقر فى العالم الثالث توترا آخر، وهو تجاور الفقر والغنى.

كان طبيعيا أن يسبق المال نفسه، الآثار التى يمكن أن تترتب عليه.

فالمال فى صورة البذخ الشخصى، والسفر إلى الخارج، والشراء الفورى لما هو متاح من طائرات خاصة وسيارات وكل أنواع الرفاهية الموجودة فى العالم.. كان يصل أسرع من أشياء أخرى تستغرق وقتا أطول مثل شق الطرق، وإقامة البنية الأساسية، وبناء المساكن، والمدارس والمستشفيات وإرسال البعثات إلى الخارج. الأمر الذى خلق خلخلة عنيفة فى الهيكل الاجتماعى التقليدى للمجتمع.

بعض الدول أحسنت التصرف فى هذا الثراء الجديد بشكل أو بآخر، وكان هذا سهلا بحكم قلة عدد السكان فى هذه الأماكن الصحراوية النائية.. وبعض الدول لم يحالفها نفس التوفيق.

إن الاحصاءات الدولية تضع بعض دول البترول على رأس دول العالم من حيث متوسط دخل الفرد، ولكن هذا مضلل تماما. فالفقر فى بعض مناطق دول البترول ما زال أشد مما نراه فى بلاد فقيرة كمصر. فطهران عاصمة الشاه السابق، ليست طهران البذخ والثراء الذى كانت تنشره المجلات الغربية الفاخرة، ففى قلبها وضواحيها أماكن تقارن بأى عاصمة فقيرة فى العالم، فضلا عن سائر أطراف الدولة.

وكما أن ظهور الثروة بهذا الحجم الهائل خلق توترات فى داخل كل قطر بترولى على حدة، فإنه خلق توترات من نوع آخر، بين البلاد العربية على الأقل. تمتد الآن إلى مناطق أخرى من العالم الاسلامى.

فالعربى بوجه عام مهما كانت خلافاته يشعر بنوع من الانتماء والمشاركة فى المصير. وبالتالى فالعربى فى بلد غير بترولى، لا يشعر بشىء إزاء ظهور البترول فى بحر الشمال مثلا. ولكنه يشعر إزاء ظهوره فى بلد عربى مسلم آخر بشعور مختلف. يشعر بأن له نوعا من الحق عليه، لاعتباره فكرة وحدة الاسلام والعروبة، بالمعنى التاريخى والحضارى وإن لم يكن بالمعنى السياسى. خصوصا وأنه يرى حكامه وزعماءه لا يكفون دون استثناء عن المناداة بالوحدة العربية. وهو يرى صراعاتهم على أنها صراعات حكام وليست تصادم مصالح بين الشعوب.

فالبترول بعد أن يصل إلى صاحبه يجب أن يصل شىء منه إلى أبناء عمومته. وهو أمر يخلق توترات أخرى فى المنطقة. بمعنى أنه لا يمكن

الحديث عن فلسطين دون التفكير فى ردود فعل فى الخليــج. كمــا أنــه لا يمكن الحديث عن الخليج دون ردود فعل فى كل أنحاء العالم العربى والاسلامى.

الفارق الآخر القوى، بين عالم الاسلام وبين معــظم بــلاد العــالم الثالث. هو أن ضغوط العصر الحديث لم تأت هنا من فراغ حضــارى، ولكن فى مجتمع له تاريخ معقد طويل، فخور بــدينه وبتــراثه، رغــم كل المحن التى مر بها..

خصوصية عالم الاسلام

ان الانسان يمكن أن يتصور نظريا أن عملية التحــديث يمــكن أن تمضى بشكل أسرع ـ لو توافرت لها الظروف ـ فى مجتمع بدائى حقــا، ليس لديه أى تركة ضخمة من ماض أو دين أو تراث.

ولكن فى العالم الاسلامى والعربى يــدرك النــاس تمــام الادراك أن أرضهم كانت مهدا للديانات الثلاث العظيمة. فإذا أضــفنا إلــى هــذه الحقيقة مركزهم الجغرافى المتميز، والحضارات القديمة التى قــامت فى منطقتهم، وجدنا أن كل هذه العوامل مجتمعة جعلتهم محط الانظار على مدى التاريخ، إما كمصدر إشعاع للآخرين خــلال أيــامهم المجيــدة، وإما كهدف لأطماع الغير ابان قرون الانحطاط والتدهور.

وفى الوقت ذاته، نجد أن الاسلام، كديانة سائدة فى المنطقة، كان له دائما الأثر البالغ القوة على الشعوب عبر أربعة عشر قــرنا. فقــد أعلن الاسلام عن نفسه كوريث لكل الأديان السالفة، وآخــر هــذه الأديــان، ونبيه، خاتم الأنبياء والرسل، وكتاب المسلمين المقدس «القرآن» منــزل

من عند الله، وليس كتابات منقولة عن المسيح مثلا بعد قرن من وفاته. كل هذا أعطى المسلمين والعرب شعورا بأن الاسلام فريد فى نوعه.

ولأن الاسلام ـ عبر القرآن والرسول ـ لم يقف كسائر الأديان عند حدود شرح الفضائل والرذائل أو وصف العبادات بين الله والانسان، ولكنه جاء بنظام كامل للحياة، وكيان كامل للدولة.. متحدثا عن نظام الحكم إلى قضايا الزواج والطلاق، فقد جعل هذا مهمة دعاة التحديث عسيرة جدا. ومع ذلك فالتحديث ذاته مطلب للجميع، ومن هنا فإن أهم صراع فى العالم الاسلامى هو الصراع بين دعاة التحديث، والرافضين له بحجة أن مثل هذه الدعوة تعد خروجا على الدين أو أنها تشكل خطرا يهدد بفقدان الهوية. ومع أن المسلم يرى أن الكلام الوارد فى القرآن هو كلام الله مباشرة، وأن هذا القرآن وضع قواعد وأحكاما لكل شىء. إلا أن هذا لم يمنع من أن يختلف المسلمون اختلافات عنيفة بمجرد وفاة الرسول. وبعد خمس وعشرين سنة فقط من وفاة الرسول، دارت أول معركة حربية كبرى وقف فيها على، ابن عم الرسول وأقرب أصحابه، فى صف، وعائشة زوجة الرسول المفضلة فى صف آخر. ووضعت بذور أول وأكبر انشقاق فى الاسلام بين أهل الشيعة وأهل السنة. انشقاق قامت به دول وامبراطوريات وانهارت به دول وامبراطوريات، وتعددت المذاهب السياسية والفكرية والفلسفية تعددا هائلا، مع انتشار الاسلام خلال مائة سنة فقط من الهند والصين شرقا إلى الأندلس غربا.

وكانت آخر إمبراطورية، جمعت كل بلاد الاسلام تحت سلطتها هى الامبراطورية العثمانية، وقد كانت سنية متطرفة. وكانت امبراطورية بكل معانى الامبراطورية الاستعمارية فاضطهدت العرب اضطهادا شديدا.

واضطهدت الشيعة بالذات اضطهادا أشد.

هكذا دخل الاسلام القرن العشرين وبين أهله حسابات لم تصف بعد. ورغم أن أهميتها قلت كثيرا، إلا أنها تطل برأسها فى الوقت المناسب، حتى نجد دائما أناسا يحاربون معارك انتهت منذ ألف وأربعمائة سنة.

على أن القرون المتعاقبة، باعدت بين حقائق الحكم والسلطة والفكر وبين حقائق الاسلام، خصوصا فترة الظلام العثمانى التى دامت أكثر من ثلاثة قرون.

وعندما بدأت النهضة الأوروبية تواجه العالم الاسلامى بحقائق جديدة من جهة، والظلام العثمانى يقيده فى الاغلال من جهة أخرى، كان لابد أن ينشأ نوعان من رد الفعل.

رد فعل ينادى بالتحديث إلى أقصى الحدود كوسيلة وحيدة للحاق بالعصر..

ورد فعل ينادى بالعودة إلى الأصول والأشكال الأولى للاسلام..

وليس الخمينى هو أول من نادى بالعودة للأصول فى تاريخ الاسلام الحديث.. ولعله لو لم تكن ثورته فى أغنى بلاد العالم بالبترول، لما حظيت بكل هذا الاهتمام.

فهناك المهدى الكبير فى السودان، الذى ربما هزم عسكريا ولكن قتاله أسفر عن إيجاد كيان السودان الحديث، وقد كان هدفه تحرير السودان ومصر من حكم الأتراك والانجليز معا.

وهناك المهدى السنوسى، الذى آثر ألا يحمل السيف ولكنه عن طريق

نظام الزوايا جمع العدد القليل من السكان فى هذه الصـحراء الليبيـة الشاسعة فى شعب واحد...

وهناك الحركة الوهابية التي نشأت في شبه الجزيرة العربية، وكانـت الأساس الفكرى لحركة الملك عبد العزيز آل سـعود فى ضـم أطـراف المملكة العربية السعودية وحكمها حكما مركزيا موحدا بعد تمزق طويل.

وقد اقترن هذا بكلام كثير فى صحف الغرب، صحيح فى جوهره، عن صحوة إسلامية فى كل مكان.

وهذا صحيح، والبعض يرجع هذا، كما حدث فى حالة إيران، إلى أن الشاه حاول التحديث أسرع مما يجب، وهو تبرير غير صحيح... ويكفى أن نقول بصدده نقطتين..

ان التحديث لم يكن سريعا. ولكن المشكلة أنه كان أولا مشوها. كان أخذا بقيم الغرب بل والسطحى منها، دون شعور بقيم المجتمع الأصيلة، واقترن بالظلم والفساد.

التحديث ليس تقليدا للآخرين

ومن أهم الأسباب الدفينة لعنف هذا التيار، ان الاسلام دخل القرن العشرين مهزوما ومخدوعا، وقليل الثقة بالغرب.

فقد بدأت يقظة الشرق مع اتجاه أوروبا للاستعمار. محمد على الكبير فى مصر هزم الخلافة العثمانية، فلما وصل إلـى أطـراف إسـطنبول، تحالفت عليه القوى الكبرى وقتذاك ـ إنجلترا وفرنسا والنمسا وروسـيا القيصرية، وهزمته. إذ كان يناسبها أكثـر دوام وضـع الامبـراطورية العثمانية المريض، أكثر من قوة شابة تنفخ فيها الروح.

وعندما قامت الثورة العربية منطلقة من الحجاز، شـجعها الانجليـز مقابل وعد لهم بالاستقلال ولكن كانت إنجلترا وفرنسا وفى نفس الـوقت توقعان معاهدة سرية لتقسيم العالم العربى بينهما.

وبعد الحرب العالمية الثانية أقيمت بالقوة دولة إسرائيل على اشـلاء شعب فلسطين الذى طرد من أرضه بكل الوسائل الوحشية.

وبذلك بلغ التحدى مداه، وبلغت الاهانة أقصى حدودها.

ومن هنا فالقول بأن سبب أحداث إيران هو سرعة التحديث، خـطأ، إنما السبب هو أن المسلم الايرانى رأى من التحديث جوانبه السوداء. رأى القهر، والظلم الاجتماعى، والحـكم الاسـتبدادى، ورأى التـطور السريع يتجه نحو تقليد أعمى للغرب، وتذهب خيراته إلى قلة قليلة بغير حق.

وقد أسمى أحد المؤلفين (الدكتور جلال أمين) هـذا الأسـلوب، فى إيران وغيرها، The Modernization of Poverty أى «تحديث الفقر».

ولعل الأصح أن نقول إن مشكلة التحديث فى العالم، هى أن البعض اعتبر التحديث هو التقليد الحرفى للغرب، إلا فى حرياته واحترام حقـوق الانسان فيه.

فالاتجاه إلى التصنيع بشكل غير مدروس والتمـركز فى المـدن دون وجود وجوه رزق كافية فيها، أدى إلى إهمال الزراعة والريف والصناعات الصغيرة.

الأصح أن نقول ان العالم الثالث عليه أن يجد أسلوبا منـاسبا لـه للتحديث لأن تقليد الغرب لا نتيجة له، إلا اللهث المستمر وراءه، والبقاء دائما فى المؤخرة.

فإذا أخذنا فى اعتبارنا، كل العوامل التى سبق ذكرها كمـؤثرات فى العالم العربى والاسلامى، فمعنى ذلك أنها تنطبق بالتالى على منـطقة الخليج. وإن كان هناك مجال لتسجيل بعض خصـوصيات الـوضع فى منطقة الخليج، وفى علاقة هذه المنطقة بالغرب أو بـالولايات المتحـدة بشكل خاص..

هنا نجد مصادر محددة واضحة للتوتر يمكن تركيزها كما يلى:

١ ـ اعتماد الغرب المطلق على بترول الخليج وتزايد مطالب الغـرب من هذا البترول، دون بذل أى جهد جدى من ناحية الغـرب فى تقليـل الاستهلاك، أو فى التنقيب فى أماكن أخرى أو فى البحث عن مصادر بديلة للطاقة.

هذا الاعتماد الساحق يجعل الغرب متـوترا إزاء منـطقة الخليـج باستمرار، وهذا التوتر والانزعاج الغربى يزعج أهل الخيلج أيضا، فهـم يخافون أن يقدم الغرب على حركة طائشة. ولا يسمعون منه إلا تبـرعا بالدفاع عنهم. وهم يكرهون أن يروا أنفسهم محاصرين بأساطيل القوى الكبرى والمنطقة مرشحة لأن تكون محل صراع دولى.

٢ ـ ظهور رأى عام شامل فى منطقة الخليج لا يـوافق علـى هـذه العلاقة غير الصحية بالغرب وهم يرون أنها علاقة غيـر صـحية مـن زاويتين:

ـ ضغط الغرب المستمر على المنطقة لتستخرج أكبـر كميـة مـن البترول تلبية لحاجات العالم الصناعى، لا تلبية لحاجات دول البتـرول. إنهم يعتقدون أن لديهم ثروة ناضبة ويفضلون الاحتفاظ بها أطول مدة فى باطن الأرض وألا ينتجوا إلا بقدر ما يحتاجون لمشروعاتهم. ولكن الغرب

يرغمهم إرغاما على استنزاف البترول تمديدا لـرفاهيته علـى حسـاب فقرهم الطويل.

ـ هذا الرأى العام نفسه لا يوافق على أساليب الغرب فى استرداد ما يدفعه ثمنا للبترول كما يحدث مثلا عن طريق صفقات سلاح هائلة يعلم الكل جيدا أنها لن تستعمل وأنها مجرد تصدير حـديد ميـت مقـابل البترول. أو مشاريع باهظة التكاليف قليلة الجدوى.

هذا الرأى المزدوج فى علاقة الغرب غير الصحية بالخليج، ستجدونه عند السعودى المتخرج فى جامعة جورج تاون أو عند البـدوى الـذى لم يترك «أبو ظبى» على السواء.

٣ ـ ان الغرب وخصوصا الولايات المتحدة الأمريكية، ليس مستعدا لدفع أى ثمن سياسى فى مقابل ما يرى أهل البترول العربى أنـه ظلـم اقتصادى. والثمن السياسى بات معـروفا واضـحا، وهـو القضـية الفلسطينية. والمطلوب هنا هو إعطاء الشعب الفلسطينى حـق تقـرير مصيره فوق أرضه، وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة المتوالية. فهو يـطلب الانصاف. ويطلب عدم الاعتراف بشرعية الغزو بالقوة.

٤ ـ إن الأبنية السياسية فى المنطقة ليست قوية متماسكة بعد، ففى داخل دولة الامارات المتحدة مثلا ست إمارات، كل إمارة لها علم وأمير وقبيلة. وفى الخليج كله لا مبرر لعدم إقامة كيانات أكبر، أو روابط أكبـر كتوحيد العملة أو خلق سوق خليجية مشتركة.

٥ ـ فى ظل هذه الظروف كلها لابد أن تظهر تيارات أكثر تطرفا يمينا ويسارا وحركات إسلامية أكثر تطرفا، استجابة لحلم غامض بـالتخلص من تركة القرون الحديثة وإقامة عالم عربى إسلامى قوى جديد. وهـو

تيار سيكون سلبيا إزاء روسيا ولكنه لن يكون إلا سلبيا إزاء الغرب. حيث يقترن الغرب فى ذهنه بجوانب الفساد والاستغلال فى التحديث وبالعلاقة الاقتصادية غير الصحية فى البترول وصــفقات الســلاح ووجــوه صرف المال، وبالظلم السياسى فى رضاء أمريكا بــاحتلال إسرائيــل لأراضــيه وتشجيعها عليه.

الأخلاق والسياسة..
ومعركة حقوق الانسان

● السياسة والأخلاق؟..

ألم يحسم هذا السؤال منذ أقدم العصور؟...

هل هناك من نازع ــ أو ينازع ــ فى أن الأخلاق فى السياسة، هــى «المصلحة»؟

ألم يحدثنا «ابن المقفع» عن هذه الأمور، سواء برموز كتابه «كليلــة ودمنة» أو بصراحة عباراته فى «الأدب الكبير والأدب الصغير» قبل قرون وقرون؟...

.. ألم يأت بعد ذلك «مكيافيلى» فى كتابه «الأمير» لكى يجعل الدس، والمخاتلة أو القسوة والتحايل، كلها فى ميدان السياسة «فضائل» يجــب أن يتحلى بها الحاكم، إذا أراد حقا أن يكون حاكما؟..

ألم يعرف القاموس السياسى الحديث، وما زال يعرف، تعبيــر raison D'etat، وأقرب ترجمة له «سبب يتصل بمصلحة الدولة العليا»، يقبل فى تفسير أى عمل يقدم عليه «رجل الدولة» ويكون «غير أخلاقى» بالمعنى السائد لكلمة أخلاق؟

ثم.. ألا يزال الاغتيال، والانقلاب، والشراء بالمال، من الأساليب التى تجرى ممارستها أمام أعيننا إلى الان، فى عالم اليوم، مبررة بــالأهداف السياسية التى يراد تحقيقها؟..

.. طبعا، لا شك أنه قد دخل «بعض التحسن» على علاقة الاخلاق بالسياسة، عبر آلاف السنين من التقدم الانساني.. بحكم تغير معنى «المصلحة»

.. كانت «المصلحة» التى من اجلها تصبح التضحية بالأخلاق مسألة طبيعية، مقبولة، هى مصلحة «الدولة» أى الاطار الممثلة فيه الجماعة الانسانية..

.. ثم تطورت الامور مرة أخرى فصارت «المصلحة» المقبولة فى هذا المجال هى مصلحة «الشعب».

ولم تكن كل «نقلة» فى هذا المجال تؤدى إلى اختفاء ما كان قبلها تماما. كلا. فنحن اليوم مثلا نعيش فى عالم واحد، ولكن الشعوب أو المجتمعات الانسانية، تعيش فى قرون مختلفة، بل ومتباعدة جدا، من حيث نظم الحكم، والقيم السائدة، وحقوق المواطن.. إلى آخره. وبالتالى «فالمصلحة» ـ بمعنى انصرافها إلى مصلحة الفرد، أو الدولة، أو الشعب، تعيش بتفسيراتها الثلاثة فى عالم واحد، وفى اقطار متجاورة .. استطاع العلم الحديث أن يختصر الزمن بينها جغرافيا، فلا يبعد قطر عن قطر أكثر من ساعات بالطائرة، ولكنه بحساب القيم السائدة تفصل بين القطرين عدة قرون!

● ● ●

ولكن، ما هى مناسبة الحديث عن الأخلاق والسياسة؟...

وهل هى مجرد محاولة لأعمال الفكر فى بحث نظرى؟...

كلا!...

ولكن الولايات المتحدة الأمريكية ـ أقوى دولة فى العالم وأكثرها تأثيرا فى حياة عالم اليوم بخيرها وشرها ـ وصل إلى مقعد الرئاسة فيها، فجأة وعلى غير توقع، سياسى مجهول، هو جيمى كارتر. جاء على موجة فحواها أنه اخلاقى أكثر مما هو سياسى، أو هو سياسى غير «سياسى». بل ولم يتردد أحيانا خلال معركته الانتخابية من التلميح إلى أنه يتصرف بناء على رسالة نزلت عليه من السماء، وأن هناك علاقة خاصة بينه وبين الرب!

وبعد أن تولى جيمى كارتر الرئاسة بالفعل، أراد أن يثبت وبسرعة، أن ما كان يقوله خلال الانتخابات لم يكن دعاية فقط. فلم يلبث أن قام بعدة تحركات وتصرفات وتصريحات، تركت ردود فعل متباينة..

استقبل فى البيت الأبيض «بوكوفسكى» أحد المتمردين الروس، بعكس ما فعل جيرالد فورد حين رفض مقابلة «سولجينتسين» حتى لا يسىء إلى سياسة التهدئة بين روسيا وأمريكا...

ثم أرسل خطابا شخصيا منه إلى «زخاروف» العالم الذرى السوفيتى وزعيم المتمردين فى الاتحاد السوفيتى، بما يعنى تأييده فى نضاله ضد السلطة السوفيتية وقوانينها...

وقد رد بريجينيف الرجل الأول فى روسيا على ذلك ردا عنيفا فى خطاب علنى أعلن فيه أن روسيا لن تقبل أى نوع من التدخل فى شئونها الداخلية. وأنه ليس من حق دولة أن تعلم دولة أخرى كيف تدير أمورها الداخلية.

وحين ذهب سيروس فانس وزير خارجية أمريكا فى أول رحلة له إلى موسكو، واجهه بريجينيف بضرورة تسوية هذه القضية أولا. ولعلهم

تعمدوا أن تتحطم مهمته الأولى تماما فى موسكو، حتى يقضوا على الفكرة التى رددها كارتر من أن الروس لن يضحوا بفوائد الوفاق ونزع السلاح، من أجل تصريحاته!

وحتى لا يقال عن كارتر ـ وقد قيل طبعا ـ إن الأمر ليس أمر مبادئ وأخلاقيات إنسانية بقدر ما هو سلاح جديد من أسلحة الحرب الباردة، تحدث عن بعض البلاد «المحسوبة» على أمريكا. وأعلنت حكومته أن مساعداتها الاقتصادية والعسكرية سوف تدخل فى اعتبارها من الآن نوع النظام الداخلى ودرجة القمع والعدوان على حقوق الانسان فى أى قطر. الأمر الذى جعل بلادا مثل البرازيل والارجنتين ترفض أى مساعدة من أمريكا. طالما هى مقرونة بأحكام ليست أمريكا هى الجهة التى تصدرها.

وذهب كارتر إلى الامم المتحدة ليلقى خطابا تقليديا، اعتاد أن يلقيه كل رئيس أمريكى جديد. وفى هذا الخطاب أعلن عن مبدأ بالغ الأهمية. قال ما خلاصته: إن كل الدول الأعضاء فى الأمم المتحدة قد وقعت على وثيقة إعلان حقوق الانسان. وانه من تلك اللحظة لا يعتبر انتهاك دولة ما لهذه الوثيقة فى بلادها أمرا داخليا خاصا بها. بل إنه أمر يهم العالم كله.

● ● ●

مبدأ، فيما أعتقد، صحيح تماما...

وحجته، فيما أرى، يجب أن تكون مقبولة فى عالم اليوم. وإلا فما معنى المؤسسات الدولية، والمواثيق الدولية، والكلمات الواردة فيها، والخاصة بحقوق الانسان!

وذلك طبعا بشرط ألا يكون «حقا يراد به باطل»، كما يحدث كثيرا، فى عالم السياسة.

وبالتالى فإن الأسئلة ـ ونحن أمام وقائع حياة ولسنا فى مجال بحث نظرى ـ تبقى كثيرة. وقد جاءت من العالم كله. ومن داخل أمريكا ذاتها. حول كارتر. ودوافعه..

هل هو ساذج؟

هل هو صادق؟

هل يستهدف مكاسب داخلية سياسية فحسب؟

هل يستطيع أن يمضى إلى آخر الشوط؟

ثم.. هل هذه السياسة، التى سماها الكاتب الأمريكى الأول جيمس رستون، ساخرا، باسم «سياسة الفم المفتوح»، هى السياسة المثلى لتحقيق هذا الغرض، إذا كان هذا الغرض جديا؟..

طبعا. هناك سوابق فى أمريكا وغير أمريكا للساسة المثاليين. كان «وودرو ويلسون» الرئيس الأمريكى الذى دخل ببلاده الحرب العالمية الأولى مثاليا، حين اعتقد أنها الحرب التى ستكون آخر الحروب. وحين دعا إلى إنشاء «عصبة الأمم». وحين وجد أن السياسة هى السياسة، قرر عدم دخول أمريكا فى عصبة الأمم.

وكان فرانكلين روزفلت ـ أعظم رؤساء أمريكا ـ مثاليا أيضا..

ومن الأسئلة التى ستبقى مثلا معلقة: لو كان انجاز صنع القنبلة الذرية قد تم فى عهده، هل كان يلقيها على هيروشيما، قاتلا مائة ألف كما فعل ترومان؟

دفاع ترومان ـ الأخلاقي ـ أنه بقتل مائة ألف نسمة، أوقف حربا لو استمرت لقتل فيها مليون...

ولكن، ألم يكن ممكنا، مثلا، مجرد إخطار اليابان بالسلاح الرهيب الجديد وانذارها باستخدامه، لكي تستسلم كما فعلت؟ وهل وارد أن يسلك روزفلت هذا الطريق، لو أنه لم يمت قبل إنجاز القنبلة الذرية بقليل؟

على أى حال. لقد مات روزفلت وهو مصمم على تأييد تصفية المستعمرات القديمة، ولكن بقى بعده تشرشل وغيره واستغرقت تصفية الاستعمار ربع قرن زيادة، ومات وهو يعمل لسياسة الوفاق بين الشرق والغرب، ولكن الحرب الباردة انطلقت بعده.. ومات وهو يرفض إقامة دولة إسرائيل فى فلسطين لأنه كان أقوى من أى فئة فى بلاده، وكان مدركا لمستقبل المنطقة العربية وخطورتها، ولكن ترومان كسياسى صغير آثر الرضوخ للقوى الانتخابية الداخلية، ولو خلق بذلك إحدى أعقد مشكلات العالم ومآسيه.

.. ولعل هذا الاستطراد قد اخرجنا قليلا عن مجرى الحديث.

● ● ●

طبعا، قضية احترام حقوق الانسان، ليست قضية سهلة، بل إنها أعقد القضايا على الاطلاق. ولربما تحل معظم مشاكل البشرية ـ إذا أمكن ذلك ـ قبل أن تحل هذه القضية. وقبل أن يحظى كل إنسان، فى كل بلد، وتحت كل نظام، باحترام حقوقه.

لقد نزلت الأديان كلها. وجوهر رسالتها احترام حقوق الانسان.

وقد زعمت الثورات والمذاهب والايدولوجيات كلها، إنها إنما تريد احترام حقوق الانسان.

ومع ذلك، فلو أردنا تلخيص تاريخ البشرية كله، لوجدنا أن السمة الغالبة فيه، هى عدم احترام حقوق الانسان...

وأبسط الأسباب الداعية لذلك تصور كل مجتمع إنسانى لما يرى أنه احترام لحقوق الانسان. ولما يرى انه حقوق الانسان.

ثقافة الغرب وأوروبا السياسية كلها، تقول إن اثينا كانت مهد الديمقراطية، وإنها ما تزال النموذج الفذ الذى لا يتكرر.

ولكن أثينا ـ بساستها وفلاسفتها ـ لم يجدوا فى تقسيم الشعب إلى أحرار وعبيد، وبالتالى قصر حقوق الانسان على الأحرار دون العبيد، لم يجدوا فى ذلك أى تعارض مع ديمقراطية أثينا.

والجاهلية، قاومت دعوة الاسلام أعنف مقاومة، بسبب ما يدعو إليه الاسلام، وبدا لهم أنه أمر بالغ الغرابة والشذوذ، وهو محاربة الرق. لطول ما اعتاد المجتمع هذا الوضع...

فالمجتمع نفسه، حتى بحكمائه وعقلائه. قد يرى فكرة حقوق الانسان فى صورة نراها اليوم غريبة وبالغة الغرابة...

وقد احتاج الأمر إلى دهور طويلة، ورسالات من السماء، وثورات على الارض، حتى تطور مفهوم حقوق الانسان..

ثم إن هناك عصرا آخر، داس حقوق الانسان عبر التاريخ بقدميه، وهو صراع الحياة العنيف ذاته.

كان فى البدء صراع أفراد.. ثم صار صراع قبائل.. ثم صار صراع

شعوب وأمم.. حتى صار الصراع دوليا.. فالحروب عالمية.. والمذاهب المتصارعة ترى أن مجالها العالم كله.. والازمات المالية أو الاقتصادية أو حول السلع الاساسية، أزمات عالمية...

صراع لا يعرف الرحمة...

وتحت هذه العناوين الواسعة، تتدرج مئات الأنواع من الصراع، مما يعرفه الجميع.

وما يهمنا من هذا التاريخ هنا، هو مرة أخرى كيف أن أقسى المظالم كانت ترتكب باسم «حقوق الانسان» وأحيانا باقتناع من المرتكبين أنفسهم..

كان الشعب يستعمر شعوبا أخرى، ويمتص ثرواتها. وكان الشعب الحاكم يرى فى رجله الذى يحقق له هذا بطلا. كان بطلا بالنسبة له. فهو يوفر له مستوى عاليا من المعيشة، على حساب شعوب أخرى. وكان هذا مقبولا «أخلاقيا» لدى الشعوب المستفيدة... وكان المعترضون على هذا هم الشواذ...

كان الساسة ورجال الدولة يعرفون ما يفعلون...

فحين كان نابليون يحلم باحتلال مصر، ثم بالقفز إلى الهند التى يحكمها الانجليز، قال لخلصائه : «سنفاجئهم، لصوص يهاجمون لصوصا أقل منهم جرأة!» ويفوزون بالجائزة...

وكان هناك من المفكرين من يبررون هذا ويفلسفونه. فاستعمار أوروبا لآسيا وأفريقيا كلها، عاش أجيالا يحمل اسم «عبء الرجل الأبيض». وكان هذا مقبولا أخلاقيا. فالانسان هو الرجل الأبيض. أما استغلال الأسود والأسمر فكان أمرا مقبولا.

ومعظم تماثيل «الأبطال» و «العظماء» التى تملأ ميادين أوروبا مثلا هى تماثيل غزالة، أو طغاة، أو مستعمرين.. ولكنهم عند شعوبهم أبطال...

وكان المعترضون قليلون..

كانت إنجلترا، وهى أكبر إمبراطورية، تسمى وما تزال «أم الديمقراطية فى العالم» ولكن برناردشو كان يقول: إن كلمة الديمقراطية يتغير معناها بمجرد أن تترك الجزر البريطانية وتعبر المحيط!

وهذا صحيح. فالديمقراطية للانجليز. تغذيها وتجعلها ممكنة الموارد المستنزفة من شعوب أخرى. ولكن كان هذا مقبولا أخلاقيا على الاقل لدى «الشعوب الراقية»!..

كانت إنجلترا تفخر بثورتها التى أرست قواعد الديمقراطية. وفرنسا تفخر بثورتها التى حققت شعارات الحرية والاخاء والمساواة. ولكن ثورة من هذا النوع، فى أى مستعمرة تابعة لهما، كان لابد من قمعها فورا، وبكل عنف.

وكان لهذا المنطق كله صحافته، وثقافته، وكتابه، وفلاسفته.

أما المسحوقون، فلم يكن لهم شىء من هذا. لم يكن لهم صوت يسمع. ولا فكر يقرع الآذان. لأنه لم يكن لهم مدافع ولا بوارج ولا طائرات...

وقد تغير الكثير من هذا بحركات التحرر فى العالم التى أدت إلى استقلال كل شعب تقريبا...

وصار هناك برلمان عالمى اسمه الأمم المتحدة، يفترض أن لكل

شعب فيه له صوت كأى شعب آخر، مهما كان لونه أو عدده أو قوته..

ولكن هذا بالطبع ما زال بعيـدا عـن الـواقع بـــكثير. وإن كان المستضعفون فى الأرض يكسبون أرضا جديدة..

وكان طبيعيا بعد حقوق الشعوب. أن تبدأ وتتسـع معـركة حقـوق الأفراد، حقوق الانسان.

● ● ●

وحن نلقى نظرة على العالم. نجد أن كل شعب يحاول أن يخوض فى بلده، معركته الخاصة، من أجل كسب حقه فى حقوق الانسان... وإن كان الصراع ليس داخليا دائما. فالقوى الخارجية ذات التأثير، مـا زالـت تتحالف مع القوى المحلية المتخلفة، لاطالة أجل اسـتبدادها، إذا كان يناسب تلك القوى الخارجية لسبب أو لآخر.

وقد مر زمن ، قريب، ساد فيه الصراع المذهبى واختلفت المـذاهب بالتالى خلافا حادا حول تعريف حقوق الانسان، أو على الأقـل علـى أولويات حقوق الانسان.

مذاهب تقول: الحرية فحسب، وبعد ذلك فليتصارع الناس ليأخذ كل ما يستطيع.

ومذاهب تقول: لقمة العيش أولا. وحقوق الانسـان الاجتمـاعية... التحرر من الجوع ومن البطالة ومن عدم المساواة.. هى حقوق الانسان الأساسية.

ولكن التيار السائد، والذى يتحول مع الزمن فى تقديرى إلـى مـوجة عارمة فى كل مكان وتحت كل نظام هو : الخبز مع الحرية، العدل مـع

الكرامة، وبغير ذلك يظل حق الانسان ناقصا.

وفى هلسنكى، منذ ما يقرب من سنة، اجتمع أقطاب المعسكر الشرقى والمعسكر الغربى. وفى محاولة معقدة لتكريس الأمر الواقع الذى أسفرت عنه الحرب العالمية الثانية من تقسيم لأوروبا وتثبيت الأوضاع الدولية بينهما، وقعا على معاهدة شملت بنودا سياسية كثيرة، ومن بينها نصوص عن حقوق الانسان، كأساس لسياسة الوفاق.

وفى بلجراد، بعد مدة، يجتمعون مرة أخرى لمراجعة ما تم فى شأن التزام كل طرف فى هذه المعاهدة.

● ● ●

وفجأة، شن كارتر حملته دفاعا عن «المعترضين» فى الاتحاد السوفيتى، وهاجم فى الوقت نفسه جوهر النظام السوفيتى...

وقد بدأ الأمر... أثناء حملته الانتخابية للفوز بالرئاسة..

وتفسير هذه الظاهرة قد يكمن فى أمريكا نفسها...

ففى خلال الجيل الذى سبق وصول كارتر إلى الحكم، تعرضت أمريكا – أقوى دول العالم – لامتحانات صعبة، خرج منها الشعب الأمريكى، والضمير الأمريكى، مثخنا بالجراح...

لقد اغتيل رئيس الجمهورية (جون كنيدى). وخرج خليفته من الرئاسة (ليندون جونسون) تحت ضغط نقمة عارمة من الشعب بسبب حرب فيتنام. وطرد رئيس ثالث (نيكسون) بتهم اعتداء على حقوق الانسان فى أمريكا وتجسس على الأفراد وإخفاء جرائم. وخرج نائب رئيس (أجنيو) بتهمة رشوة صريحة. واغتيل مرشح للرئاسة على وشك

الانتصار، (روبرت كنيدى). واغتيل زعيم حركة تحرير السود (مارتن لوثر كنج).

وصاحب هذا كله حرب فيتنام. حين استخدمت أمريكا قوتها العسكرية الهائلة فى محاولة سحق شعب صغير فقير فى فيتنام دون جدوى. ومرة أخرى نجد فى رواسب بعض النفوس أن ضرب «الصفر» وتدميرهم، أو «اعادتهم إلى العصر الحجرى» كما قال قائد طيران أمريكى، أمر مباح لأنهم «صفر» فلم يكن متصورا أن فظائع حرب فيتنام يمكن أن تقع فى بلد أوروبى مثلا.

وصاحب هذا كله كشف أدوار رهيبة للمخابرات الامريكية فى تنفيذ انقلابات، واسقاط حكومات، واغتيال زعماء.. ثم جاءت موجة الفضائح المالية. وسيل اعترافات الشركات الكبرى برشوة أكبر الشخصيات من اليابان شرقا إلى هولندا غربا..

وهذا كله وقع وارتكب فى أكبر «مجتمع مفتوح» وأصيب الضمير الأمريكى بجرح دام عميق وصارت كلمة السياسة كلمة قذرة، وحقوق الانسان نكتة. وأدرك كارتر الموجة، فخرج من المجهول، رافعا راية الفضيلة. وسخر الساسة منه، لكن الرأى العام أعطاه مقعد الرئاسة.

وكانت أحد تعهداته التى أرضى بها المواطن العادى، هى الطهارة واحترام الانسان، وحقوقه، وحمل نفس الرسالة إلى ماوراء الحدود..

وفى بلاد المعسكر الشرقى جماعات من الرافضين، أو المطالبين بحريات أكثر، بعد أن حققت تلك المجتمعات التقدم المادى المطلوب، وصارت تجد أن من حقها أن تحظى بالقسم الآخر من حقوق الانسان وهو الحرية، فالتقط كارتر ورقة تأييدهم، كسلاح يبرر دعوته

«التبشيرية» ويقلب معركة الدعاية ضد المعسكر الآخر، ويعطى الأمريكى من جديد شعورا برسالة عالمية هى الدفاع عن حقوق الانسان ولو فى أماكن بعيدة.

● ● ●

ومهما كان الأمر فيما يتعلق بدوافع كارتر، أو بأساليبه، أو بردود فعل المعسكر الآخر.

فالقضية فى ذاتها ـ مجردة من اعتبارات الصراع الدولى ـ عادلة. وقد تتحول إلى قضية العصر. والامتحان الحقيقى سيكون حين يتبين إذا كانت مجرد سلاح جديد فى الحرب الباردة، أو إذا كانت الدعوة سوف تعم، فلم تثور أمريكا لمنع مواطن فى روسيا من السفر وتسكت عن اختفاء آلاف فى تشيلى أو فى غيرها!

ولم يرفع كارتر راية حق تقرير المصير، ويسكت على طرد إسرائيل للفلسطينيين من ديارهم واحتلال أرضهم بالقوة!

وهل حقوق الانسان مطلب يرفع شعاره حيث يلائمه هذا، وينكسه حيث لا يلائمه احترام حقوق الانسان.

وإذا كان لابد أن تشغلنا أمور أنفسنا كما تشغلنا أمور الانسانية. فإن المواطن العربى فى كل مكان من أنحاء الوطن الكبير، لديه الكثير مما ينتقده فى حياته. ولديه الكثير من أسباب الشكوى فى كثير من مجالات فقدان حقوق الانسان.

ولكن هنا أيضا. وصلت الشعوب العربية إلى مرحلة من النضج، صار لابد معها أن يكون تأكيد حقوق الانسان فيها أمرا أساسيا، ولا مجال للتساهل فيه.

إن انعدام هذه الحقوق فى أماكن، وضعفها فى أماكن، هو علة العلل. وأساس كل داء. وسبب كل بلاء فى ظروفنا العربية الراهنة.

ولابد أن يتحمل كل من تسمح له ظروفه ومكانته وثقافته جانبا من مسئولية تأكيد هذا المعنى. ونشره فيما حوله.

إن التعذيب الجسدى، أو السجن بدون قضاء، أو منع ابداء الرأى إذا كان سليما، أو رفض فكرة تبلور إرادة الشعب بأى صورة من الصور، إن هذه كلها أشياء لابد أن تزول.

إن زوالها أهم فى معركة التقدم من استيراد أحدث الآلات وإقامة أحدث المبانى، فقد كان التقدم دائما رهنا بالانسان، وشعوره بكرامته، وبحريته العقلية. فهو إن عجز عن استخدام فكره وعن ممارسة كرامته، فقد عجز عن ممارسة ما يجعل الانسان إنسانا.

إن حقوق الانسان التى رأت النور يوما مع مشرق الاسلام فى هذه الأرض، لابد أن يعود لها بريقها من جديد مهما كانت الفلسفات والادعاءات.

وبغير الاحترام الكامل الخالى من أى تحفظ لحقوق الانسان العربى لن نخترق الحلقة المفرغة من التخلف ومن المآسى ومن شتى أنواع الاحباط التى تكاد تزهق روح الانسان العربى. مهما حاولت بعض الماديات من تغطية ذلك لبعض الوقت.

إن معركة حقوق الانسان على المستوى العالمى ستكون معركة آخر هذا القرن وأول القرن القادم.

وعلينا أن نكون من المناضلين فيها...

لانفسنا أولا.

وبعد ذلك لغيرنا...

الوحدة عندنا وعندهم

الخبر الذى لم تهتم الصحافة العربية بإبرازه، وأحيانا ولا حتى بنشره، فضلا عن التعليق عليه.. كان قادما من بروكسل، عاصمة السوق الأوروبية المشتركة. وكان يقول إن دول السوق التسع، بعد مباحثات مضنية معقدة دامت سنوات، قد توصلت أخيرا إلى قرار بأن يتم تكوين أول برلمان أوروبى، منتخب عن طريق الانتخاب المباشر. وأنه قد تم الاتفاق على أن تجرى أول انتخابات أوروبية عامة مباشرة فى موعد قريب.

وكانت المشكلة التى اعترضت القرار طوال سنوات، هى الوصول إلى توزيع لعدد المقاعد فيه درجة من العدالة، بين الدول الكثيرة السكان كألمانيا وفرنسا، وبين الدول القليلة السكان مثل الدانمارك. فى حين أن كل دولة مهما كان حجمها لها إرادتها المستقلة كدولة. وإيجاد برلمان موحد منتخب انتخابا مباشرا، مهما كانت اختصاصاته قليلة فى البداية، فيه درجة من تنازل كل دولة عن جزء من إرادتها الوطنية، تخضع فيه لارادة مجموعة أكبر، هى مجموعة دول السوق الأوروبية المشتركة.

وكانت هناك دول تطالب بمقاعد أكثر، كإنجلترا، لكى تضمن تمثيل أهل اسكتلندا وويلز وغيرها من أجزاء إنجلترا ذات الأصول المختلفة نسبيا، ودولة مثل إيطاليا تطالب بمقاعد أكثر لكى تمثل أحزابها الكثيرة العدد. وهكذا، وأخيرا توصلوا إلى أن يكون المجلس النيابى الأوروبى المنتخب انتخابا مباشرا من ٤١٠ أعضاء: ٨١ مقعدا لكل من إنجلترا

وفرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية. ثم ٢٥ مقعدا لهولندا، و٢٤ مقعدا لبلجيكا، و١٦ مقعدا للدانمارك، و١٥ مقعدا لأيرلندا، و٦ مقاعد لدوقية لوكسمبرج.

وإذا كان هذا سيكون بمثابة برلمان لأوروبا، فسيكون رؤساء حكومات الدول التسع بمثابة مجلس وزراء لأوروبا.

.. وإذا كنت قد سردت كل هذه التفاصيل، فلم أسردها لذاتها، ولكن لكى أوضح الطريقة التى يتوصل بها الأوروبيون إلى حل مشكلة الوحدة بينهم، أخطر مشكلة يمكن أن تواجه مجتمعا ما، فى صبر وأناة، وبالمناقشة والمثابرة والدأب، سنة بعد سنة، منذ سنة ١٩٦٠، أى منذ ستة عشر عاما، ولكنهم رغم كل الخلافات، يتوصلون إلى حلها، طالما أنهم قد اقتنعوا بأن الوحدة هدف ضرورى لمستقبلهم، وبالتالى فإنهم يرتبون عملهم ليسير فى اتجاه ما توصلوا إليه من اقتناع، مهما كانت الظروف.

إن هذا القرار الذى توصلت إليه دول السوق الأوروبية المشتركة قرار تاريخى، لقد سبقته قرارات وخطوات هامة وطويلة، خصوصا فى المجالات الاقتصادية، من إلغاء الرسوم الجمركية، إلى توحيد بعض السياسات الاقتصادية، إلى اندماج بعض شركات الانتاج التى تعمل فى مجال واحد، إلى محاولة الوصول إلى درجة من التنسيق فى بعض المواقف السياسية وإن ظل هذا من أصعب الأمور عليهم إلى الآن، بحكم تنوع مصالحهم الخارجية من جهة وبحكم وطأة النفوذ الأمريكى عليهم من جهة أخرى.

ولكن هذا القرار الجديد، قرار تكوين برلمان موحد يتم انتخابه على

مستوى الدول التسع بالاقتراع العام المباشر، يعتبر من أهم وأخطر ما اتخذوه من قرارات إلى الآن. ذلك إن هذا، كما ذكرت سابقا، خطوة في طريق التنازل عن جزء من «السيادة الوطنية» لسيادة «قومية» أعلى...

طبعا، واضح أن هذا الحديث كله، القصد منه أن يسوقنا إلى المقارنة بين حال الأوروبيين في مجال السعي إلى الوحدة، وبين حالنا نحن العرب.

وقد أريق مداد كثير لاثبات وتوضيح أن ما يربطنا نحن العرب أقوى وأعمق بكثير مما يربط بين شعوب هذه الدول الأوروبية التسع. فلن أضيف إلى القول في هذا المجال جديد، إلا لمجرد التسجيل فقط.

لقد بنيت «فكرة» الوحدة الأوروبية على أساس من المصلحة الاقتصادية في الدرجة الأولى والمصلحة السياسية في الدرجة الثانية. هذه الدول الأوروبية التي قضت القرون في حروب مدمرة بين بعضها البعض، أحيانا على أرضها ذاتها، وأحيانا صراعا في قارات أخرى على المستعمرات، وجرت العالم كله معها مرتين إلى «حربين عالميتين» هذه الدول وجدت نفسها بعد الحرب العالمية الثانية، وقد تضاءلت بين عملاقين جديدين، شابين، هما الاتحاد السوفيتي شرقا والولايات المتحدة الأمريكية غربا. صحيح أنها ـ دول أوروبا ـ استردت صحتها وعافيتها الاقتصادية إلى حد كبير. ولكن أين لها، وهي منقسمة، أن تنافس في معركة المستقبل روسيا وأمريكا؟ ثم الصين الآتية بعد قريب؟.. أي دولة منها، بمفردها، ألديها الأعداد البشرية الضخمة التي لدى العمالقة الجدد؟ ومن أين لها الثروات الطبيعية الهائلة المتوافرة لدى العمالقة الجدد، خصوصا بعد أن خسرت ـ أوروبا ـ مستعمراتها؟

وأين لها الميزانيات الضخمة والأعداد الكبيرة من الفنيين التى تسابق فى ميادين هائلة للتكنولوجيا المتقدمة والتى تصنع الصواريخ العابرة للقارات والقنابل النووية بالآلاف، فضلا عن السلع التجارية المألوفة؟

من هذا المنطلق، الأمنى، العسكرى، الصناعى، ولدت فكرة الوحدة الأوروبية بمعناها الحديث، غير معناها فى العصور الوسطى، وبدأ الخطو إليها بإقامة السوق الأوروبية المشتركة، ثم التدرج بها خطوات، فبهذا قد يوجد يوما كيان سياسى اقتصادى تعداده الحالى ٢٥٠ مليونا، يحفظ لها مكانها بين العمالقة الجدد.

وليس هذا على أى حال بالمنطلق البسيط، «فالحاجة» هى أقوى الحوافز، والتطور الاقتصادى السياسى من العوامل الحاسمة فى التحولات التاريخية الكبرى.

وفى حالتنا نحن العرب، فإن عنصر «الحاجة» هذا نفسه الذى كان العنصر الأساسى فى قيام الوحدة العربية، موجود فى حالتنا، وإن كان عنصر «الحاجة» فى حالتنا ليس العنصر الأساسى ولا الوحيد، كما هو الحال فى أوروبا..

ألا يستشعر العرب أنهم فى عالم اليوم المتغير المضطرب، عالم اليوم الذى تنهار فيه كيانات وتقوم فيه كيانات جديدة، وتتغير موازين القوى، وتتشابك فيه المصالح الدولية، وينهض فيه عالم بأكمله كان «مخصوما» من حسابات القوى الدولية، وهو العالم الثالث.. ألا يشعر العرب فى عالم هذا شأنه، أنهم من الناحية «الأمنية» فى حاجة إلى التقارب والتماسك والتناسق، ولا نقول الوحدة؟

فى هذا العالم الذى يقفز فيه العلم والتكنولوجيا وبالتالى الاقتصاد

و«نوعية» الحياة، قفزات هائلة كل يوم بل كل ساعة.. فى عالم هذا شأنه ألا يشعر العرب بحاجة «اقتصادية» إلى السير جديا وحثيثا نحو درجات من التكامل الاقتصادى، والتكامل الصناعى الانتاجى، والتنسيق والتكامل فى مجالات البحث والعلم؟ ألا يشعر العرب أن المال بغير بشر لا ينتج الكثير، والبشر بغير مال لا ينتج الكثير، وان الكفاءات العلمية هى أغلى عملة فى عالم اليوم، وأن تجميعها، وتوجيهها إلى قنوات البحث ذات الصلة بظروف العالم العربى.. هى الوسائل التى لا مفر منها إذا أردنا أن نكون أمة عربية، لها قدرة على المنافسة الاقتصادية والانتاجية، وليست مجرد أرض غنية مؤقتا بالخامات، وأنه بدون هذا لن يكون لنا خلال سنوات قليلة فرصة الرقى والحياة فى المستوى اللائق؟

إن عنصر «الحاجة».. الحاجة إلى «الأمن» إزاء عناصر التهديد الخارجى والحاجة إلى التقدم والقدرة على المنافسة وتحسين قيمة الحياة.. عنصر «الحاجة» هذا العنصر «الغريزى» قبل أن يكون سياسيا ولا فلسفيا.. هذا العنصر الذى هو الدافع للوحدة فى أوروبا.. إننى أراه موجودا فى حالتنا نحن العرب بدرجة أقوى وأشد إلى حد كبير. وإذا كنت أركز عليه فلأنه العنصر البديهى، العملى والواقعى جدا، والذى لا يحتاج إلى مناقشة أو تدليل أو دخول فى نظريات وفلسفات يمكن الخلاف عليها.

فما بالنا، إذا كان هذا العنصر الغريزى، ليس هو العنصر الوحيد فى حالتنا نحن العرب.

نحن العرب نتكلم لغة واحدة ودول السوق الأوروبية المشتركة تتكلم سبع لغات، ونحن العرب تراثنا واحد، فلو سألت فردا عربيا فى أى مكان عن شاعره المفضل مثلا فسيقول لك المتنبى أو أبو العلاء أو أحمد

شوقى.. بصرف النظر عن كون هذا الفرد مغربيا يطل على المحيط أو كويتيا يطل على الخليج. فى حين أنك لو سألت الأوروبى لاختلف الأمر قطعا.. فالانجليزى سيقول لك أن شاعره هو شكسبير.. والألمانى سيقول لك «جوته» والفرنسى سيقول لك «فيكتور هيجو» وهكذا..

وإلى جانب وحدة اللغة والتراث توجد عشرات من وشائج الوحدة المعروفة التى لا تتوافر فى مكان آخر. وبوجه عام فالوحدة فى أوروبا «فكرة» عملية طارئة، فى حين أن الوحدة العربية حقيقة عاشت قرونا ولربما تقطعت أوصالها سياسيا فى مراحل لاحقة ولكن ظلت الحقيقة على مستوى الشعوب قائمة وجذورها عميقة.

ولكن الأوروبيين بدأوا مسيرتهم سنة ١٩٦٠ وقطعوا فيها أشواطا طويلة.. والجامعة العربية قامت سنة ١٩٤٥، ولم تقطع بعد معشار الشوط الذى قطعه الأوروبيون دون ضجة ولا مضاربات.

ربما لأن الأوروبيين يتناولون أمورهم بأسلوب عقلانى مطلق ليس للعاطفة فيه مكان. وهذا ليس نفيا لقيمة العاطفة، فالعاطفة عنصر حافز ودافع قوى بالتأكيد. ولكن الاعتماد عليه وحده دون درجة كافية من العقلانية، يبدو أنه لا يوصل إلى شىء. لأن العاطفة بطبيعتها متقلبة، سريعة التأثر، يتراوح عليها المد والجزر، والحساب العقلى ليس كذلك.

أو ربما لأن الأوروبيين لهم علينا ميزة أن المستوى الحضارى بين دولهم التسع مستوى متقارب، ونظمهم السياسية والاقتصادية متماثلة أو شديدة التشابه، وقيمهم الاجتماعية وأنماط سلوكهم واحدة. وهذه أمور تسهل التكامل والتوحيد كثيرا. وهى أمور يجب أن نعترف أنها ليست متوافرة لدينا.

ولكننا فى نفس الوقت نعرف من تجارب كثيرة أن عدم تـوافر هـذه الظروف ليس بالعقبة التى لا يمكن تجاوزها.

ولكن المشكلة أن كل مشروعاتنا فى مجـالات الاقتصـاد وتسـهيل الاتصال والانتقال وتنسيق الخطط وتكامل المشروعات، نحطمها دائمـا على صخرة الخلافات السياسية، وبين نظم الحكم لا بيـن الشـعوب، فلا تمضى هذه المشروعات إلا وتتوقف. ولا تتصل هـذه الشرايين فى الجسد الواحد إلا وتتقطع.

ولو فصلنا بين الخلاف السياسى وبين المجالات الأخرى، التى تـزيد فى تلاحم جسد الأمة العربية لتغيرت أمور كثيرة.

ولكن... ماذا أقول؟؟..

إننا نعيش ما هو أسوأ، نعيش فى مرحلة حروب أهلية عربية!!..

فهل ما نزال فى المرحلة التى مرت فيها أوروبا بهذه الحروب؟

أى نعيش القرون الوسطى؟!

عالم من سياحة.. وبترول.. وفضول.!

منذ عشرات السنين لا أكثر، كانت «السياحة»، ميزة لا تـدركها إلا القلة، وكانت كلمة «السائح» مقصورة على صاحب الثروة الواسعة.

وحتى هؤلاء كانت الحركة بينهم بسيطة.

كان الملك أو رئيس الدولة يقضي عشرات السنين متوجا ربما لا يبرح بلده أبدا أو يبرحه مرة واحدة، إذ كانت الرحلة الملكية حـدثا هـاما يستعد له، وإجراءات طويلة معقدة.

وكان السفر للسياحة له ناس قليلون مشهورون به. أذكر في مصر مثلا أن موسم السياحة كان يعد ناجحا إذا جاء «أغـاخان» و «البيجـوم» زوجته.. وعشرات مثلهم.. وامتلأت الغرف القليلة في فندق «كاتـاراكت» ونتر بالاس» الاقصر، وكان «وصول سائح» من هذا النوع خبـرا تنشره الصحف في صفحاتها الأولى، ونقرؤه ونحن صغار وكأننا نتـابع أخبـار نوع نادر من البشر، يقضي الصيف في مكان والشتاء في مكان آخر!

وأيضا كانت صورة السائح في ذهننا ونحن صغار هي صورة رجـل عجوز أو امرأة طاعنة في السن، لأنهم في العادة أصحاب القدرة المالية، وأصحاب الفراغ وقلة العمل، لأن السياحة نفسها كانت مقترنة في ذهننا بالمال الموروث دون عمل..

وعندما اكتشف الانجليز مثلا شاطئا دافئا على البحر الأبيض المتوسط هو مدينة «نيس» على الريفييرا الفرنسية، يهربون إليه أحيانا من برودة

بلادهم وضبابها، كان يعتبر هذا فى فرنسا نفسها أنـــه «مـــن غــرائب الانجليز». وسمى كورنيش نيس باسم «شارع الانجليز AVENUE DES ANGLAIS»، حتى الآن.. برغم أنه صار شارع العــرب.. وجــلا عنــه الانجليز منذ زمن!

وبعد الحرب العالمية الثانية، نشر الأمريكان كلمة السياحة بتــدفقهم الهائل على أوربا. أيامها كان الدولار هو الملك. وســائر العــالم فقيــر بائس. وحتى وقتها كان الشائع أن هؤلاء الأمريكان القادمين مــن خلف المحيط وكأنهم من كوكب آخر، كانوا ظاهرة فريدة لنا اكتشفوا الــكرة الأرضية ويريدون معرفة أصولهم التى هاجروا منها.

كانت الفنادق قليلة فى أكبر العواصم، وفاخرة جدا، وكانــت حجــرة الفندق فى حجم شقة واسعة من أيام ما قبل المبانى الجاهزة التــركيب والعمال الكوريين! وكان السفر أساسا بالبواخر. والــرحلة تســتغرق فى البحر لا أقل من أسبوع، ومع نهاية الحرب العالمية كان التقدم الهــائل قد جعل الطيران من أوربا إلى أمريكا يستغرق ستا وثلاثين ساعة فقــط (أربع ساعات تقريبا بالطائرة الكونكورد الآن) وكانت لندن منذ عشريــن عاما فقط خالية من المطاعم إلى بيوت الشاى التابعة لشركة «الليــونز» ومطاعم السمك والبطاطس المقلى FISH AND CHIPS برغم أنها كانــت عاصمة الدنيا.

وكان هناك أدب من أعظم الآداب الانسانية وهــو «أدب الــرحلة» سواء قبل قرون، عندما كان رجال مثل «ابن بطوطة» يرحلون إلى آخــر بلاد الله. متجشمين الأهوال، لا يعرفون إذا كانت ستكتب لهم العودة أم لا، ليكتبوا عن العالم الذى لا يعرفه الناس، والبلاد التى تركب الأفيال. ولكنهم كانوا عبر التاريخ قلة نادرة.

واستمر هذا حتى العصور الحديثة. من كتب الفرنسى «ليوتى» عـن الشرق أو المصرى رفاعة الطهطاوى عن باريس...

وحتى الأربعينات من هذا القرن العشرين «كسب بعض أعظم الكتاب شهرتهم الأولى من أدب الرحلة.. سواء ما كتبه أندريه مالرو عن الصين وكمبوديا أو إرنست همنجواى عن مصارعة الثيران فى أسبانيا أو مقهى «الكلوازيرى» فى باريس...

ولكن السفر انقلب انقلابا تاما فى العشرين سنة الأخيرة. لـم يعـد السفر للمليونير ولا الأديب أو التاجر والمستكشف. بل كان يصبح «حقا جماهيريا» من «حقوق» الانسان يتطلع إليه كل فـرد. وعـرف العـالم سياحة جديدة تماما..

ماذا حدث؟..

أشياء كثيرة نذكر بعضها لا بترتيب الأهمية ولكن بتـرتيب تـداعى الخواطر...

الثورة الصناعية التى حشرت الناس بالملايين فى المدن الصـاخبة. والرغبة بعد «التشبع بحياة المدن» التـى لا تـرحم، ورد الفعـل إزاء «العمل الشاق الممل الرتيب» فى المكاتب والمصانع وتحول الناس إلـى أرقام وإلى تروس صغيرة فى آلات هائلة.. جعلهم ساعة الاجازة يركنون إلى الفرار.. إلى الطبيعة، إلى تحكم الانسان فى نفسـه ومـزاجه ولـو لأسابيع كل سنة..

اكتشفوا شواطئ البحار وقمـم الجبـال وقيمـة الخضرة وأنفـاس الغابات.. وأذكر دائما فى هذا المجال كلمة لزوجة رئيس وزراء انجلتـرا الأسبق «هارولد ويلسون»، وهى أديبة شاعرة لها عدة دواوين، عنـدما

سألها صحفي عن شعورها حين تركت بيتها خارج لندن وسكنت لأول مرة فى قلب لندن، وفى مقر رئيس الوزراء «رقم ١٠ داوننج ستريت» فقالت: «فى قلب المدينة أشعر أن كل نسمة أتنفسها قد تنفسها قبلى عشرات!».

ثم جاءت زيادة السرعة، واختصار المسافات وانخفاض النفقات (وسنعود إلى أسبابها بعد قليل).. كان عبور الأطلسى يستغرق أسبوعا فى أسرع السفن.. وحتى نهاية الحرب العالمية الثانية، ومع ظهور الطيران وانتشاره، كانت نفس الرحلة بالطائرة من باريس إلى نيويورك تستغرق ستا وثلاثين ساعة (الآن تقطعها الطائرة الكونكورد فى أقل من أربع ساعات. والاعلانات تقول: افطر فى أوربا مع عائلتك وتغد فى أمريكا مع أصدقائك!).

ثم انكسر أهم حاجز وهو التكاليف، تنافست شركات السفر بالبحر والبر والجو. ومنذ سنة مثلا جاء رجل أعمال إنجليزى اسمه ـ لاكر ـ فألغى من الطائرة كل التفاصيل: المضيفة الجميلة والطعام الفاخر والحجز المسبق، مقابل «مجرد نقل المسافر إلى مقصده، بأقل من نصف التكاليف!». وأعطته ملكة انجلترا لقب «سير» مكافأة له على هذا الانقلاب...

هذا كله أوصل السياحة إلى متناول يد الطبقة المتوسطة فى العالم، والطبقة العاملة فى البلاد المتقدمة، حيث امتلأت الطائرات ومجموعات شركات السياحة بالبروليتاريا، وتدفق الشباب ذكورا وإناثا فى نهم شديد على السياحة والسفر.

فضول الانسان الغريزى ، هذا الفضول الذى هو إحدى مميزات

الانسان على الحيوان، هو أحد أهم محركات التقدم من قديم الأزل. إن الفضول لمعرفة الأفكار والفلسفات.. هو نفس الفضول لمعرفة الأجـرام السماوية.. وأسرار الفلك منذ آلاف السنين. هو نفس الفضـول الـذى يطلق الأقمار الصناعية بتكاليف خرافية لمعرفة القمر والمريخ.. الفضول الذى كان يشبه لدى الناس عالم الفلك أو كاتبا رحالة.. صار مع هـذا التطور فى العالم فضولا يجب أن يرتاد كل إنسان آفاقه بنفسه.. أفـلام السينما وحكايات الصحف وشاشات التليفزيون التى تـرينا كل أرجـاء المعمورة زادت الرغبة فى المعرفة والمعايشة، ولم تـطفئها... وصـارت القيمة الثقافية لزيارة بلد ومعرفة مجتمع، كالقيمة الثقافية لقراءة أهـم كتاب أو عشرات من الكتب.. ولعلى استطردت...

ولكننا ونحن مجتمعات نامية.. وربما كانت تطلعاتنا حتى الآن أكثـر تواضعا.. فإننى أريد أن أغرز معنى هاما هـو حـاضر بعض النـاس ومستقبل لباقتهم.. وهى أن السياحة صارت ضرورة وتزداد ضرورة.. وإن الانسان الحديث إنسان مسافر.. إما للدراسة، أو لزيارة المتـاحف، أو للجلوس على مقهى فى بلد غريب...

وأقل الناس حيلة فى أمريكا وأوربا مثلا يسـافرون بـالسيارات.. أو بالدراجات.. أو سيرا على الأقدام وينامون فى الفنـادق الـرخيصة.. أو الخيام التى يحملونها.. أو فى العراء، المهم أن يتحرك. أن يعبر حدودا ما، أن ينسى ـ لشهر ـ مكابدة أحد عشر شهرا...

والصيرورة إلى عالم متحرك مسـتمر وفى ازديـاد.. حتـى يعـرف المسئولون عنا، والرواد فينا وقادة الطريق.. أن هذا مستقبل لابد مـن الاستعداد له.. بل والعمل من أجله..

طبعا لا يمكن لمتأمل عربى، إلا أن يذكر سببا هاما حرك الكثير من

هذه الأسباب وجعل كل هذه الوسائل متاحة.. اكتشاف وقـود محـرك رخيص.. هو البترول..

وهو السبب الذى أشرت منذ قليل إلى أننـى أؤجلـه إلـى آخـر الأسباب...

فغنى عن الاشارة، أن كل هذه العجلات التى تتحرك.. من الـدراجة إلى السيارة إلى الحافلة إلى الطائرة .. والمحركات التى تدور فى جوف البواخر.. إلى الآلات التى تنتج فى المصانع كل هذه الوسائل.. كل هذا .. كله.. يدور بطاقة محركة.. وكانت الـطاقة المحـركة إمـا بـاهظة التكاليف.. وإما نادرة ـ وإما غير ممكن إطلاقا استخدامها فى مجـالات هامة (هل كانت ستطير طائرة بالفحم مثلا؟).. حتـى عـرف البتـرول فاختزل كل هذا.. وسهله.. وتجاوزه.. ثم تدفق بكميات هائلة، وحتى الآن بأسعار هى أرخص من أى وقود آخر.. فـكان، بعـد العقـل البشرى صاحب الفضل الأول فى خلق العالم الجديد.. فى رفع حـدود الانسـان وتوسيع آفاقه آلاف آلاف المرات. وأنا أضعه بعـد العقـل البشرى لأن عالم الانسان، إذا تحدثنا عن التطور، أداته الأولى الحاسمة هى العقل، وإذا كنا نقول: «الانسان بأصغريه: قلبه ولسـانه» ومجمـوعهما هـو التعبير عن العقل. فإننا نستطيع أن نقول: إن العالم.. برغم كل جيوشه وصواريخه وناقلات النصف مليون طن، يصدق عليه تماما، ودائمـا «إن العالم بأصغريه: قلبه ولسانه».

وأنا لا أتحدث هنا عن البترول، برغم كل الاغراءات، حديث سـياسة أو حديث اقتصاد. والدنيا من حولنا لا حديث لهـا إلا عـن «البتـرول سياسة واقتصاد». إنما أتحدث عنه كجانب حضارى، إنسانى، أثر ويؤثر

فى فكر الانسان، وأفق الانسان وتكوين الانسان، ونسيج كل خلية حية فى الانسان.

ناحية قلما تحدث عنها أو اهتم بها أحد، ولعلها تكون مجالا لحديث مستقل...

وبعد ذلك يستكثر الانسان «المتقدم» علينا.. ثمن البترول!

والانسان فى الرحلة قد يكون آلة تصوير صماء. ولكنه لا يكون إنسانا من النوع الذى نريده، إلا إذا وجد نفسه ـ تلقائيا ودون قصد يتذكر ناسه، وبلاده، ويقارن ويتمنى الأمنيات فهذا وحده هو حقا «الانسان المسافر».

وأنا أتحدث عن انقلاب السياحة.. فأتذكر بلادنا العربية...

كما يرى الانسان منا الصاروخ فيتمناه لبلاده. والرخاء فيتمناه لمجتمعه. وحرية العقل والفكر والضمير فيتمناها لشعبه وقومه.. ويرى نفس الانسان السفر وهو موضوعنا فى هذه الصفحات فيتمناه لبلاده..

لاشك أن شعوبنا العربية أيضا تمر فى هذا المجال بانقلاب واسع «مرض الحنين إلى السفر»، كما أسميه مستخدما عنوان مسرحية فرنسية قديمة، مرض صحى يعالج أعراضا أخرى كثيرة، وإذا كان يجتاح شعوبنا.. من أقدر الناس إلى زهور الشباب التى تكتظ بها حقولنا وبرارينا.. فهذه علامة صحية. ولكن تقصير المسئولين فينا فى هذا المجال، كبير.. وهو تقصير نحو أنفسنا...

اتطلع إلى خريطة وطننا العربى.. فأجد فيها كل ماتتوق إليه النفس الراغبة فى المعرفة والتغيير.. والترفيه... وكل ما يشبع أى نوع من أنواع الفضول...

الجبال الشامخة والغابات السامقة الأشجار، والجليد فى جبال أطلس والجزائر وشمال العراق ولبنان وما فوق شواطئ سوريا !..

الشواطئ البالغة الجمال؟.. مصر وليبيا وتونس.

صيد البحر؟ فى البحر الأحمر والخليج....

صيد البر؟ فى الصحارى وفى غابات السودان!

الدفء فى الشتاء؟.. فى جنوب مصر وفى الخليج طراوة الصيف؟ فى كل الساحل العربى من سوريا إلى الساحل المغربى على المحيط الأطلسى...

آثار إسلامية وعربية؟.. قاهرة الألف مئذنة والمسجد الأموى والكاظمية والأعظمية والفن العربى الاسلامى الرفيع فى تونس والمغرب.

آثار حضارات أقدم؟.. وادى ملوك الفراعنة فى طيبة.. بابل القريبة من بغداد.. تدمر وبالميرا فى بادية الشام، ومسارح الرومان فى اسبراطة وغيرها...

سياحة دينية؟ صحية ثقافية؟.. ترفيهية؟ إن السياحة الآن سياحات.

ماذا بقى وليس موجودا عندنا؟ بكثرة وغزارة.. وتنوع.. وجمال؟

إننى لا أدعو إلى «الاكتفاء الذاتى» فى السياحة ولا إلى ألا نعرف سوى أنفسنا فهى معرفة ناقصة.. ولكن أليست معرفة هامة؟... بل أليست معرفة أنفسنا هى أول خطوة على طريق المعرفة كله...

فماذا فعلنا؟

إننا لسنا فى حاجة إلى اختراع البخار وقد صرنا فى عصر الذرة. فلنفعل ما فعلوا...

لقد انتبهت كل الدول إلى أهمية السياحة الداخلى. ثقافيا وحضاريا بل واقتصاديا...

فجزء كبير من مال السياحة فى تلك البلاد، ينفق داخلها ينميها يجملها، يوسع دائرة رخائها، ويربطها ببعضها البعض.

والسياحة الداخلية عندى ليست داخل القطر، بل داخل الوطن العربى...

والمفتاح هو أن نعاملها على هذا الأساس بالأفعال لا بالأقوال. فقد صارت السياحة فى أمم شتى كأمم السوق الأوربية المشتركة سياحة داخلية.. لو اعتبر الطيران العربى طيرانا داخليا لهبطت التكاليف إلى النصف.

لو سهلت تأشيرات الدخول السياحية لتضاعف السائحون..

ول فصلنا تماما بين سياسات الحكومات ـ وأحيانا امزجتها ـ وبين تنقلات وعلاقات الأمة الكبرى.. لزالت المخاوف..

لو رصدنا أموالا نشجع بها رحلات الطلبة والشبان والشابات إلى «الخارج» ورتبنا رحلات بسيطة التكاليف وبسيطة المظاهر فى «الداخل» بين ارجاء الوطن الواحد.. لزالت معلومات خاطئة، وصفت نفوس مضللة، وحق علينا القول الكريم: «وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا».

لو وضعت الدول العربية استراتيجية لشبكة طرق ومواصلات عربية، ينفق عليها من المال الوفير غير المستثمر، من الأيدى العاملة المعطلة، لتبدلت شرايين الحياة فى الجسد العربى تبديلا.

أين الطريق البرى من بور سعيد إلى طنجة؟

أين خط السكة الحديدى الغابر من دمشق إلى الحجاز؟

أيعقل ألا يكون بين مصر والسودان إلا طرق القوافل التى انفتحت من مئات السنين دون إضافة واحدة؟

هل وضع خطة استراتيجية لشبكة مواصلات عربية؟ مسألة صعبة، كوضع استراتيجية موحدة لحل قضية فلسطين؟

نحن نطلب الأساسيات والبديهيات، ولا نعثر عليها..

أين وأين وأين.. وألف أين؟

وإلى متى لا نجد ما نكتبه إلا أن نقول: أين؟!

وجه جديد للعالم صنعه البترول!

● كان حديث الفصل السابق عنوانه «عالم من سـياحة وبتـرول.. وفضول»..

ولعلنى اعطيت بعض جوانب الحديث حقها، وذكرت أن عنصرا هاما لم تتسع الصفحات لأن يستوفى حقه، وهو البترول..

وكما ذكرت، فيما احسب، فإننى لا أتحدث عن مشكلة البترول مـن زواياها المعروفة: لا مشكلة الطاقة، ولا أسعار البترول، ولا الصراع بين دول «الاوبيك» والدول المستهلكة.. ولا الصراع السياسى الذى يستتبعه هذا الوضع الاقتصادى.. إلى آخره.

ولكننى أحاول أن أتأمل، فى سـلسلة مـن الاسـتطرادات، الآثـار الاجتماعية التى ساهم بها البترول فى هذا العالم كما نعـرفه.. وحتـى الآثار التى ساهم بها فى تشكيل نفسية الفرد نفسه.

وبغير كثير من المبالغة، كانت هناك اكتشافات قليلة غيرت وجه حياة الانسان على الأرض. اختراع الورق خلق أول صلة مدونة بين النـاس. اختراع الطباعة مثلا جعل المدونات فى متناول عدد أكبر وخلـق شـيئا اسمه التعليم والقراءة على نطاق واسع. اختراع البارود نقل الحروب من لقاءات عدد من الفرسان فى ساحة وغى بعيدة، إلى الحروب التى تشترك فيها وتقاسى منها الشعوب كلها، إذا ارادت طبعا أن تكسب حربا.

من هذا المستوى اكتشاف البترول.

فالبترول هو الذى وضع العالم على طريق الحركة الهائلة والانتاج الوفير.

صحيح إن اكتشاف البخار ثم الكهرباء كانا خطورة على الطريق. وصحيح أن اكتشاف الصحافة والاذاعة نقل صورة العالم إلى الانسان حيثما كان.

ولكن لو وقف الأمر عند هذا لما حدث ما حدث. ولما رأينا العالم الذى نعرف.

كان البخار سيقف عند حدود، وكذلك الكهرباء. فالفحم ــ الذى كان مصدر تلك الطاقة ــ يمكن أن يدير مصنعا أو يسير سفينة. ولكنه ما كان ممكنا أن تطير به طائرة ولا تسير به سيارة ولا تحارب به دبابة. وما كان أن ينتشر استخدام الطاقة هذا الانتشار.

فالنقلة الانسانية، فى مدى انتشارها، من عالم الفحم إلى عالم البترول، اشبه بالنقلة التى تمت من عالم الكتابة إلى عالم الطباعة. فصار ممكنا أن يطبع من المخطوط ملايين النسخ. وصار ممكنا أن تصدر ملايين الصحف كل أربع وعشرين ساعة..

أولا، لرخص تكاليف البترول. ثانيا لسهولة استخدامه فى ملايين الوحدات الصغيرة ــ الطائرات والسيارات مثلا ــ هذا إذا قصرنا اثره على عنصر «الحركة» وحده فى حياة الانسان، لا على عناصر تأثيره فى شتى نواحى الانتاج.. من الأنسجة إلى المطاط إلى بروتين الطعام...

صحيح أن العقل الأوربى كان هو القائد للتقدم العلمى فى القرون الأخيرة. وصحيح أن اكتشاف البارود أو الطباعة أو البخار، كان أثر «العقل الانسانى فيها» أهم من أثره فى اكتشاف «خام» البترول.

ولكن الغريب أن مادة التطور العلمى ـ سواء فى مؤلفات المؤرخين أو فى مقررات المدارس ـ حينما تتعرض للخطوات ـ أو المنعطفات الحاسمة ـ فى طريقة الثورة العلمية الصناعية تذكر ظهور البخار، ثم اللاسلكى، إلى آخره.. ولكنها لا تذكر بنفس الدرجة من الاهمية: اكتشاف البترول.

مع انهم، فى النهاية، أى الاوربيين، هم الذين اكتشفوه.

ولكن هذا الاهمال ـ أو الاغضاء ـ ربما كان مصدره أن معظم الاكتشافات السابقة يمكن إنتاجها فى أى مكان من العالم، ماعدا كل ما هو عائد إلى البترول، فهو مخزون أساسا فى مناطق محددة فى العالم. فهو مصدر الطاقة الوحيد الذى تتحكم فيه عوامل الجغرافيا السياسية إلى حد بعيد. وفى حين ظهر الفحم مثلا فى بلاد الصناعة ـ إنجلترا وألمانيا مثلا ـ ظهر البترول فى «المستعمرات» التى لم يشأ الغرب وقتها أن يعلم ابناءه أن شريان حياته الحديثه مربوط بتلك البلاد. وأن ما يأتى الغرب من هذه البلاد أهم كثيرا من الشاى، والتوابل، والعطور، والحرير الفاخر المصنوع بالأيدى.

إن الجوانب الانسانية كثيرا ما يجرى إغفالها عند تعداد العوامل المؤثرة فى الأحداث.. وهذا هو أحد أكبر جوانب النقص فى الفكر البشرى، وأحد أهم أسباب الصراعات..

لقد صار البترول عنصرا حاسما فى حياة العالم منذ الحرب العالمية الاولى. ومنذ قال «لويد جورج» رئيس وزراء إنجلترا قبل خمسين سنة: «لقد سبح الحلفاء إلى النصر على بحر من النفط». ولكن المرء يلاحظ ـ فى حدود ما يعرف ـ أن الأجيال الغربية لم تتعلم قط فى برامجها

ومدارسها ولا فى وسائل إعلامها، أى شىء عن قيمة البترول. وبالتالى لم تتعلم تلك الأجيال إن حضارتها مرتبطة فى تطورها بـأماكن بعيـدة فى القارات الأخرى «التى ظلت بالنسبة له مستعمرات»، سـواء بـالمعنى المادى أو بالمعنى المعنوى والنفسى..

لم يتعلم العقل الأوربى العام أن تقدمه مـربوط بـدرجة حيـوية ـ لا كمالية ـ بقارات أخرى وشعوب أخرى. وحتى حين انسحبت جيوشه واسلحته، ظل يحس «نفسيا» أن باقى العالم مستعمر، تابع لـه.. وأن سلعة كالبترول متاحة ـ بديهيا، وبلا مقابل تقريبا ـ كمـاء المحيـطات التى ليس لها مالك. وبالتالى تأخرت الذهنية الأوربية والأمريكية كثيرا فى إدراك ضرورة قيام علاقة جديدة، أكثر احتراما وتوازنا، مع «الآخرين».. الذين هم بالنسبة لهم: بقية البشر!

ولذلك عندما «فوجئ» الرأى العام الغربى بحكاية «أزمـة الـطاقة» رأينا ردود الفعل العجيبة الغربية، وكأن الأمر مفاجأة. واستطاع الحكام الغربيون وأصحاب المصالح الغـربية ـ سـياسية واقتصـادية ـ أن يستخدموا ذلك المزيج من الـرعب والمفـاجأة والـذهول ويـوظفوه لمصالحهم السياسية، ويسندوا تهديداتهم العسكرية.

فالعالم الغربى «نفسيا وذهنيا» مازال فى حاجة إلـى أن يتعلـم أن سائر الكرة الأرضية ليست مستعمرة له، ولا هى مكرسة لخـدمته. وأن علاقته بالغير هى علاقة «حاجة متبادلة» وليست علاقة «قوى يتصـدق على ضعيف».

وقد جرفنى موج الحديث إلى بعض شواطئ السياسة، برغم أننـى أحاول هنا أن أسبح بعيدا عنها.. لأنها شواطئ مطروقة كل يـوم وكل ساعة..

إنما أريد أن أتحدث عن الأثر الحضارى للبترول. ولكثرة الآثار وتشعبها الرحيب لابد من اختيار خيط واحد. وليكن : الانتقال والحركة..

إن الكل متفق على أن أهم تطور فى حياة العالم خلال نصف القرن الأخير، هو أن العالم صار «صغيرا». أو صار «قرية كبيرة» كما يقول «مارشال ماكلوهان». وقد صار العالم صغيراً بفعل أشياء كثيرة: البريد والبرق والتليفون واللاسلكى والصحف والاذاعة والتليفزيون..

ولكن أهم ما جعله «صغيرا» بكل ما لذلك من نتائج، هو سرعة وسهولة النقل والانتقال..

نقل الأفكار، ونقل الجيوش، ونقل الأفراد، ونقل السلع والبضائع..

النقل السيىء والنقل المفيد..

النقل السيىء، الذى صار ممكنا معه إلقاء آلاف القنابل على أقصى البلاد، وخلف خطوط القتال بمئات الأميال (دعك من الصواريخ) وبالتالى لم تعد الحروب مقصورة على الجنود، بل شاملة لأبعد البشر عن الصراع. فلم تعد هناك «قرية آمنة»! وكان هذا مستحيلا بدون البترول بالذات..

والنقل البرىء..

فبعد أن كان الرسول يسافر من بلد إلى بلد فى شهور ليبلغ رسالة.. صار عاديا أن يجتمع ممثلو مائة وخمسين دولة ـ العالم كله ـ فى الامم المتحدة طوال السنة وفى أى وقت من السنة. فالطائرات النفاثة ـ ووقودها البترول ـ اختصرت الشهور إلى ساعات.

ولسنا فى حاجة إلى تفصيل أى مثل من هذين المثلين فقط. فآثارهما

على العالم معروفة وملموسة وظاهرة كل يوم. لـولا أن الانسـان ينسى. وسرعان ما يألف الجديد الغريب ويعتبره عاديا وبديهيا ومفروغا منه!

ولكن لندخل إلى طريق اضيق، وننسى الطائرة، ونـكتفي بـالسيارة.. ومرة أخرى: السيارة كأداة ما كان لها أن تقوم وتوجد، دون اكتشـاف البترول. وما كان لها أن تنتشر دون رخص سعر البترول - حتى الآن!

ولنأخذ مجتمعا واحدا، هو المجتمع الأمريكي. لنـرى كيف أعـادت «السيارة» تشكيله حتى على المستوى الفردى..

وسنأخذ المجتمع الأمريكي نموذجا، لا لأنه حالة فريدة، ولـكن أولا لأنه سبق غيره في هذا المضمار. ولأن ما يحدث فيه، يتكرر في كل مكان من العالم تقريبا وإن اختلفت الصور والدرجات.

ولأن أمريكا بحكم اتساعها تكاد تكون قارة كاملة..

في المشهد العام، لأول وهلة، نجد أن السيارة أعادت توزيع السـكان تماما، وفي اتجاهين معاكسين في نفس الوقت:

فالسيارة هي التي خلقت المدن الكبيرة. أى التـركزات السـكانية الكثيفة. مدن العشرة ملايين سكان أو أقل أو أكثر، مثل نيويورك ولوس انجلوس ولندن وباريس وطوكيو.. إلخ. من الواضح أنه كان مسـتحيلا ظهور «المدن الكبرى» بهذا الحجم في العالم كله، بخيرها وشرهـا دون وجود السيارة. ونحن نعرف أن ظهور هذه المدن الـكبيرة، وتـزايدها، حتى يومنا هذا، خلق الكثير من القيم والعادات الجديدة، واوجـد مـن المزايا ومن الشرور على السواء، ما يعكف المفـكرون علـى دراسـته وما وضعت من أجله آلاف الكتب.

وفى عكس هذا الاتجاه، جعلت السيارة قيام التجمعات السكانية الصغيرة ممكنا فى أى بقعة من الأرض. فكما قامت مئات المدن الكبرى، انتشرت آلاف القرى. لأن ساكن القرية فى أبعد أماكن أمريكا التى كانت مهجورة، صار يمكنه أن يعيش وأن يصل إليه كل شىء على مدار السنة. من طعام وشراب وثياب وأى أدوات موجودة فى المدينة. بل إن ولايات صحراوية تماما - مثل أريزونا - صارت ولاية مأهولة مسكونة، بل وفيها أفخم أماكن الترفيه واللهو والفنادق (لاس فيجاس مثلا).. قامت هنا فى قلب الصحراء تماما. لأن السيارة وضعتها على الخريطة لأول مرة.

ذلك أن وجود السيارة بأعداد كبيرة - من الشاحنات الكبرى، إلى الحاويات المبردة، إلى السيارات الفردية - خلق صناعة ربما كانت أكبر صناعة فى العالم، وغير خريطة الجغرافيا، وهى: الطرق.. بكل أنواعها! وبكثرة كان مستحيلا أن تقوم بدلها خطوط السكك الحديدية مثلا.

انظروا إلى الطرق الكبرى فى بلادنا وفى العالم كله. الشاحنات المحملة بالخضر والفاكهة واللحوم تقطع الطرق من غرب أوربا إلى الخليج وفى أمريكا من المحيط إلى المحيط. متفرعة إلى كل مدينة وكل قرية. لأنها يمكن مدها فى السهول والصحارى، وفوق الجبال، وفى الأنفاق.. فلم يعد هناك مكان معزول. ولم يعد هناك حاجز طبيعى يحول دون تدفق الحياة وتثبيت جذورها فى أى أرض. وكان لهذا أيضا الكثير من الآثار الاقتصادية والاجتماعية والسياسية..

خلقت الحياة فى اشد المناطق برودة.. بالتدفئة، وأشد المناطق حرارة بالتبريد..

السيارة خلقت المدن الكبرى.. وخلقت الضواحى.. وفتحت أراضى جديدة للسكن والاقامة.. وللزراعة والانتاج.. وضاعفت حجم التجارة والتبادل حتى فى داخل القطر الواحد.. ومئات ملايين الأفدنة فى العالم ما كان يمكن زراعتها إلا بطرق تشق إليها، وسيارات تجرى عليها، وجرارات وموتورات تزرع وتحصد وتروى..

وكل هذا فى النهاية بمادة أساسية فى هذه الشرايين والأوردة، هى البترول..

وعندما نتأمل «ثورة الطرق» التى نتجت عن استخدام السيارة وتزايد الاعتماد عليها، نجد أنها من أهم الأشياء التى غيرت معالم الحياة، واوجدت أشكالا جديدة للحياة. لم تعد الطرق هى تلك المسالك الضيقة غير الممهدة. وفى التاريخ نجد أن «يوليوس قيصر» كان أول من انتبه إلى شق الطرق ـ بمنطق ذلك الوقت ـ ولكن لأسباب حربية، حتى يسهل مرور عجلاته الحربية إلى حيث تتجه أهدافه فى الغزو. ولكى تكون ابعد مناطق الامبراطورية فى متناول يده، يقمع أى تمرد بعيد فى أسرع وقت. وتنبه لها هتلر، فى ألمانيا التى تنافس أمريكا فى سرعة إنتاج السيارات بكثرة وبأرخص التكاليف. فأوجد الـ«اوتوبان» أو الاوتوستراد «أو» الهاى واى «حسب اللغة. وهى الطرق الكبرى، التى تتجاوز زحام المدن، وتمهد بأدوات ومواد صلبة قوية، وتسمح للسيارات بالاندفاع فوقها بأقصى سرعة.

وتنبهت لها أمريكا، ليس لأسباب حربية فقط. ولكن لأسباب تتصل بتطور الحياة وتوسيع الرخاء كما ذكرنا من قبل. وهذه الطرق الكبرى أوجدت بدورها أشياء جديدة أوجدت محطات البنزين. أوجدت «الموتيلات» أو الفنادق الصغيرة، والمطاعم السريعة. وأعيد بناء فروع

للبنوك تسحب منها المال وأنت فى السيارة. ومطاعم تأخذ منها ما تـريد وأنت فى السيارة. وحتى سينما السيارات وغيرها مما يسهل السفر بالسيارة فى بلد يصل حجمه إلى حجم قارة مستقلة.

وبسهولة الحركة والانتقال - بسبب السيارة - قل ارتباط الفرد بالمكان. فقبل ذلك، كان الانسان يعيش مع أسرته منتميا إلى بلدة أو إلى ولاية بعينها. وبتوالى الأجيال من بعده فى نفس المكان. ولكن السيارة جعلت الوطن. بالمعنى المحلى، هو حيث يوجد الرزق، وفرصة الحياة الأحسن. فالبيت الأمريكى أكثر البيوت تنقلا. حتى أطلق البعض على الشعب الأمريكى صفة أنه «أمة على عجل»!

وشيء من هذا يتسرب بالتدريج إلى سائر أنحاء العالم، تبعا لدرجة التقدم ونسبة عدد السيارات إلى السكان، وكمية الطرق المتوافرة.

وقد يمكن الانعطاف إلى حديث أدبى قصير..

فكما أن «القطار فى الأدب الروسى» صار موضوعا للبحث الأدبى فى فترة ما، بسبب طول المسافات الهائل، وأن الناس يعيشون فى القطار أحيانا أياما طويلة متوالية، تسمح بتصور مئات من الصور الدرامية. كذلك فإن قارئ الأدب الأمريكى لا يمكن إلا أن يجد أثر «السيارة» فى الفن الأمريكى.

وأضرب المثل بقصة واحدة هامة فى الأدب الأمريكى. هامة لأن مؤلفها هو «جان كيروان» أول أديب عبر مرحلة القلق فى الروح الأمريكية فى الستينات وما بعدها. ولأنها أهم أعماله (وقد مات شابا من فترة قصيرة) والرواية اسمها «على الطريق On the road». والاسم وحده يكفى للدلالة على الموضوع. وفى إيجاز شديد، فإن بطل القصة صعلوك

شاب حائر ضائع مضيع لمن حوله. ولكن روحه كأنها ليست فى صدره بل فى موتور السيارة التى يملكها أحيانا، ويستعيرها أحيانا، ويسرقها أحيانا أخرى. إنه يطوف بأمريكا من المحيط إلى المحيط. على متن سـيارة. وليس موضوعنا هنا هو القصة، فقط أشير هنا إلى شعور القارئ بـأن السيارة هى البطل الآخر فى القصة. هى المرض والشفاء. هى المشكلة وهى الحل.

وأذكر أننى عندما فرغت من قراءة تلك الرواية، قفزت إلـى ذهنـى مقارنة بين السيارة اليوم وبين الجواد بالنسبة لفارس الأمس.

إنها ـ كالجواد ـ أداة الحركة. ولكنها أكثر من ذلك. إنهـا عـلامة « الفروسية » وحافز « السرعة والانطلاق ». ورمز الجسارة.. إلى جانب أنها رمز المكانة الاجتماعية..

وليتأمل القارئ أفلام «الكاوبوى» الأمريكية ودور الجياد فيهـا. ثـم ليتأمل أفلام المغامرة الأمريكية الحديثة، فسوف يجد السـيارة تلعـب نفس الدور: المطاردات المثيرة. والسرعة الجنونية والسيارة المنـدفعة أداة للجريمة. والسيارة الناعمة أداة للحب!

نصف الأفلام الأمريكية نجد أن السيارة فيها تلعـب دورا أسـاسيا بشكل أو بآخر..

ولعلى استطردت..

ولكننى أعود لأقول: إنها جولة حرة وراء جانب من جوانب البتـرول وتأثيره فى حياة العالم.

فبغير وجود البترول، وبأسعار رخيصة (حتى الآن) لكانت الدنيا غير الدنيا التي نعرفها اليوم.

ومثل هذا الجانب البسيط، يوجد ألف جانب آخر.

محاولات «صد»...
الغزو الحضارى!

● صحيح هناك غزو حضارى تتعرض الأمة العــربية لــه. ولــكن الحديث عن «صد» هذا الغزو أمر غير وارد وغير ممكن. وإنما المطلوب شىء آخر تماما.

لست أدرى بالضبط أى «غزو حضارى» تحدث عنــه وزراء الثقــافة العرب، فى أول اجتماع لهم فى الأردن، وتنادوا للحديث عنه، وللبحث - بالتأكيد؛ - فى وسائل التصدى له، ودرء مخاطره، عن الأمة العربية...

... لست أدرى بالضبط، لأن الصحف ووسائل الاعلام مع الأسف لم تعطنا صورة كاملة عنه.

وبالتالى، فمع الترحيب الشديد بأن نفكر لاول مرة فى ايجاد تنســيق ثقافى بين البلاد العربية، فإننى لا أريد أن أظلم وزراء الثقافة بأن أنسب إليهم، ربما ما لم يقولوه أو يفكروا فيه. ولكن لأن الأمر مهم جدا علــى أى حال، فهو يحتاج إلى هذه الوقفة، ويحتاج إلى كل الفكر العــربى فى بحثه، وليس إلى وزراء الثقافة العرب وحدهم...

وأغلب الظن أنهم بحثوا موضوع «الغزو الحضــارى» مــن زاويتــه الثقافية أو الفكرية فحسب. ولعل هذا هو اختصاصهم. ولــكن «الغــزو الحضارى» أوسع من ذلك بكثير جدا. وقبل أن نسميه «غزوا» ،ونتــأثر بالمعنى المباشر للكلمة، ونشرع فورا فى أقامة المتاريس من حولنا لصد

هذا «الغزو»، علينا أن نفهم بالضبط... حتى نعرف كيف يمكننا ليس «صده»، والصد وحده أمر سلبى، ولكن كيف يمكننا «مواجهته» و«التعامل معه».

فى البدء يجب أن نتذكر أن الغزو الحضارى - وفى صورة مخففة التأثير الحضارى أمر عرفته الانسانية خلال عصورها جميعا. الجماعة الانسانية المتقدمة تؤثر على الجماعات الأقل منها تقدما بصورة أو بأخرى. إن لم يكن فى الفكر والثقافة ففى القانون وطرق الحكم. أو فى عادات الملبس والمأكل. أو فى أى أسلوب من أساليب الحياة، بل وحتى عندما تنتصر أمة ما، بالقوة العسكرية، على أمة أعرق منها تقدما، تتأثر الأمة المنتصرة بالامة المهزومة عسكريا، ولو فى أشياء أخرى بالغة الأهمية.

لقد حطمت الامبراطورية الرومانية، مثلا، حضارة الاغريق، ولكن تأثر روما بحضارة الأغريق، كان عميقا لدرجة أن حضارة روما صارت إلى حد كبير امتدادا لحضارة اليونان القديمة.

ولو نظرنا إلى قصة نزول الاسلام ثم انتشاره السريع المذهل. لوجدنا ظاهرة مشابهة ومختلفة. فقد خرج أهل الجزيرة العربية غير مزودين بأى شىء إلا بإيمانهم، وطلبهم للجهاد والاستشهاد فى سبيل الله، والمبادئ الانسانية التى جاء بها الاسلام. وبهذا وحده هزموا وحطموا امبراطوريات عريقة، مثل إمبراطورية الفرس وامبراطورية بيزنطة، ثم لم تلبث الحضارة الاسلامية أن تأثرت بالكثير من أنماط حياة الذين هزمتهم. فى الثياب. فى الطعام. فى أساليب تنظيم الدولة وإدارة الحكم. أثرت وتأثرت. وكان عصر قوتها الكبرى أيام الخليفة المأمون هو أعظم عصور الترجمة فى الفلسفة والعلوم والآداب عن الحضارات الأخرى.

كانت قد صارت من القوة الحضارية ومن الثقة بنفسها بحيث لـم تخش هذه الترجمة، بل أقبلت عليها فى نهم شديد، لأنها كانت قـادرة علـى استيعابها وتطورها، وليس الاستسلام لها أو الخضوع أمامها. فالحضارة الاسلامية لم تصبح امتدادا لحضارات فارس وبيزنطة كما حدث لـروما مع اليونان القديمة. ولكنها كانت حضارة جديدة تمـاما، كانـت هـى صاحبة التأثير الأكبر، ومصدر «الغزو الحضارى»، وإن كانت قد تأثرت ودرست واستوعبت ما سبقها من حضارات.

ولكننا الآن ــ فى هذا المجال ــ أمام وضع يختلف تمـاما عـن كل ما سبقه فى مجال الغزو الحضارى.

وضع جديد تماما، يختلف فى أمرين أساسيين:

الأمر الأول: إن ساحة التأثر أو التعرض للغزو الحضارى هذه المرة هى العالم بأكمله. الكرة الارضية كلها. بسبب ما نعرفه من تقدم وسائل الاتصال والانتقال. حتى صار العالم كما قال «مارشال ماكلوهان»: قرية كبيرة واحدة.

الأمر الثانى: أن الحضارة الأوروبية (وأمريكا وروسيا على السـواء استمرار لها)، وهى الحضارة الغازية، لا تقدم للعـالم دينـا سـماويا، ولا رسالة روحية سامية، ولكنها تقدم حضارة وقيما مـادية فى الـدرجة الأولى، مهما صاحبها من أفكار وفلسفات ونظم، ما زالت محل نـزاع، لتنظيم هذه الحضارة المادية.

حين خرج المسلم من صحرائه إلى الدنيا الواسعة لم يكن يحمل الا القرآن وسيفه!

الآن تهجم الحضارة الحديثة بأسلحتها، وأفكارها ــ حسـب جهـة

الغزو ــ وأنماط حياتها وطعامها وعلاقاتها. تهجم بطائرات لابد أن نركبها وبضائع لابد أن نشتريها. وأفلام لابد أن نراها على شاشات السينما والتليفزيون. تصل بهجومها حتى حجرة نوم الفرد في أبعد مكان، تطل باغراءاتها عليه من شاشة التليفزيون الملون، فتؤثر فيه من حيث لا يشعر، في كل نواحي حياته، توحي له بما يأكل وما يشرب وما يحب، وما يكره، وترسم له طموحاته وتحدد له أحلامه التي يجب أن يسعى إليها، وتشرح علاقاته بزوجته وبناته وأولاده.

فالهجوم الحضاري المعاصر، هجوم ساحق ماحق، تهب رياحه من كل اتجاه، وتتسرب ذرات ترابه من خلال أكثر النوافذ والأبواب إغلاقا واحكاما. تحمله إلى أنحاء الدنيا الكتب والصحف والسفن والطائرات.. وتحمله أمواج الأثير، التي لا يمكن منعها ولا الحيلولة دون أن يلتقطها أي إنسان، في أي مكان، بجهاز «ترانزيستور» صغير، لا يتجاوز حجم الكف الواحدة.

وهناك من يتصورون أن «صد هذا الغزو الحضاري» ممكن. وهناك من ينادون بذلك، مكتفين في حديثهم هذا عادة بالعموميات، والعبارات الانشائية، دون أن يقولوا لنا : كيف؟

ولو نظرنا إلى الواقع، ولم ندفن رءوسنا في الرمال، فإننا نجد أن «صد» هذا الغزو الحضاري، والاحتماء منه، مستحيل... لأنه كما قلت يدخل من ألف باب وباب، ويتسلل مع الريح، ويطير على أمواج الاثير...

لقد «احتمت» دولة اليمن، مثلا، في فترة من الفترات من هذه الحضارة بالعزلة الكاملة. ويرى المؤرخ الفيلسوف الراحل ارنولد توينبي في أحد كتبه، أنه ناقش، قبل ثلاثين سنة، أحد حكام اليمن في ذلك

الوقت عن هذا الموقف، فقال له: إنه لا يريد من حضارة الغرب شيئا يعدى بلاده... «لا الويسكى ولا البرلمانات»!.. فهو رأى الحضارة الحديثة بكل حسناتها وشرورها، ووجد أنه لابد من المنع الشامل... وكانت النتيجة ما نعرف.

واليوم... لا يوجد أحد فى منجاة عن «الغزو الحضارى» إلا بعض قبائل العرايا فى وسط افريقيا، وقبائل «البابوا» فى جزر جنوب شرق آسيا، وحتى هؤلاء، اكتشف العالم وجودهم. وثارت مناقشة منذ سنوات، طريفة وأليمة، بين من رأوا ضرورة تمدينهم بالتدريج، ومن رأوا الابقاء عليهم كما هم، نموذجا حيا مستمرا لانسان العصور الأولى.. أى كالاحتفاظ بأنواع بعض الحيوانات وحمايتها من الانقراض!

بعد ذلك، لنأخذ نموذج أى بلد، كائنا ما كان، على الكرة الأرضية، يريد أن يحيا بشكل أو بآخر.

إنه بالتأكيد سوف يحتاج – مهما ضيق على نفسه – إلى أشياء أساسية من العالم الصناعى المتقدم. طائرات مدنية. سيارات. معدات لرصف طرقه. درجه من التصنيع والآلات. مطبعة وورق وجريدة.. مواد بناء.. أجهزة راديو تلتقط أنباء العالم كله.. إلى آخر السلسلة حسب درجة رخاء كل بلد...

ومع هذا كله سوف يرى الناس ويسمعون وسوف تقوم مدن. والمدن – حتى لو سكنها أهلها فقط ـ غير الريف والبادية. بمعنى إنها تغير أنماط الحياة. الأسرة الكبيرة مثلا تتحول إلى أسر صغيرة بحكم المساكن الحديثة الضيقة. عادات الأكل والملبس تتغير. المدارس تفتح. تعرض الأبناء لمؤثرات غير البيت، بل وغير المدرسة، يحدث أثره فى

عقلياتهم وطريقة تفكيرهم ونوع تطلعاتهم. ولكن مع هــذا كلــه يــأتى الأجانب كخبراء لا مفر منهم، ولامفر من تأثيرهم فيمن يحتكون بهــم، والدولة ذاتها لا بد أن ترسل أبناءها إلى الخارج لــكى يتعلمــوا إدارة هذه الأمور فى شتى مناحى الحياة.. وبالتالى يتعرضون لكل الغبار الذرى المتساقط من جو الحضارات السائدة فى البلاد التى يــذهبون إليهــا. ويعودون إلى بلادهم مشبعين بدرجات متفاوته بهذا الغبار، ناشرين لــه من حولهم.

هذا تصوير بسيط ومتواضع لحظ أقل البلاد شأنا وأبعدها موقعا، من وجوه التعرض للغزو الحضارى المعاصر. وقــد ذكرت بعض الأولــويات التى لا مفر منها. ولم أذكر ما يحدث فعلا من أضعاف أضــعاف ذلك. فأين المفر من هذا الغزو؟ وكيف يمكن «صده»، بمعنى إحكام الأبواب والنوافذ دونه؟ وما بالنا إذا كنا نحن العرب بالذات لسنا شعبا بــدائيا، ولا نقع على هامش الدنيا، بل إننا أمــة تتــوسط العــالم جغــــرافيا واستراتيجيا، ووثيقة الصلة بمصالح عالمية كبرى، ولها أكثر من مــاض وأكثر من تراث. ولها سابق عهد بانوار الحضارة والمعرفة والاحتــكاك بالعالم والنصر والهزيمة والاحتكاك بالحضارات الأخرى وتحديها؟

أين المفر؟

وهل يمكن ــ كما يــظن البعض ــ أن الحضـــارة الغــازية، يمــكن «تعقيمها» عند الحدود، كالشخص الذى يجب أن يحمل شهادة تــطعيم ضد الكوليرا، بحيث تدخل الحضارة دون «أمراضها»...؟

هناك طبعا أشياء يمكن إيقافها عند الحدود بهذا المعنى. ولكن هناك ما يعتبر جزءا لا يتجزأ منها بحيث لا يمكن معالجتها بأى مصــل كان.

كأثر الانتقال إلى المدن الكبرى فى تكوين العلاقات الأسرية، أو كأثر برامج الاذاعة الملتقطة عبر موجات الاثير.

إذن، فما العمل؟...

إن الانغلاق مستحيل، لأن معناه أن ندير ظهورنا للحياة، ونعتزلها تماما. ثم إنه حتى لو أردناه فهو غير ممكن لأننا إذا اعتزلنا الحياة فإن ديناميكية الحياة المعاصرة لا تعتزلنا وليست مستعدة لذلك. وأسباب عملها مع غزونا حضاريا كثيرة. فهى إما ـ عقائديا ـ تريد أن تنشر بيننا مذاهبها، وإما ـ تجاريا ـ تريد أن تبيع فى أسواقنا بضائعها. وإما ـ اقتصادية ـ فهى تستورد أو تشترى أو تحصل على ما لدينا من خامات تريدها.

إذن، فما العمل؟..

يجب فى البداية أن نستبعد من لغة القول عندنا عبارة «صد الغزو» الحضارى، لما توحى به من معنى سلبى، إنغلاقى، وغير ممكن تحقيقه. وإنما من الأنسب أن نستخدم فى هذا العنوان «مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه».

وليس الامر طبعا تغيير جملة بجملة، أو عنوان بعنوان. وأهمية العنوان ليست إلا فى أن يعطينا ـ نفسيا وذهنيا ووجدانيا ـ المؤشر الصحيح، إلى الاتجاه الصحيح.

مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه معناه:

* أن نفتح عقولنا تماما للتحديات الحضارية بكل صورها. يجب أن نقرأ كل شيء، ونسمع كل شيء، نناقش كل شيء. ويجب ـ فى الجانب

المادى ـ أن نتعلم وندرس كل فروع المعــرفة الحـديثة،واستخداماتها التطبيقية العملية، ابتداء من السلاح العسكرى وانتهاء إلى السلع التى تسهل حياة المواطن فى العصر الحديث.

فى الجانب المادى، لا يكفى أن نكون «مشترين» فقط. إنما يجب أن نتقن الفنون والعلوم المتصلة بجوانب الحضارة المادية، وهو الجـانب الطاغى، حتى نطوعها لارادتنا، ونشارك فى التحكم فيها. وإننــا لنــرى أمامنا كيف أقبلت إسرائيل مثلا على جانب العلوم الالــكترونية، علــوم المستقبل بالذات. فركزت عليها حتى استطاعت أن تكون منتجة لأجهزة التحكم والتصويب المطلوبة الآن فى كل قطاع.. وبالتالى اســتطاعت أن تصنع الطائرة الحربية، والصواريخ الصغيرة، والزوارق البحرية، وبعض أنواع الطوربيد. وعلى نطاق أوسع، رأينا كيف عكفت اليابان على دراسة كل علوم الحضارة، ثم لم تلبث أن تفوقت، وسبقت.

وفى الجانب الفكرى، لا يجوز أن يكون هناك أمــام مــراكز البحــث والجامعات والمعاهد جدار، ولا أن يكون هناك ممنوع.

وإذا اتفقنا على هذا المبدأ الأولى العام، فإنه بعد ذلك يــظل لنــا دائما حق الانتقاء، فى كافة المجالات، فقد تضطر دولــة ازاء ظــروفها الاقتصادية أن تحظر استيراد سلع كمالية معينة مثلا.. ولكن السلع هى نتاج العلم وليست العلم ذاته.. وحظر استيراد الســلعة أو تحــديده لا يعنى حظر استيراد العلم نفسه أو تحديده.

* ولكن إذا فتحنا صدرنا وفكرنا للحضارة الحديثة، فمن أين يــأتى عنصر المقاومة لما هو ضار منها أو غير مناسب لنا، ومن أيــن تــأتى الحصانة؟

هذا يقودنا إلى الركن الثانى اللازم والضرورى من أركان «مواجهة التحدى الحضارى والتعامل معه».

هذا الركن الثانى قد تفتقده بلاد نامية غيرنا، ليس لها تراث، ولكن فى حالتنا بالذات، فإن لنا فى أرضنا جذورا ضاربة إلى أعماق بعيدة جدا، من الدين، والتراث، والتاريخ، والعادات والتقاليد.

إن عملية إحياء هذه الجذور، هى هذا الركن الثانى. هى سلاحنا الحقيقى فى مواجهة «تحديات الحضارة». السلاح الأعمق والأقوى من سلاح الانغلاق بجدرانه الواهية التى لا تمنع شيئا.

هذه الجذور الضاربة إلى أعماق بعيدة فى أرضنا، قد طال بها الجفاف. لم تشرق عليها الشمس ولم يرو عطشها الماء منذ أزمان وأزمان.

لا شىء يجعل هذا كله يورق من جديد، إلا تعريضه لضوء البحث والمناقشة والاجتهاد. فيتجدد شباب الشجرة الوارفة كلها. تسقط منها الأوراق الميتة التى علقت بجوهر تراثنا فى عصور الاضمحلال والظلام. وتزهر الغصون والأوراق الأصلية، المليئة بالحياة.

هذا الاحياء المستنير المتفتح الواعى، هو الذى سيجعل الحصانة من بعض أمراض الحضارة كامنا فى كل نفس، وجزءا من تكوين مجتمعنا الذهنى والنفسى. حصانة لا تقاس بها أبدا حصانة مصطنعة من الأبواب والنوافذ المغلقة، ودفن الرءوس فى الرمال، فى عصر تتسرب فيه ذرات الحضارة ـ كما قلنا ـ على موجات غير مرئية من الأثير.

ولكى ننتقل من مجال التعميم إلى مجال التخصيص والتحديد.

خصوصا أن الحديث قد بدأ باجتماع وزراء الثقافة العرب، وفى رعـاية المنظمة العربية للثقافة والفنون والعلوم، فإن هناك مثلين محددين، أرى أنه من الضرورى أن يرى كلاهما النور، وهما يعبران ـ كمجرد نمـاذج ـ عما أقصد إليه...

فى مجال الاحاطة بكل عناصر المعرفة الحديثة، ماذا نجد؟

نجد أنه ليس لدينا إلا دور للنشر، قامت أساسا كعمل تجارى، وهذا حقها. فهى تختار الكتب التى تتوقع رواجها. والتى لاتكلفها كثيرا، فتقبل عليها تترجمها وتطرحها فى الأسواق. وهناك حكومات تنـافس دور النشر الفردية فى هذا الأسلوب.

ولكن المطلوب فى مجال الترجمة، أمر آخر تماما، لو يتم فإنه لن يقل قيمة عن فتح عشر جامعات ضخمة بأكملها.

إن الشاب فى إنجلترا ـ مثلا ـ يشب فيجد كل أمهات الكتب، كتـب النصوص الأساسية، موجودة ميسرة له فى لغته حتى ولو كانت مكتوبة فى أصلها بالألمانية أو الفرنسية أو الروسية... ولغات أخرى كثيـرة، إنـه سيجد فكتور هيجو بالانجليزية مثل شكسبير تماما، وفلسفة شـوبنهاور وكانت الالمانية بالانجليزية، مثل فرانسيس بيكون. ودستويفسكى الروسى فى لغة شارلز ديكنز. ولا أستطيع أن أضرب أمثلة بكتب سـائر العلـوم. المهم أنه لا يجد أن اللغة عقبة فى طريق توغله فى العلم الذى يختار وفى سن مبكرة. هذا يجده الطالب والباحث الأمريكى والانجليزى والفـرنسى والألمانى والروسى. ومنذ سنوات كانت اليابان قد أرسـلت شـابا إلـى القـاهرة يقضى سـنوات لتعلم اللغةالعربية بهدف أساسى هو: تـرجمة «ابن خلدون» إلى اللغة اليابانية.

فى بلادنا العربية لا تجد هذا. لا يحيط بهذا إلا أحد اثنين. أما ذلك الذى تفوق وأرسلته بلده إلى بعثة فى الخارج، وهو نوع نادر فى عـددده. أو ذلك الشديد الاصرار، الذى يقضى سنوات لاتقان لغة أجنبية واحـدة ليعرف كنوز وفكرها، عن طريق مباشر.

وقد ناديت كثيرا بأن هناك ألف كتاب أساسى ــ مثــلا ــ فى شــتى العلوم والفنون، يجب أن يجدها الشاب العربى فى لغته. وترجمة هـذه الكتب تكلف كثيرا. نعم. ولكنها حتى على المستوى التجارى ســتكسب. لأنها هى الكتب التى ستقرؤها الأجيال مئات السنين. وهـى مـع ذلك تكلف أقل من مبانى كلية جامعية واحدة! ولكن أثرها ــ كمـا قلـت ــ يفوق إقامة عشر جامعات جديدة!

ولو فعلت وزارات الثقافة أو التربية العربية ــ مجتمعة ــ هذا الجهد، لحققت قفزة هائلة فى استيعاب شبابنا لجوهر الحضارة، فى سن مبـكرة، سن التشبع وما قبل الابداع وقبل بلوغهم سن التعب والعقم.

انتقاء الترجمة حاليا ــ مما يغرق الأسواق ــ يتم إما لأغراض تجارية أو سياسية، أو غيرها. لأن هذا الجهد المطلوب، نقل الحضارة الحديثة إلى اللغة العربية مرة واحدة وإلى الابد، يحتاج إلى جهد آخر، ودافـع آخر وأسلوب آخر فى الانتقاء...

وبالمقابل، فى باب احياء التراث...

مرة أخرى، نجد أحيانا بعض جهود مشكورة. ولكنا نجد على الاغلب أن نشر التراث أخذ طابع التجارة. أو طابع عدم التمييز. فكل كتاب مرت عليه السنون وعلاه التراب، فهو تراث، يعاد تحقيقه ونشره على الناس.

فى حين أن هذه عملية يجب أن تتم من خلال انتقاء شديد، يفرق بين

السمين والغث، بين فكر عصور النهضة وبين فكر عصور التخلف، فتاوى عهود العدل وفتاوى عهود الزلفى والملق والانتفاع، فإلى جانب الواجب الأصلي وهو أن نفهم ديننا وتراثنا على وجهه الصحيح ،فـإننا نـريده غذاء نفسيا وعقليا قويا، يواجه به شبابنا ريـاح «الغـزو الحضـارى» يستوعبونها ويستخدمونها، فلا تجرفهم ولا تستخدمهم...

يبقى الركن الثالث الذى لايتجزأ فى ضرورته، عن الركنين السـابقين معا.. وهو، ضرورة البحث عن إجابة ما، لسؤال هام، وهو : أى صـيغة حضارية نريد الوصول إليها، ونراها منـاسبة لنـا، ونسـاهم بهـا فى الحضارة الحديثة الانسانية بوجه عام؟...

سؤال ليس من السهل الاجابة عليه، وبالتالى لا نتوقع أن يجيب عليه اجتماع وزراء، أو مؤتمر مفكرين، ولكن الاجابة قد تأتى إذا طرحنا أولا السؤال على الذهن العربى العام، وإذا نجحنا فى أن نجعله يشغل بـال كل القيادات فى بلادنا.. بـالمعنى الـواسع للقيـادات.. أى القيـادات السياسية والفكرية والعلمية والفنية.

وهو سؤال حاولنا أن نطرحه فى مجلة «العربى» فى أعداد كثيرة.. من زوايا مختلفة.. اقتصادية أو اجتمـاعية.. ولابـد أن نمضى فى طـرحه، والالحاح عليه، وفتح باب المناقشة فيه...

فمن ناحية، لا شك أن للحضارة الحديثة أمراضها، التى ظهـرت فى المجتمعات المتقدمة والتى يبحث فيها أصحابها أنفسهم ويبحثون لهـا عن علاج. فقيام المدن الضخمة المزدحمة، خلق ظروف الحيـاة غيـر الصحية، ونشر أنواعا جديدة من العنف والجريمة، وقيام الصناعات بلا تخطيط جنى على البيئة ولوثها.. وترك وسائل الاعـلام لعنصر الـربح

أفسح المجال للاباحية ولأشكال عديدة من الانحلال. فمن واجبنا إذن ألا نبدأ كما بدأوا وننتهى تماما إلى ما انتهوا إليه. إنما علينا أن نفيد من الدروس.

ومن ناحية أخرى، فإن عددا كبيرا من العلماء يطرحون سؤالا هاما: هل التنمية المادية كما حدثت فى الغرب هى المعنى الوحيد «للتقدم». وهل على دول العالم الثالث أن تسلك نفس الطريق، وتخضع نفسها لنفس الضرورات، حتى تصبح متقدمة، أم أن هناك ترجمات أخرى لمعنى التقدم، وأنماطا أخرى للحياة؟

مناقشة لن أتوسع فيها هنا. فالمقصود فقط مجرد الاشارة إليها، فى مجال الحديث عن كيفية «مواجهة التحديات الحضارية» بأكثر من سلبية تعبير «صد الغزو الحضارى» الذى يوحى بسياسة انغلاق، وبنفسية الحياة فى مدينة محاصرة، فى حماية أسوار عالية، وهى حتى بهذه السلبية لن تقوى على صد أى غزو حضارى...

وبالمناسبة، منذ سنوات بعيدة، كنت فى رحلة إلى اليابان.

والتقيت هناك بشاب صحفى فلسطينى اسمه الأستاذ عمر طه. كانت قد أرسلته جريدة «الأنوار» اللبنانية إلى طوكيو، فى مهمة صحفية. ولكن الحياة هناك راقت له. وقال لى إنه قرر البقاء فى اليابان. وتزوج فتاة يابانية. وكان لى خلال إقامتى نعم الرفيق، بحكم معرفته - المبدئية فى ذلك الوقت - بالبلد، ولغتها، وعاداتها...

ومرت سنوات طويلة...

ومنذ بضعة شهور تلقيت منه رسالة من اليابان، مكتوبة على آلة كاتبة

باللغة العربية، ومعها كتاب إعلامى بالغ الأناقة عن اليـابان، مـطبوع باللغة العربية أيضا...

وفى الرسالة يذكرنى بلقائنا القديم فى طوكيو، ثـم يقـول: «..لقـد أمضيت حتى الآن عشرين سنة فى اليابان بالتمام والكمال. وأعمل حاليا رئيسا لتحرير دار نشر وطباعة باللغة العربية هى الـوحيدة فى اليـابان. والكتاب المرفق واحد من مطبوعاتنا. وقد تستغرب إذا مـا علمـت أن منضدى الحروف لدينا لا يعرفون شيئا عن لغتنا. ومع ذلك ليس هناك ما يعتبر مستحيلا فى دنيا العلم والطباعة بالعقل الالكترونى . فقد حـولنا الساعة إلى أحرف عربية، وكذلك فعلنا بـالنسبة للحـاسبة الصـغيرة والكبيرة. وأخيرا وليس آخرا بالمبرقة الأولى باللغة العربية.. وإذا أتيت فسوف تعجبك أمور أهم وأكثر مـدعاة للـدراسة والتقييـم. بـل إن السكرتيرة التى تطبع هذه الرسالة لا تعرف لغتنا العربية! ثم إن الآلـة الكاتبة العربية هذه من صنع يابانى، فتأمل! والله الموفق، مـع أطيـب التمنيات ومزيد من النجاح»

مطابع باللغة العربية يعمل عليها عمال يابانيون لا يعرفون اللغة؟

آلة كاتبة عربية تعمل عليها سكرتيرة يابانية لا تعرف اللغـة. وهـذا وذاك فى طباعة أنيقة ليس فيها غلطة واحدة؟

أولا: كيف يكون ذلك؟! إننى أعترف أن معلـوماتى - أو فـلأقل خيالى - العلمى المحدود لم يفهم من هذه السطور شيئا. وقد وجدت أن خيالى هذا يستوعب هبوط مركبة فضائية على المريخ ولا يسـتوعب قيام عمال يابانيين بطباعة كتب بلغة عربية لا يعرفونها! وإننى لأتمنـى على الأستاذ عمر طه أن يرسل لى وللقراء مزيدا من الشرح للعملية. أو

فليفعل ذلك أحد مهندسي الطباعة عندنا الذين أعتقد أن فيهم بـالتأكيد من يعرف شيئا عن ذلك!

ثانيا: ماذا أبقى العلم الحديث للانسان؟

إذا كانت مراكز العلم والتكنولوجيا المتقدمة فى العالم، قد سـيطرت - وتزداد سيطرة - على سكان هذا العـالم فى ثيـابهم وطعـامهم، والاذاعات التى يسمعون، والأفلام التى يرون، وسيطرت على ما يركبونه من سيارات أو طائرات، وما يستخدمونه من أجهزة اتصال، أو سـلاح، وحتى إنتاج المواد الغذائية. فى أى أرض، وفى أى طقس... فقـد كان باقيا لكل شعب من خصوصياته شيء أساسى على الأقل، هـو: لغتـه القومية!

فالكتاب العربى مثلا لابد أن يطبع فى بلد عربى، أو إذا طبع فى بلـد أجنبى فبأيد عربية، أو أيد درس أصحابها اللغة العـربية. المهـم، أن أصحاب أى لغة تظل لهم ميزة على غيرهم ولو فى هذا المجال.

ولكن، ها هو ذا العلم يقتحم حتى هذه الخصوصية ويطوعها له. أى صار ممكنا أن نجد بلدا أجنبيا يتفوق علينا ويسبقنا فى طباعة مؤلفاتنا، وأفكارنا، وتراثنا، ويصدرها إلينا، دون أن يكون فى حاجة إلى أن يعرف شيئا عن لغتنا.!

أليس هذا وحده كافيا لأن يشعرنا «بصدمة حضارية» عنيفة؟ أليس كافيا لأن يشعرنا بالعصر الذى نعيش فيه؟ وبتفاهة ما نضيع فيه وقتنا، ومواهبنا، وأموالنا؟

دفاع عن بعض القيم القديمة
فى عالم يسوده العنف والخوف!

● أحيانا يحتاج الأمر إلى الدفاع عن بعض القيم القديمة.

وربما كان اسم «القيم القديمة» اسما غير دقيق. وربما كان من الأصح أن نسميها «القيم الثابتة».

ذلك أن هناك قيما اجتماعية يطويها النسيان، أو يقهرها التطور، بعد أن تكون الظروف التى أنشأتها قد تغيرت، وإلا ما كان هناك تغير ولا تطور ولا تقدم...

فالعصبية للقبيلة مثلا قيمة كانت تعد فضيلة وقت ان كانت المجتمعات وحدتها الكبرى هى القبيلة. ولأن هذه العصبية للقبيلة كانت ضرورية لحفظ حياة القبيلة. ولكن حين يزول هذا الوضع تصبح هذه العصبية عيبا فى المجتمع وعقبة فى طريق نموه، حين تحل الدول والمدن الكبيرة وأنواع العمل الجديدة محل ما كان سائدا من قبل.

والتباهى بالأصل وحفظ الأنساب أيضا، كان فضيلة، وكان ضرورة معا، قبل أن تحل قيمة العمل محل قيمة الأصل. وقبل أن تحل السجلات والأضابير محل حفظ الانساب فى الذاكرة وبالتواتر.

والذين يدافعون عن كل قيمة اجتماعية قديمة، ولمجرد أنها قديمة، لمجرد أن هذا ما وجدنا آباءنا عليه، يتخذون موقفا متزمتا غير منطقى وغير قابل حتى للتطبيق، لأن الحياة دائما فى تغير وتطور وتجديد.

كذلك فإن الذين يلتقطون كل بدعة جديدة، ويتعلقـون بـأذيالها، أو يركبون موجتها، لمجرد أن يقال عنهم إنهم عصريـون، هـم بـدورهم يتخذون موقفا خاطئا وغير منطقى. ذلك أن الحيـاة بـكل تعقيـداتها والخضم الهائل الذى لا قرار ولا ثبات له، كثيرا ما تقذف إلى سـطحها بالزبد الذى لا يلبث أن يذهب جفاء. وكثيرا ما تكون بعض الفلسـفات، أو العادات، أو القيم التى تشيع فى مرحلة ما، مجرد مرض من أمراض التطور. لأن كل حضارة لها أمراضها، وكل تطور له مشاكله.

الموقف السليم هنا ليس رفض التطور، اتقـاء لمـرض أو داء قـد يصاحبه... وليس فى الاحتفاء بالمرض، وعدم إدراك أنه عرض.

إنما الموقف السليم هو أن نمضى فى ركب التطور، ونتقبل مخـاطره، ولكن بعقول واضحة، تعامل التطور على أنه تطور، وتتبين الداء، وتعامله على أنه مرض يجب مقاومته، أو التقليل من مخاطره قدر الامكان.

فتحرر المرأة مثلا، وتعليمها، ونزولها ساحة العمل إذا شاعت.. مسألة حسمها التطور، وكان لابد أن ينتج عن هذا اهتزازات اجتماعية معينة، ومشاكل تأتى معها، ولكن الحل ليس فى النكوص إلى الوراء. ولا هو فى الاستسلام للجوانب السلبية. إنما هو فى محـاولة القبض علـى زمـام التطور، بحيث يكون إيجابيا وصحيا قدر الامكان.

أسوق هذا الكلام متأثرا برحلات سريعة قمت بها إلـى عـدد مـن البلدان والدول الصناعية والمتقدمة، وعائدا بالذاكرة إلى رحلات سابقة قديمة إلى هذه البلاد ذاتها، أو مثلها...

فمنذ سنة ١٩٦٠ تقريبا، تعرضت الدول المتقدمة لهجمات عنيفة من جهات شتى وعلى مستويات مختلفة، حتى وصلت إلى الحالة التى نراها

سائدة الآن بشكل مرعب... من انتشار العنف، وطغيان الجريمة، ومـن إباحية تكاد لا تعرف حدودا. ويراها بعض الناس جزءا مـن التقـدم والحضارة، لمجرد وجودها فى عواصم العالم الكبرى، غير مـدركين أن هذه أعراض لأمراض، وأنها فترات عرفتها حضارات كثيـرة. بعضـها قضت عليه هذه الأمراض، وبعضها تمكن من مقاومتها والتغلب عليهـا وتجاوزها.

وضرورة هذا الحديث، هى أننا سائرون بشكل أو بآخر للأخذ بـكثير من أشكال التطور التى سبقتنا إليها مجتمعات أخرى. وأن بعض شبابنا يقبل على هذه الأعراض على أنها عصرية لا على أنها أمراض.

فى أمريكا مثلا تزايدت جرائم العنف حتى كادت المدن الكبرى تخلو من سكانها، فقد هرب السكان الأغنياء أو القادرون بوجه عام من قلـب المدن الكبرى، إلى ضواحيها البعيدة. وأدى هذا إلى ثـورة سـكانية. فبعد أن كانت المدينة الكبيرة هى مطمح الساكن، أو رمز القادر، صارت سكنى الضواحى هى هذا الرمز، وحين نقرأ عن إفلاس أقوى مدينة فى العالم مثل نيويورك. فالسبب هو أن أهم دافعى الضرائب هجروها.

وكانت معظم التحليلات تقول: إن ظاهرة العنف هى ظاهرة أمريكية بحتة. فقد ولدت أمريكا بالعنف على أساس إفناء شعب آخر هو الهنود الحمر، طبقا لقانون الغابة الأول وهو أن البقاء للأقوى، ثـم اسـتعباد شعب ثان وهو الزنوج عبر قرون طويلة. وأن حياتها الاقتصادية التـى نشأت بلا قيود كان حظ الانسان فيها يتحدد بسرعة إطـلاق مسـدسه. واتخذت المنافسة التجارية والاقتصادية نفس الطبيعة. وكما تضـخمت المؤسسات هناك تضخمت الجريمة، فظهر ما صار يسـمى بـالجريمة

المنظمة. ابتداء من عصابات المافيا الشهيرة. إلى حلقات الاجرام التى تشترك فيها أحيانا أسماء كبيرة.

ثم إنّ هذا العنف انتقل إلى ميدان السياسة بشكل مخيف. ففى حياة جيل واحد قتل رئيس أمريكى هو جون كنيدى. وقتل مرشح للرئاسة هو روبرت كنيدى. وأصيب مرشح آخر للرئاسة بالشلل بسبب إطلاق النار عليه هو جون ولاس. وقتل زعيم حركة الزنوج وهو مارتن لوثر كنج. وأخرج رئيس جمهورية هو ريتشارد نيكسون لأنه حاول التستر على جريمة. ودخل السجن وزير العدل فى عهده لاشتراكه فى نفس الجريمة مع أبرز رجال الرئيس فى البيت الأبيض.

وقيل فى تفسير هذه المرحلة الدامية فى حياة أمريكا : إن سببها هو حرب فيتنام. حين تخطى منطق التدمير الأمريكى للبلد الصغير الفقير، منطق الحرب المألوف بين أكفاء، ولأسباب واضحة، تبرر للانسان أن يموت فى سبيل بلده، بينما كان الأمريكى العادى لا يجد مبررا لأن يموت فى غابات فيتنام، ولا يجد كذلك مبررا لاستخدام أقوى أداة حربية فى العالم لتدمير شعب فقير، بسيط، يلبس أبسط الثياب ويأكل أقل الطعام ولكن له إرادة من فولاذ.

ولكن الكثير جدا من هذه المظاهر انتقل إلى أوروبا.. سواء فى مجالات العنف العادى أو العنف السياسى والاجتماعى...

فقد رأينا فى فرنسا مثلا انفجارا عنيفا هائلا سنة ١٩٦٨، فى أوج مجد ديجول، وباتت البلاد على شفا حرب أهلية لبضعة أيام.

ثم بدأت فرنسا تعرف جرائم القتل فى الشوارع للشخصيات السياسية. ثم تتكشف الأمور عن فضائح مالية فى الدوائر العليا...

وعرفت فرنسا الجريمة المنظمة. التى تتصدى بأرقى وسائل العلم لعمليات كبيرة، كسرقة بنوك بأكملها.

كذلك رأينا فى ألمانيا النشاط العنيف لجماعة «بادر ـ ماينهوف». وظهور حركات فوضوية أكثر مما كان يبدو على السطح، سلاحها الخطف والسلاح وإلقاء القنابل.

وإيطاليا صارت من أهم مسارح العنف فى العالم. جرائم القتل الغامضة. خطف الأغنياء طلبا للفدية الضخمة. النسف والاضراب والمواجهات الحادة مع السلطة.

وإلقاء القنابل فى شوارع لندن صار أمرا عاديا.

والأنواع الفردية الشاذة من العنف صارت تشغل الصحف كل يوم. فالرجل الذى سمى نفسه «ابن سام». وقتل ثمانى فتيات فى بضعة شهور بنفس الطريقة، حكم على مدينة نيويورك كلها بالرعب شهورا طويلة.

هذه القضية، قضية انتشار العنف والجريمة فى شتى البيئات والمستويات، وعصابات الشباب التى تستخدم العنف ابتداء من معارك الشوارع ضد بعضها البعض إلى هجماتها بالقنابل أو الرصاص، وكل مظاهر إفساد الحياة العامة على أصحابها.. فى الحدائق، أو دور السينما... هذه القضية بدأت تحدث رد فعل معاكس، وتبحث عن تفسيرات شتى..

مثلا، اتهم ناس كثيرون رجلا واحدا هو «دكتور سبوك». ودكتور سبوك طبيب أطفال أمريكى عجوز، أصدر فى شبابه كتابا عن طرق العناية بالطفل وتنشئته. وترجم الكتاب إلى أكثر من ثلاثين لغة. وقيل إنه خلال العشرين سنة الماضية كان أكثر الكتب توزيعا فى العالم كله،

بعد الكتب المقدسة. وكان كتابا ثوريا، اعتبرته كل أم دليلا لها. وفلسفته العامة تقوم على حرية الطفل وعدم استخدام الحدود والقيود معه، حتى سن الشباب..

وقيل إن هذا الجيل الساخط الثائر المدمر هو تربية دكتور سبوك، وطالب المربون والأهل بالعودة إلى الأسلوب القديم من ضرورة الحزم مع الأبناء والبنات فى سن الطفولة والصبا. والعودة إلى عقوبة الضرب وغيرها فى المدارس. حتى ينشأ الشاب وهو يعرف أن هناك المقبول وغير المقبول. والجائز وغير الجائز.

وقد تنصل دكتور سبوك من هذه التهمة. وبرغم أنه فى شيخوخته ظل ثائرا، وقاد مظاهرات ضد حرب فيتنام فى أمريكا. وحوكم أمام القضاء وحكم عليه وهو على وشك السبعين، إلا أنه تبرأ من الجيل الذى قيل إنه رباه. وعدل عن بعض آرائه وتمسك بغيرها.

وقد اتخذت من دكتور سبوك رمزا على الجانب التربوى للقضية.

وشيء من هذا فعله الفيلسوف الألمانى الأصل، الأمريكى الجنسية حاليا، هربرت ماركوز، حين وجد أن اضطرابات الشباب وعنفها غير المفهوم، تنسب إلى كتبه وتعاليمه.

ولأن فرنسا «الديكارتية» هى بلد الفلسفة والتحليل... فقد شكل رئيسها فاليرى جيسكار ديستان لجنة واسعة، تضم كل الاتجاهات والتخصصات لدراسة ظاهرة العنف.

وقضت اللجنة ستة عشر شهرا تدرس وتبحث، ثم خرجت بتقرير من سبعمائة صفحة.

على أن أهم ما فى التقرير أنه أرجع انتشار ظاهرة العنف، حتـــى فى العلاقات الانسانية، إلى التوتر النفسى الذى يخلقه أمران:

الأول: هو تضخم حجم المدن الكبيرة وازدحامها

والثاني: هو المجتمع الاستهلاكى الفاحش الذى يتزايد كل يوم...

وفى إنجلترا، تلتقى معظم التحليلات عند نقطة أســاسية، هــى: أن الطبقة المتوسطة فى المجتمع، التى هى قوام الاستقرار والقيم الثـابتة فيه، قد استسلمت لهجمات فئات أخرى اجتماعية أكثر عــددا، وأكثــر صخبا، فكان ما نراه الآن من عنف، ومن إباحية وانحلال...

ورغم أن هذه الأسباب الثلاثة، ليست فى رأينا هى كل شىء، إلا أنها هامة وصحيحة، ولابد من الوقوف عندها قليلا...

مأساة المدن الكبيرة:

إن تعريف المدينة منذ القدم هو أنها المكان الذى يسكنه النــاس، لأن مكان كسب رزقهم يقع فيه..

وعندما كانت الزراعة هى الغالبة، كانت الناس تسكن القرى الصغيرة المتباعدة، حيث يعرف الناس بعضهم البعض، الأمر الذى يعتبر فى حد ذاته وازعا كافيا للفرد، لما يلحق باسمه واسم أسرتــه مــن جـراء أى تصرف غير مقبول. وكانت المدن للتجارة، ولمقر الحكم والسلطة.

ولكن مع ظهور الصناعة، وتضخمها، وتجمع مئات الآلاف فى مــراكز الانتاج، بدأ ظهور المدن الكبيرة وتفاقم عدد السكان، فصار عدد سكان طوكيو مثلا ١٢ مليونا، وفى حدود الثمانية ملايين ساكن تــوجد لنـــدن

وباريس والقاهرة. وفوق تكدس السلطة، وتضخم البيروقراطية، وبريق حياة المدن، صارت ظاهرة الزحف على المدن الكبرى ظاهرة عالمية.

وفى المدن الكبرى لابد أن يوجد من الناس أنواع وأخلاط. ولابد أن يجر التزاحم على الرزق إلى التدافع بالمناكب. ولابد من تجاور الغنى والفقر تجاورا مباشرا ويتجاور العلم والجهل بنفس الطريقة. ولابد أن تلهث الخدمات وراء تزايد البشر فلا تكفى حاجة الجميع. وتضيع هوية الفرد فى هذه الغابة البشرية.

ولذلك اقترحت اللجنة الفرنسية مثلا أنه يجب أن يراعى فى المستقبل أن لا يزيد عدد سكان أى مدينة عن مائتى ألف نسمة. وهو رقم اقترحه قبل ذلك كثير من علماء الاجتماع أو التخطيط. صحيح أن مثل هذا الوضع ليس الأكثر وفرا من الناحية الاقتصادية وتكاليف الخدمات وغيرها. ولكن القائلين بهذا الرأى يرون أن الثمن الاقتصادى لا يقارن أبدا بالحياة الصحية والنفسية والسعيدة للانسان. وأنه حتى العائد الاقتصادى بالنسبة للمجتمع كله، أكبر على المدى البعيد، لو أخذ التخطيط للمستقبل بهذا الاتجاه.

ورقم ٢٠٠,٠٠٠ يمكن أن يرتفع إلى نصف مليون، بل إلى مليون. ولكن المؤكد أن أى زيادة فوق ذلك سوف تجلب معها كل شرور المدن الكبيرة، أو الحياة الحديثة، سمها كيفما تشاء.

المجتمع الاستهلاكى:

وجد الانسان ليسعد. وجزء من سعادته ونجاحه أن يستهلك. ولكن استهلاك الانسان ظل آلاف السنين متشابها. فى الطعام. فى الثياب. فى أساليب الترفيه. فالانسان حيوان مستهلك، ومختار ومجدد لما يستهلك.

ولكن ما يسمى الآن بالمجتمع الاستهلاكى أو بمجتمع الوفرة، يقصد به شىء آخر تماما. إنه تلك الأدوات الانتاجية الضخمة، التـى تمـطر الفرد كل يوم بآلاف السلع الجديدة. إنها الفرق بين ما يجده المـرء فى دكان البقال الصغير، وما يجده فى «السوبر ماركت» من آلاف الأصناف والأنواع، بكميات هائلة، وبطريقة جذابة فى العرض تصعب مقاومتها.

وإذا ذكر «السوبر ماركت» فى مجال الاستهلاك، فلأنه المكان الـذى تشترى منه ما تريد، وما لا تريد أيضا.. بفعل تأثير مشـهد العـرض، والتكدس، والاقبال والوفرة.

والمجتمع الاستهلاكى يقوم على هذه العناصر كلهـا. إنـه مجتمـع الشراء والاستغناء. كل سلعة تحل محلها بعد قليل سلعة أحدث، ترغمك على إلقاء ما لديك وشراء هذا الجـديد. ونـظرة إلـى التليفـزيون فى المجتمعات الاستهلاكية تؤكد هذا المعنى، فالشاشة بكل إغراءات فنون العرض، تقترح عليك عشرات الأصناف من كل نوع. من السـيارة إلـى معجون الأسنان.

والقاعدة المعروفة هى أن ظهور سلعة جديدة يشعرك بنقص جـديد. لم يكن فى بلد ما، مثلا، تليفزيون، ثم ظهر التليفزيون، وصار طبعا عنـد بعض الناس، وبالتالى فالآخرون يشعرون بحاجة جـديدة، بـأن شـيئا جديدا ينقصهم وهو التليفزيون. ثم يظهر التليفزيون الملـون، فيتـكرر الشعور بحاجة جديدة، إلى إلقاء الجهاز القديم وشراء جهاز جديد.

هكذا يلهث الانسان دائما لملاحقة مجتمع قائم على هذا المنـطق. وهذا يجعل الفرد أو رب الأسرة دائما تحت ضغط مسـتمر، عليـه أن يعمل أكثر. أو يكسب أكثر، أو يفعل أى شىء أكثر، لكيلا تخذله موارده فى هذا السباق الرهيب المحيط به.

ثم إن وجوه الاستهلاك هذه صارت بحكم وجـود وسـائل الاعـلام الحديثة، مقروءة ومرئية ومتحركة أمام الجميع. ووجوه تمتـع القـادرين معروضة على الناس جميعا..

وجاء هذا كله فى عصر انتشار الديمقراطية الهائل. ولا أقصـد هنـا الديمقراطية كنظام سياسى بتفسيراته المختلفة. ولكن أقصدها بمعنـى انتشار الشعور العام لدى كل الناس بالمساواة، وبحقهم فى نيـل قسـط معقول مما تقدمه الحياة. وقد أصبحت الحياة تقدم إغراءات لا آخر لها.

وتولد هذه الأمور كلها ضغوطا على الشباب أكثر من سواهم. وليس الكل سواء فى الموارد. ولكن الكل سواء فى التطلع. فهو إما أن يحاول أن يحصل على ما يراه بطريق منحرف. وإما أن يعادى هذا الذى يراه لأنه غير قادر على الاستمتاع به.

من هنا جاز القول حقا أن المجتمع الاستهلاكى سبب مـن أسـباب انتشار العنف فى الدرجة الأولى لأنه خلق قيما أخرى صار الفرد فيهـا يقاس مقداره بما يملك من سيارة أو يرتدى من ثياب أو يجـارى مـن موضات وتقاليع. وفى الدرجة الثانية، لأنه حيث يتـكدس هـذا كلـه فى المدينة الكبيرة، ويتكدس الناس فى نفس المـدينة بنجـاحهم وفشـلهم وشراهتهم أو تعجلهم أو نقمتهم.

البعض يرتكب العنف ليكدر على هؤلاء الآخـرين صـفو حيـاتهم. والبعض يرتكب الجريمة ليحصل على أى مال سريع يحصل بـواسطته على ما يريد، ويطفئ به بعض شهوات نفسه التى يثيـرها كل شـىء، والبعض يفلسف الأمر، فتتكون الجماعات السرية التى لا ترى سبيلا لها وسط هذا الخضم الهائل إلا العنف.

قيم الطبقة المتوسطة:

وقد لا يقبل القراء مني أن أقول لهم إنني شخصيا أعترف بوجود شيء اسمه قيم الطبقة المتوسطة. وأنها مهما كانت عيوبها فهي بوجه عام العمود الفقري لكل مجتمع مستقر مهما كان نظامه أو كانت ظروفه.

فالشرائح العليا من المجتمع في البلاد التي نتحدث عنها أو غيرها، تجد من الترف والراحة والرفاهية ما يفكك تحفظها وما يعطيها إحساسا باللا مبالاة، تضعف معه كثير من القيم.

والشرائح المسحوقة كثيرا ما تصل إلى نفس النتيجة من باب آخر تماما. باب اليأس من تحسن حالتها. وبالتالي عدم الاستعداد نفسيا لبذل الجهد أو وضع القيد أو رسم الهدف الذي يستحق العناء.

أما الطبقة المتوسطة. تلك الطبقة الغامضة المبهمة. التي فيها يحتدم الطموح وخوف الفشل. ورغبة التقدم وعدم التراجع. والتي بالتالي تتغير يوميا بمن يصعدون منها ويحلقون فوقها ومن يسقطون من شباكها ويتخلفون عنها.

هذه الطبقة عادة هي أكثر الفئات رغبة في التعلم. وفي العمل. وفي الاحتفاظ بحسن السمعة. حتى ولو التظاهر بالسلوك الحسن...

هذه القيم، هوجمت بالفعل هجوما شديدا ساحقا في العشرين سنة الماضية من شتى الاتجاهات.

بدأت دعواتها صحيحة ولكن كثيرا منها انتهى إلى انحراف، تحت تأثير الشعور العام برغبة التغير في العالم... ونتيجة للمجتمع الاستهلاكي الذي يتحول كل شيء بين يديه إلى تجارة.

السينما والتليفزيون تحولت من أعمال فن وأدب إلى تجارة إرضاء، ظلت تنحدر حتى وصلت أحيانا إلى أفلام الفسق الكامل.

حرية المرأة ومساواتها بالرجل انتهت إلى مجلات العري ودكاكين الجنس.

الجريمة ذاتها صارت تقدم فى صورة جذابة فى شتى وسائل الاعلام طلبا للجمهور الأكبر...

وأطلق أبناء الطبقة المتوسطة ذاتهم شعورهم فصفقوا لهم. وناموا فى الشوارع فصفقوا لهم. وهربوا من بيوتهم فصفقوا لهم. وظهروا على خشبة المسرح وشاشة السينما عراة تماما فصفقوا لهم. ومن وجد منهم أن هذا العالم صار شاذا أو مجنونا، احترفوا العنف السياسى الفردى، أولئك الذين لا صبر لهم على العمل المنظم الطويل الآن لتغيير المجتمع تغييرا حقيقيا.

ووجد هذا كله من الكتاب والفنيين من اعتبروا المرض تطورا وعالما جديدا. ولم يكونوا فى الواقع إلا تجارا يكسبون عن طريق الربح السريع، بأسلوب هو جريمة وإن كان لا يعد هناك جريمة.

فلست أصدق ــ مثلا ــ أن كاتبا وناقدا إنجليزيا جادا ومتميزا مثل «كينيث تينان»، يقدم وينتج مسرحية «أوه كلكتا!» التى وقف فيها كل الممثلين عراة لأول مرة، ولا أصدق دوافعه الفكرية والفنية التى ساقها لبدء هذه الموجة التى جلبت له الملايين. إنها دوافع تجارية لا فكرية. جاءت فى طقسها العام المناسب.

على أننا برغم كل شيء، لا نستطيع أن نضع الشباب وحده فى قفص

الاتهام، بل إن الشباب بحكم التطور لابد أن يكون أكثر ذكاء وكفاءة وقدرة من الجيل الذى سبقه.

ولكن أى عالم صنعه له الجيل الذى سبقه فى تلك البلاد التى نتحدث عنها؟

ترك له عالما من القيم المادية والاستهلاكية المحضة. عالما من الحروب القذرة. عالما صارت فيه كلمة السياسة سيئة السمعة.

هذا الشاب عاش أواخر الحروب الاستعمارية القديمة ورأى عقمها وعدم عدالتها ولا جدواها. فهو ليس ابن العصر الفيكتورى الذى كانت المساهمة فيه فى الاستعمار وراء البحار شرفا ومجدا. انكشف هذا حتى فى بلاده وصار أمرا ممجوجا..

وقد سممت حرب فيتنام وحدها - وهى حرب ذات صفات خاصة - جو العالم ما يقرب من عشرين عاما. رأى شباب أمريكا زملاءهم يموتون فى بلاد بعيدة دون ثمن ولا نهاية. ورأوا قوتهم الساحقة تنوء بكلكلها على شعب أشبه بالنمل إذا قيس بأمريكا. ولكنه يقاوم حافيا عاريا تقريبا أقوى قوة عسكرية فى التاريخ وسمع الشباب الأمريكى بعض جنرالاته يقولون عن القصف الجوى المركز «سنعيدهم إلى العصر الحجرى».

ورأى الشباب الأمريكى ومعه شباب الدول الصناعية المتقدمة سلسلة تجديد شباب أمريكا فى مجال من المجالات. اغتيالات مشبوهة، لكل من حاول اغتيال جون كنيدى رئيس الدولة. ثم اغتيال المتهم بقتله لى هارفى اوزوالد على شاشة التليفزيون. ثم اغتيال مارتن لوثر كنج زعيم حركة مساواة السود بالبيض.

ثم اغتيال روبرت كنيدى. وأيا كانت الحقيقة، فليس مألوفا أن يظل الشك يساور المواطن الأمريكى فى حقيقة هذه الاغتيالات وفى أنه قد يكون وراءها قوى أكبر بل وأجهزة رسمية. ذلك أن هذا الشك المستمر حتى الآن سواء كان مبررا أو غير مبرر، فهو ينطوى على دلالة نفسية خطيرة لدى الرأى العام. والشباب منهم بالذات.

ثم إن تلك السنوات كانت سنوات الكشف عن نشاطات المخابرات الأمريكية وغيرها فى هذا العالم المتقدم. ابتداء من اعتراف كنيدى بأن محاولة غزو كوبا من خليج الخنازير كانت أمريكية، الأمر الذى تلته سلسلة اعترافات وكشف أسرار مذهلة. ضرب بيت سوكارنو بالقنابل. محاولات دس السم لكاسترو. اغتيال لومومبا.

الانقلابات المطبوخة الدموية والتى كان آخرها فى تشيلى

وأخيرا كانت تلك السنوات سنوات الكشف عن الفساد فى الأماكن العالمية. إبتداء من ووترجيت التى كشفت عن فكرة استخدام العلم الحديث فى مطاردة وإدانة وتزوير التهم لأى مواطن، وانتهاء إلى الرشوة. رشوة نائب رئيس الجمهورية فى مكتبه وإدانته بذلك. رشوة رئيس وزراء دولة كاليابان وزوج ملكة دولة مثل هولندا. وأحزاب بأسرها فى أوروبا.

لقد انتشرت فى فترة ما أفلام جيمس بوند والجريمة الراقية. ولكن الحقائق جاءت ففاقت الخيال. فإذا كان جانب العنف تأثر أصحابه بأسباب سبق ذكرها، فلا شك أن جر الاجرام والعنف على هذا المستوى أثار آلافا من ذوى الضمائر. لقد وجدوا أن هذا العالم غير عادل. وأن القيم المعلن عنها غير حقيقية وكان طبيعيا أن يكون رد الفعل عند الكثيرين منهم هو العنف. والعمل بسذاجة على تدمير

هذا المجتمع أو تهديده وإقلاق مضجعه.

أسوق هذا الحديث، عن بلاد العالم الصناعي المتقدم، بلاد المدن المتضخمة والقيم المتضائلة والاستهلاك الوفير والتناحر المادى. أسوقه لأن معظم العالم النامي يسير فى اتجاه هذا النمط. وبالتالى فقد يكون من الخير أن نتنبه لبعض شروره من الآن...

حضارات تزدهر ثم تهوى
.. وكيف نحدد خطواتنا؟

■ هذا الموضوع، كان دائما ـ ولا يزال ـ يحيرنى كثيرا.. ويثير اهتمامى فى محاولة فهمه والبحث عن أسبابه..

وقد يبدو الموضوع، للوهلة الأولى، فلسفيا مجردا، ولكنه ليس كذلك. وهو إذا كان قد أرهق كثيرين من المفكرين، فما ذلك إلا لأنه موضوع حيوى خطير يتصل بفهم الانسان لحياته، وماضيه وحاضره ومستقبله، وهل هناك أهم من هذه الأسئلة فى تأثيرها على كل مجتمع؟

الموضوع ببساطة، هو أننا عندما نستعرض تاريخ الانسانية، ونتأمل الحضارات التى قام أقامها الانسان ـ بدرجات متفاوتة ـ فى مختلف أنحاء الدنيا، نستطيع أن نفهم ببساطة ظاهرة نشوء الحضارات وقيامها وثباتها لسنوات طويلة...

أى أن النمو والتقدم فى حياة أى مجتمع، أمر طبيعى، ومفهوم...

ولكن السؤال اللغز هو: لماذا يحدث العكس؟ ما الذى يجعل مجتمعا يصل بمقاييس عصره إلى قمة الحضارة، ثم يبدأ بعد ذلك فى الهبوط والاضمحلال؟ ـ أى ما الذى يجعل الحضارات تذبل ويجف فيها ماء الحياة بعد ازدهار؟ ما الذى يجعل نظاما متكاملا للحكم، وسطوة واسعة للدولة، وازدهارا كبيرا للعلوم والفنون والقيم السائدة.. ما الذى يجعل هذا كله ينهار، ويتهاوى، فتحل الفوضى محل النظام والجهل بعد العلم،

وقيم التخلف والتأخر محل قيم التقدم والاستنارة والعمل والعرفان؟

ظاهرة قيام الحضارات لا تثير الدهشة...

ولكن ظاهرة انهيارها وانحلالها هي الأمر الذي يبدو غريبا.

وأهمية دراسة هذه الظاهرة واضحة. فمنها نأخذ العبرة في النظر والتصرف في كثير من أمور حياتنا. وهي نظرة شاملة لابد أن نتأملها من حين لآخر، في عصر مزدحم مضطرب يغرقنا يوميا في التفاصيل المتلاحقة.

طبعا، هناك حضارات نشأت ثم لم يكتب لها النمو الثاني، فلم تلبث أن اندثرت بسرعة.. كحضارة الازتيين في أمريكا الجنوبية، وبعض الحضارات في إفريقيا.. لظروف كثيرة لم تساعد على نموها وانتشارها بالدرجة الكافية...

وهناك أيضا حضارات اندثرت تحت وطأة ضربات خارجية من قوى وتجمعات بشرية أقوى ولو بالمعنى الحربي فقط. وإن كانت حتى هذه الحضارات التي تهاوت إنما مهد لانهيارها ضعفها الداخلي، وإن كانت أكثر حضارة ورقيا، أكثر مما تسبب فيه عدوها الخارجي. فالمغول والتتار دمروا دولا أرقى ولكنها أضعف في البنية العسكرية.

وهنا قد يحسن التنبيه إلى أن كلمة حضارة تعني أكثر من مجرد القوة المادية والعسكرية. فهي مجموعة من القيم المستقرة التي يشمل ازدهارها وعطاؤها كل شيء من مجالات الحرب والسلاح إلى مجالات التنظيم والانتاج والفكر والارتقاء بالحياة الانسانية نوعا وكما على السواء. فالتتار مثلا كانوا قوة تدميرية ولكنهم لم يؤسسوا ما يسمى حضارة. فلم يتركوا وراءهم للانسانية شيئا يضاف إلى تراثها لا في

الهندسة والعمران ولا فى نظم الحكم ولا فى الفكر والفن.
على أن السؤال هو عن الحضارات الجديرة بهذا الاسم. والتى شملت عددا كبيرا من الناس ومساحة شاسعة من الأرض، وبلغت فى كل المجالات شأوا عظيما..

حضارة الفراعنة فى مصر القديمة (اندثرت قبل الفتح العربى بل وقبل الغزو الرومانى بكثير).. حضارة الصين العظيمة.. حضارة روما التى حكمت العالم المعروف وقتها تقريبا قرونا طويلة.. الحضارة العربية الاسلامية الشامخة..

لماذا حدث الانهيار؟..

السؤال مطروح الآن، وبشدة، فى أماكن كثيرة من العالم، لأن هناك من المفكرين من يرون أن الحضارة الغربية الراهنة ـ والتى تحكم العالم ويقلدها ويتطلع إليها الجميع ـ قد دخلت مرحلة الانهيار..

وهم فى هذا المجال يشيرون إلى أشياء كثيرة منها انتشار القيم المادية واختفاء الدين وانحلال الأخلاق، الاضطرابات الاجتماعية والفضائح المالية الكبرى وانتشار الأسلحة الذرية وبالتالى احتمال قيام حرب ذرية تؤخر الانسانية ألف سنة.. إلى آخره.

وأحب أن أسجل هنا للقارىء العربي عدة أمور. الأمر الأول إننى لست من المتبنين لهذا الرأى بسهولة. والأمر الثانى إنه حتى إذا كانت حضارة هذا العصر التى ولدت فى أوروبا قد دخلت مرحلة الانهيار فهذه مرحلة تستغرق فى العادة قرونا، وقد تقترن بشهوة إلى البطش بالغير. والأمر الثالث أن بعض العرب بوعى أو بلا وعى يستسهلون الأمر ويرون مستقبلنا فى عوامل انحلال الحضارة السائدة وانهيارها وهو تفكير

سلبى، غير صحيح، ويحطم حماستنا اللازمة للجهد الذى يجب أن نبذله فى التقدم..

ولكن الأمر، على أى حال، يحتاج إلى التأمل..

وكان أول من تنبأ تنبؤا قاطعا بانهيار الغرب، الفيلسوف الألمانى العظيم «أوزوالد شبنجلر»، وأعلن رأيه هذا قبل ثلاثين سنة، معززا رأيه بنظرية فى التاريخ تقول إن التاريخ الانسانى ليس خطا مستقيما إلى التقدم، ولكنه دورات متعاقبة من النمو والانحلال، وإن كل حضارة هى أشبه بإنسان.. يولد وينمو وينضج، ثم يشيخ ويذبل ويموت. ثم تبدأ دورة حضارة أخرى فى مكان آخر من العالم وهكذا..

وبلغ من تعصب شبنجلر لفكرته، أنه كان يرى الخطر آتيا من الشعوب السمراء والملونة، وهاجم فتح أبواب جامعات أوروبا لأبناء هذه الشعوب، لأنهم بذلك يتعلمون لب الحضارة الغربية ليدمروها فى المستقبل، بعد أن يكونوا قد نقلوها إلى بلادهم!

وجاء بعده فيلسوف آخر فى علم التاريخ، هو ارنولد توينبى الذى مات منذ مدة. وقد آمن فى الأساس بفكرة شبنجلر فى أن التاريخ دورات حضارية تولد وتنمو ثم تشيخ وتموت. ولكنه قال ان هذا لن يحدث للحضارة الراهنة، والسبب فى رأيه أن الحضارة الراهنة تعلمت التاريخ وعرفت الخطر فهى سوف تتمكن من أن تتجنب تكراره.

ولنتأمل مثلا دولة انجلترا، ليس فقط لأن مشاكلها تشبه مشاكل كثير غيرها من البلاد المتقدمة ـ على درجات مختلفة ـ ولكن لأنها أيضا أول دولة صناعية فى العصر الحديث. وأقدم دولة فى النظام السياسى الديمقراطى الذى يضرب به المثل فى الاستقرار ، ولأنها حتى عهد زوال

الامبراطوريات كانت أكبر امبراطورية عرفها التاريخ، ولأن شعبها فوق ذلك تميز خلال هذا كله وبفضل هذا كله بصفات اشتهر بها فى الانضباط، والاعتدال والقيام بالواجب وحب المغامرة وتحمل الأزمات والحروب..

مظاهر كثيرة نراها على السطح: التضخم. البطالة. الصراع الاجتماعي الحاد بين نقابات العمال وبين الحكومات، حتى صارت السلطة ليست مقصورة على البرلمان ومحصورة فيه، بل صارت النقابات طرفا آخر، يرغم الحكومات على سياسات غير ما يقررها مجموع الشعب «فى الانتخابات». واهتزاز نظام الحزبين العريق الذى ميزها عن سائر أوروبا بحيث صارا متقاربين أو صارت كل حكومة هى فى الواقع حكومة أغلبية. وضربت انجلترا رقما قياسيا فى التضخم من جهة وفى هبوط الاسترليني وتزعزعه ونزوله عن عرشه من جهة أخرى. وتميزت بأكبر عدد من الاضرابات فى العالم، وبالتالى تخلف انتاجها الذى تعيش عليه وسبقتها دول أخرى كثيرة.

أكثر من ذلك إن هذه الأزمات كلها، التى أنقذتها من الافلاس أحيانا بنوك أوروبا وأمريكا مجتمعة بقروض جعلتها من أكثر الدول استدانة.. دفعت إلى السطح فجأة نزعات انفصالية، وأحيت معارك حسمت منذ مئات السنين، فعاد الكاثوليك يحاربون البروتستانت فى شمال أيرلندا، ووجدت اسكتلندا أن البترول ظهر فى بحارها فظهرت فيها حركة انفصالية قوية، والنزعات المتطرفة فى ويلز لاحياء اللغة المحلية والشخصية المحلية التى كان أصحابها يعتبرون مجانين، صار لها وجود ونواب فى البرلمان.. «فالمملكة المتحدة» مهددة بأن تعود ممالك غير متحدة..

وعندما تفاقم اضراب عمال مناجم الفحم ـ الذى أدى إلى إسقاط حكومة المحافظين ـ ظهرت فى انجلترا معقل الديمقراطية ـ منظمات أهلية شبه حربية، يقودها جنرالات سابقون، استعدادا للمواجهة مع النقابات، وللاستيلاء على المرافق العامة بالقوة إذا دعت الحاجة، ونفذ العمال إضرابا شاملا أوقف عجلة الحياة تماما فى البلاد.

تمزقات عنيفة جدا وحادة، فى مجتمع عرف بخبرته فى تخطى أزماته، بدأت تهدد نسيج الشعب البريطانى ذاته. فظهر زعماء متطرفون مثل «اينوك بويل» يدعو إلى طرد كل غير الانجليز من انجلترا، فى حين أن الانجليز صاروا يستنكفون القيام بأعمال يدوية كثيرة لابد منها ولا يقبل بها إلا المهاجرون الأفارقة والآسيويون، وظهر زعيم آخر مثل «كيث جوزيف» يدعو إلى حل عنصرى على الشعب الانجليزى نفسه حين قال إن المشكلة هى أن نسبة التناسل بين الطبقات الفقيرة الانجليزية تفوق نسبة التناسل فى الطبقات الأعلى، وهذا يهدد بالهبوط «بنوعية الشعب الانجليزى»!

وفى نفس الوقت انتزعت لندن من عواصم أخرى الأولوية فى ميدان الاباحية الأخلاقية.. ففيها ظهرت أول مسرحيات للعراة تماما، وفيها سمح تحت الضغط باستخدام الألفاظ النابية فى الاذاعة والتليفزيون، وصارت لندن بوجه عام عاصمة اللهو سابقة بذلك باريس وغيرها.

وامتلأت الثقافة الانجليزية بالسخرية من تاريخ انجلترا الامبراطورى، وانتشرت المسرحيات التى تسخر من رموزها المقدسة مثل كيتشنر وغيره، وجوهر الحملة أن أهداف المجتمع فى الماضى، المجد والأولوية والتفوق والنفوذ، أهداف سخيفة، إنما الهدف الوحيد الجدير بالانسان هو: اللذة! ومن أقصر وأسهل طريق.

وهنا فى الحقيقة مربط الفرس، كما يقولون...

وباتفاق أهل الرأى فى كل مجال، أن كل الأمراض الاقتصادية وغير الاقتصادية تكمن فى أشياء أعمق وأهم.

أولها أن الشعب الانجليزى صار يستهلك أكثر مما ينتج، وبالتالى فلا بد له أن يستدين، غير حاسب أى حساب للغد..

وثانيها أن الفرد صار يطالب بحقوقه فى كل متع الحياة ولو كان سبيله إلى ذلك الامتناع عن قيامه بواجباته..

وثالثها أنه فى حيرة من هويته، هل هو مع الكومنولث وما وراء البحار؟ أم أنه جزء من أوروبا التى كان يزدريها، ولابد أن يتنازل عن جزء من حريته لها؟ أم الأسهل من هذا وذاك أن يستسلم للتبعية الأمريكية ويصبح أشبه بولاية من ولاياتها؟

والتنبؤات فى هذا المجال قديمة..

فمنذ ما يقرب من مائتى سنة قال نابليون إن أوروبا شاخت. وإن القوة الآتية تكمن فى مكانين كانا بكرا: أمريكا بشبابها الطاغى، وروسيا (القيصرية فى ذلك الوقت) بذلها الشديد الذى لابد أن يتفجر عن شىء جديد قوى!

وقبل خمسين سنة نجد فى إحدى مسرحيات برناردشو مشهدا يدخل فيه السفير الأمريكى مبتهجا على ملكة انجلترا يعلنها بخبر مثير: أن أمريكا قررت انهاء انفصالها عن انجلترا والعودة إلى الولاء للتاج.. وحين تبدى الملكة دهشتها يرد السفير قائلا: إن هذا سيتم فى مقابل أمر بسيط هو أن تنتقل الملكة ـ والتاج ـ إلى أمريكا!

والمعنى واضح فى أنه يشير إلى دخــول انجلتــرا فى فلك أمــريكا وتبعيتها لها..

المهم.. نعود إلى التشخيص الأصلى وهو أن الشعب الانجليزى، عبر التطور، انهارت مجموعة القيم والمثل التى كانت توجه حياته، ولم تحل محلها ــ بعد ــ مجموعة قيم ومثل أخرى مشكلة العصر الراهن.

وسادت فلسفة اللذة، تلك الفلسفة «الرواقية» المــدونة مــن أيــام الاغريق، واللذة فى المجتمع الانجليزى لم تعد كما كانت، لــم تعــد فى العمل، أو الكسب، أو الفتح، أو الاستكشاف، بل لذة الاســتمتاع بــكل ماتتيحه الحياة الحديثة من سلع استهلاكية ووسائل ترفيه، وعلاقات حرة خالية من كل ضوابط اجتماعية.

وفى هذه الأشياء ما يمس مجتمعات متحضرة كثيرة، وفى تقــديرى أن سيادة القيم المادية سيادة مطلقة واعتبار عنصر التحضر الــوحيد هــو إعادة ــ من مادية القوة المسلحة إلى مادية الكسب واقتناء السلع إلى مادية غلبة اللذات الحسية على سائر أنواع المتع الانسانية والاجتماعية والذهنية.. بل واقتران فكرة الحضارة بالمادة فقط، فى تقديرى أن هــذه العلة هى جذر الجذور فى اختلال دورة الحيــاة فى شــجرة الحضـــارة، وبوادر ذبول فروعها وأغصانها، وتساقط بعض أوراقها..

ولهذه الظاهرة التى تزداد طغيانا كل يوم، أمثال فى نهايات حضارات سابقة..

وننظر إلى مجتمع آخر صناعى ، يعتبر بالمقاييس المــادية نــاجحا جدا، بل أنجح نموذج معاصر، وهو اليابان..

هناك توجد مشاكل انجلترا الاقتصادية بهذا الشكل

وهناك مجتمع ظل متخلفا، تقليديا، مغلقا، إلى ما يقرب من مائة سنة، ثم صار خلال قرن واحد فى المقدمة، ويضرب بـه المثـل فى النجـاح والكفاءة..

ولكن من أعجب ما قرأته أخيـرا تقـرير لجـريدة «الاوبـزيرفر» الانجليزية من اليابان، يتحدث عن ظاهرة انتشرت فى اليابان، وهـى وأد الأطفال الرضع بأيدى أمهاتهم!

ويقول التقرير إن الدولة اكتشفت مائتى حالة على الأقل أقدمت فيها الأمهات ـ وكلهن شابات متزوجات ـ على قتل أطفالهن قبل أن يتمـوا سنة واحدة من العمر، وإن علماء النفس والاجتماع فى اليابان فى حـالة ذعر وحيرة إزاء هذه الظاهرة!

وقد عرفت بعض المجتمعات، فى عصور سحيقة، ظاهرة وأد الأطفال..

ففى بعض القبائل العربية ـ فى الجاهلية وقبل الاسلام ـ كان يتـم وأد البنات، أى دفنهن أحياء حتى الموت، لأن البنـت كانـت تقتـرن بالمسئولية وعدم الكسب واحتمال العار، حتى جاء الاسلام فحرم الـوأد تحريما قاطعا بنص قرآنى صريح..

وفى اليونان القديمة، كانو يضعون الأطفال عرايا على سفوح الجبال، ليموت الضعيف ولا يعيش إلا القوى.

وكان الفقر أحيانا هو السبب . ففى أيام انحطاط الصـين وانتشـار البؤس والفيضانات والمجاعات وجدت ظاهرة وأد الأطفال أو بيعهم لأسر غنية تتكفل لهم بالرزق..

ومع أن الجريدة تقول إن عادة وأد الأطفال الرضع وجدت على نطاق

ضيق فى تاريخ اليابان القديم، إلا أن هذه الظاهرة جديدة تماما. فاليابان الحديثة التى نعرفها اليوم ليس فيها مشكلة الفقر الذى يدفع الأم إلى قتل طفلها، ثم إن معظم الأمهات شابات، وعلى درجة من التعليم وأكثرهن يعملن إلى جانب الزوج ويشاركن فى المجتمع..

والغريب أننى أذكر عندما زرت اليابان، أننى كتبت أنها البلد الوحيد فى العالم الذى نجح فيه تحديد النسل. فليست هناك موانع دينية تقف فى طريق أى تشريع. وبالتالى استخدمت هناك كل الوسائل ابتداء من إباحة الاجهاض وانتهاء بالتعقيم المطلق ضد الانجاب.

ولكن التفسير الذى يعطيه الاجتماعيون لهذه الظاهرة ـ مهما كانت قلتها ـ أن المرأة الحديثة صارت مشدودة إلى قيم المجتمع الراهن من رفاهية مادية وحرية واستمتاع أنانى بالحياة إلى أقصى الحدود، لدرجة تجعل بعضهن يقدمن هذه الأشياء على عاطفة الأمومة الأزلية الخالدة، بأهميتها البالغة فى بناء الأسرة والحياة والمجتمع.

.. مرة أخرى، نموذج صارخ على طغيان المعيار المادى والاستمتاع الشخصى المباشر على أى شىء آخر.

هل هو النموذج الوحيد

وهذا كله يطرح على الانسانية سؤالا، لعله أهم الأسئلة الفكرية اليوم:

هل النموذج الحضارى الذى نراه الآن هو النموذج الوحيد الذى كتب على الانسانية أن تقتفى أثره وتقلده حتى ولو قادها إلى الهلاك؟

أم أن هناك نماذج أخرى وقيما أخرى يمكن البحث عنها؟

وهذا سؤال يهمنا، نحن العرب بالذات.. لأننا ورثة حضـارة كبـرى ولأننا مؤهلون لأن نلعب دورا آخر عظيما، ولأننا فى مرحلة انتقال، ولا بد أن نشارك فى النقاش العالمى الدائر حولنا.

ولكن هذا سؤال، قد يحتاج إلى حديث آخر..

العالم كله ضد..
الوحدة العربية!

● عندما تفضل الاخوة المسئولون عن تنظيم الموسم الدبلوماسى السنوى فى دولة الامارات بدعوتى لالقاء محاضرة افتتاح الموسم.. اختاروا لى موضوعا، غاية فى الصعوبة وغاية فى السهولة.. وهو موضوع الوحدة العربية..

وأعترف بأننى لم انتبه إلى المأزق، من أول وهلة، الوحدة العربية، لقد طال شوقى إلى الاستماع إلى هذه الكلمة، لقد شعرت وشعر غيرى، أن هذه الدعوة التى نشأنا عليها. قد نسيها الناس، وطمستها كثبان الأيام.

المأزق من ناحية فى أن عنوان الوحدة العربية فى حد ذاته واسع جدا. متشعب جدا. لا يمكن الاحاطة به فى محاضرة، ولا فى كتاب، فالخوض فى الحديث، تحت هذا العنوان الواسع، كالقبول بالسباحة فى بحر لا قرار له ولا ساحل يحده، ولا مرفأ نرسو فيه.

والمأزق من ناحية أخرى، هذا الشعور الذى تحدثت عنه. ألم تخمد الجذوة تحت وطأة الأحداث؟ ألم تتبدد أعظم فكرة فى أخطر سكرة؟ ألم يمل الناس من الحديث عن شىء لا يتحقق؟ ألم يتعب سكان السفينة التائهة من طول انتظار الوصول إلى مرفأ، أى مرفأ

ما هو الجديد الذى يمكن أن يقال، لا يعرفه الناس، عن الوحدة العربية؟

ما هي الحجج الجديدة التي يمكن أن تساعد للاقناع والناس مقتنعة كل الاقتناع، وقد ينقصها أي شيء إلا الاقتناع بهذه القضية بالذات؟...

لا أظن أن المواطن العربي، في أي مكان، في حاجة إلى معرفة أو إلى اقتناع وفهم، بل إن الشيء الوحيد الذي لا يفهمه المواطن العربي في قضية الوحدة العربية، هو: لماذا لم تتحقق هذه الوحدة بعد؟.. والسؤال الوحيد لديه هو: ماذا ننتظر؟ ما الذي يجعل الاقليمية قادرة على البقاء على قيد الحياة، سواء بين الأقطار العربية المختلفة أو أحيانا داخل القطر العربي الواحد. من الذي يعرقل الاتحاد والاندماج هنا في دولة الاتحاد، نحن أو غيرنا؟ من الذي يجعل الاخوة يقتتلون في لبنان، نحن أم غيرنا؟ من الذي يوجد خلافات على الحدود بين أقطار عربية.. أحيانا على أمتار قليلة.. نحن أم غيرنا؟ أين هذا مما كان يملأ قلوبنا من إيمان قديم، بأنه يكفي أن ينسحب الاستعمار، ويرفع يده الغليظة عنا، حتى تتحقق الوحدة، متوالية متعاقبة، جارفة في سبيلها أي عقبة حقيقية أو مصطنعة؟

تلك في تقديري، هي الأسئلة التي قد تطوف بعقل المواطن العربي أو تؤرق ضميره، حول قضية الوحدة العربية.

الوحدة العربية تجاوزت مرحلة التعريف.. وتجاوزت مرحلة التبشير...

من أجل هذا، كان لا بد أن أحاول أن أختار بندا واحدا من البنود التي تندرج تحت عنوان «الوحدة العربية» أو أن أحدد عنوان الحديث بعض الشيء، وقد خطر لي أن يكون «الوحدة العربية إزاء العالم».

خطر لي هذا العنوان «الوحدة العربية إزاء العالم»، لأن لدى قضية

أريد أن أقولها تحت هذا العنوان. قضية لعلنا نعرفها ولكننا أحيانا ننساها، قضية لعلها ترد على بعض هذه التساؤلات التى ذكرت أنها تطوف بعقل المواطن العربى، وتزعج ضميره...

أريد أن أقول فى بساطة وصراحة وإيجاز: إن العالم كله ضد الوحدة العربية !!

نعم!.. العالم كله ضد الوحدة العربية. أقول هذه دون أدنى رغبة فى الاثارة أو المبالغة أو إعطاء أنفسنا أهمية أكثر مما يجب. وأبادر أيضا فأسجل أننى لست من الذين يحبون أن يروا الأشباح والمؤامرات وراء فشل يصيب قومهم. ولست من الذين يستسهلون الحياة بتعليق المسئولية على أقرب شماعة كالاستعمار أو خلافه. كلا.

إنما أقول بكل مسئولية وعقلانية. وأقوله وأنا مؤمن فى نفس الوقت أن كون العالم كله ضد الوحدة العربية ليس معناه أنها مطلب مستحيل. ولذلك ربما كانت الصيغة الأكثر توازنا واكتمالا أن أقول: العالم كله ضد الوحدة العربية. ولكن هذا لا يمنع العرب ـ لو أرادوا ـ من تحقيق وحدتهم.

وإذا كنت أركز، على نقطة واحدة، وهى معارضة العالم بوجه عام لقضية الوحدة العربية، فإنما أحاول أن أوضح بذلك أن الوحدة العربية أخطر وأهم بكثير جدا مما يظن البعض. فهى ليست كلمات جميلة، ولا هدفا سهلا، ولا تتحقق باتفاقات هزيلة، ولا بقبلات بين رؤساء الدول، وإنما هى تحتاج إلى نضال، وصبر، وعمل، ودهاء، وعيون مفتوحة على كل مناورة خارجية، وكل شرك منصوب.

● ● ●

ولكن، لماذا؟...

لماذا يكون العالم كله ضد تحقيق أمنية عزيزة على أمة من الأمم، كالأمة العربية؟...

لا يمكن طبعا، فى هذا الحديث، إلا أن نقف عندما يمكن أن نسميه الأسباب الرئيسية، إذ لا يتسع المجال لأن ندخل فى كل التفاصيل...

وأول نقطة تستوقفنا هنا، هى أن السياسة الدولية بوجه عام، وعلى مر العصور، كانت تكره قيام الكيانات الضخمة الكبيرة، فما قام منها إنما قام إما بحد السيف، وإما لتوافر ظروف مساعدة كثيرة.

ينسبون إلى كيسنجر أنه صاحب سياسة إقامة الاستقرار فى العالم على أساس من «التوازن الدولى». ويقول آخرون إن كيسنجر لم يكن فى هذا إلا تلميذا للسياسى النمساوى «ميترنيخ» الذى برز فى الامبراطورية النمسوية عقب حروب نابليون، والذى حقق أطول مدة من السلام فى أوروبا التى كانت تتحارب باستمرار، عن طريق «التوازن الدولى».

ولكن قبل كيسنجر، وقبل ميترنخ، كان معروفا أن انجلترا، كانت أحد أسس سياستها الخارجية دائما، هى إقامة نوع من التوازن الدولى خصوصا فى أوروبا القريبة منها. كانت سياسة إنجلترا وما تزال أن لا تقوم فى أوروبا دولة مسيطرة على بقية القارة، بأى نوع من السيطرة، لأن فى نمو مثل هذه القوة ما يهدد مصالحها فى أهم منطقة بالنسبة لها. نابليون لم يطلب معاداة إنجلترا، هتلر لم يطلب معاداة إنجلترا، ولكن إنجلترا كانت دائما إذا بدت قوة صاعدة جمعت الآخرين فى تحالف، لحصر هذه القوة، وإعادتها إلى حجمها. ولا تذهب إنجلترا إلى الحرب وحدها أبدا، وحين نقرأ تاريخ أى حرب، ونجد طرفا من المحاربين

يسمى «الحلفاء» فلا بد أن نجد فيه إنجلترا. تلك كانت فلسفتها التى حكمت بها العالم أكثر مما حكمت بأسطولها. حين كانت الامبراطورية العثمانية توشك أن تهزم روسيا القيصرية كما فى حروب القرم وغيرها، كانت تصنع تحالفا من سائر قوى أوروبا يقف مع روسيا ضد الامبراطورية العثمانية. وحين أوشك محمد على الكبير الزاحف من مصر إلى الشام أن يهدد الأمبراطورية العثمانية، جمعت تحالفا آخر وفيه روسيا ضد محمد على لابقاء التوازن بينه وبين الخليفة العثمانى. وفى وجه نابليون جمعت روسيا والنمسا وألمانيا. وفى وجه غليوم الثانى سنة ١٩١٤ ثم هتلر سنة ١٩٣٩ جمعت روسيا وفرنسا وأمريكا وسائر أوروبا، فهى لم تحارب مثلا سنة ١٩٣٩ لأن هتلر هاجم بولندا. بل لأنه بعد أن ابتلع النمسا ثم تشيكوسلوفاكيا ثم بولندا صار تركه خطرا يهدد بتحول ألمانيا إلى تلك القوة الكبرى التي تهدد التوازن المحسوب.

وعادة، القوى الكبرى فى أى عصر، هى المستفيدة من الوضع الدولى القائم، هى التى يهمها إبقاء التوازن كما هو.. وهى التى تعارض قيام قوى كبرى جديدة إلى جانبها..

والقوى الكبرى تعبير لن استخدمه هنا بالمعنى العسكرى فحسب. ولكن بالمعنى الاقتصادى أيضا، الذى هو الهدف المهم فى الحقيقة، ومحور الصراعات الدولية عبر معظم العصور.

وما هى سياسة المعاهدات والتحالفات منذ قديم الأزل؟ إنها إما معاهدة بين طرفين قويين، تمنع الصراع بينهما، حتى لا يستفيد من تناحرهما طرف ثالث، أو تحالف بين دولتين أو أكثر لاحتواء أو اتقاء خطر قوة أخرى تشكل تهديدا مشتركا بالنسبة لأطراف التحالف.

وإذا كنت ضربت مثلا سريعا موجزا بانجلترا، فلأنها كانت الدولة

الأقوى والأعرق والأمهر سياسيا فى العالم، خلال الأربعة قرون الماضية تقريبا. فهى النموذج الأكبر، وإن كان قد حل محلها غيرها. فى عالم اليوم.

وليس هناك ما هو أكثر فعالية فى الحيلولة دون قيام قوة جديدة كبيرة، أو فى تدميرها، من عملية تقسيمها أو تفكيكها. وهنا أيضا نعرض لأسلوب تعرفه السياسة الدولية جيدا.

فالولايات المتحدة الأمريكية، القوة الكبرى فى عالم اليوم. قامت بمساعدة ظروف كثيرة، أبسطها بعدها البعيد عن أوروبا فى عصر لم يكن العلم فيه قد تقدم بعد، بل إنها قامت فى غفلة عن العالم القوى، فى وقتها أوروبا كانت مشغولة بحروبها وثوراتها، وأحدا لا يتوقع أن تتحول تلك الأرض الفضاء إلى الكيان الضخم. حتى أن الولايات الاثنتى عشرة التى بدأت فى أمريكا كانت أحيانا تشترى ولا ية بأكملها من فرنسا أو من غيرها بما يساوى ٢ أو ٣ ملايين دولار.

القوى الكبرى الثانية، روسيا القيصرية، وخصوصا عندما بدأت تتحول إلى الاتحاد السوفيتى، جرت هجمات انجليزية وأمريكية وبولندية كثيرة فى محاولة لتفكيكها خلال فوضى الثورة وضعفها.

والنموذج الماثل أمامنا ألمانيا. فالشعب الألمانى هو أكبر الشعوب عددا فى قلب أوروبا. وله صفات عريقة فى القوة والانتظام جعلته دائما قابلا للتفوق ماديا وصناعيا وعسكريا. لذلك ظلت كل دول أوروبا الكبيرة المحيطة تمنع ألمانيا من التوحد وتجعلها دائما دويلات وإمارات صغيرة، حتى وحدها بسمارك كما نعرف بمزيج من القوة والدهاء. ولما تكرر خطر ألمانيا مرتين فى الحربين الأولى والثانية، كان الحل الذى اتفق

عليه الجميع ، شرقا وغربا، هو تقسيم ألمانيا. وحتى الآن ربما كانت أمريكا وحدها التى لا تعارض توحيد ألمانيا لأن خطرها سيكون موجها إلى روسيا. وسيؤثر على وضع كل المعسكر الشرقى فى شرق أوروبا، ولكن فيما عدا أمريكا فإن كل دول أوروبا بلا استثناء، شرقية وغربية، تريد أن تبقى ألمانيا مقسمة إلى دولتين. فألمانيا فى الواقع بشعبها الكبير، المتقدم، القوى، أو لأنها كذلك، لم تعش دولة موحدة أكثر من حوالى سبعين سنة فقط!

مثل آخر يستحق أن يكون موضع دراسات عديدة وما زالت كثير من أسراره مطوية وهو انهيار الامبراطورية العثمانية.

لا نملك فى هذا المجال، إلا أن نتحدث عن خطوط عريضة جدا. ولكنها تكفى لأنها تتصل بسياق حديثنا...

كانت الامبراطورية العثمانية مكروهة بغير شك من دول ذلك العصر وامبراطورياته القوية، روسيا القيصرية. امبراطورية النمسا. فرنسا. انجلترا، وكان يكفى لكراهيتها إنها كانت تجسد المد الاسلامى. وتدمير بيزنطة نهائيا. واحتلالها لمناطق يعتبرها الآخرون أولى بهم، خصوصا البلقان كله، حتى قلب أوروبا. وإنها من ناحية أخرى تشغل بقعة بالغة الأهمية، هى نقطة الوصل بين الشرق والغرب. خصوصا بعد أن انفتحت مستعمرات الشرق لصناعة الغرب وتجارته.

كانوا لا يكفون عن التآمر ضدها. والعمل على ضعضعتها وتخريبها من الداخل. والحصول على امتيازات فى قلبها هنا وهناك. وبث الفتن الدينية والعنصرية فى أرجائها. وفى بعض المذكرات القديمة وخطابات قناصل تلك الدول الكثير والرهيب، مما يشير إلى ذلك.

وفى نفس الوقت، كانوا إذا وجدوا أن الامبراطورية العثمانية، مهددة بحركة تجديدية من داخلها، يسارعون إلى الوقوف إلى جانب الباب العالى. ويساهمون فى توطيد سيطرته. لماذا؟ كانوا يريدون أن تبقى الامبراطورية كما سموها رجل أوروبا المريض، وكانوا يريدون للرجل المريض الموت ولكن فى الساعة التى تناسبهم والظروف المواتية لهم، حتى يقتسموها هم، فلا تستعيد صحتها أو تسترد شبابها مع حجمها الضخم الكبير. هكذا تحالفت أوروبا كلها مثلا ضد محمد على الكبير الذى كان يمثل قوة فتية نامية فى إهاب الامبراطورية العجوز، وهكذا تحالفت نفس الدول على خداع الثورة العربية بعد ذلك فى الحرب العالمية الأولى، موهمة لها أنها ستحقق أملها فى استقلال المشرق العربى موحدا، بينما كانوا قد وقعوا بالفعل معاهدة سايكس بيكو لتقسيم المشرق العربى إلى دول وتفاهموا بالفعل مع الحركة الصهيونية لاعطائها فلسطين. وهذا ما كان.

إذن فالذى نستخلصه من هذه الأمثلة... أن هناك حقيقتين قديمتين جديدتين، من حقائق السياسة الدولية، وهما مقاومة ظهور أى قوة جديدة من قبل القوى القائمة لأنها تربك التوازن القائم، وتقلل من فعالية القوى القديمة، وإن التقسيم أو الابقاء على عوامل الانقسام أحد أهم الأسلحة التى تستخدم لتحقيق هذا الغرض فى كل زمان ومكان.

.. فإذا كانت هذه من القواعد الأساسية فى لعبة الأمم.. فلست أدرى لماذا نعتبرها غير موجودة بالنسبة لنا، ولماذا لا نتوقع أن يكون مجرد احتمال قيام قوة عربية كبرى فيه ما يثير مقاومة الآخرين؟ خصوصا وأن الأمر فى حالتنا أشد. أى أنه فوق هذه القواعد العامة للعبة السياسية الدولية، هناك أشياء خاصة بنا تجعلنا يجب أن نتوقع مقاومة

أشد، وما هو سوف أصل إليه بعد قليل.

ففى حدود القواعد العامة أيضا للعبة الأمم، مـا يجـب علينـا أن نفصله ونستوضحه قليلا...

فنحن نقول العالم ضد الوحدة العربية بوجه عام. ولكن العالم يتكون من دول ومعسكرات، وهى دول يمكن تقسيمها أو تصـنيفها تصـنيفات مختلفة. وكل نوع أو صنف منها قد يكون له رد فعل مختلف.

فمن ناحية القوة، بكل معانى القوة عسـكرية واقتصـادية وعلميـة وعددية، نجد عندنا:

أولا ـ دولتان كبريان. هما الولايات المتحدة الأمـريكية والاتحـاد السوفيتى. مثل هاتين الدولتين لا يمكن أن نتصور أن تتقبل إحـداهما ببساطة فكرة قيام دولة أو كيان أو كتلة قوية متراصة مترابطة ممتدة من المحيط إلى الخليج. وهنا نأتى إلى بعض تلك الصفات الخاصة بالوحدة العربية والتى تجعل القبول بها أصعب. فهذه الرقعة ليست فى أى مكان من الأرض. ليست فى أمريكا الجنوبية أو فى اسـتراليا، إنهـا فى قلـب العالم. تشرف على الخليج، والمحيط الهندى، وتحكم البحر الأحمر كله، ولها نصف شواطئ البحر الأبيض المتوسط وتطل شواطئها على المحيط الأطلنطى، والأمر الجديد أنه صار لديها أكبر وأهم مخزون عالمى لأهم سلعة استراتيجية فى العالم وهى البترول. أليس التعامل مع هذه الـدول فرادى أسهل مائة مرة من التعامل معها ككل واحد؟..

إذا أرادت روسيا طريقا إلى البحار الدافئة فهى لا بد أن تفكر فيها، وإذا أرادت أمريكا أن تحمى طرق تجارتها الدولية وتجارة معسكر الغرب والشريان الذى يمد إسرائيل بالحياة فلابد أن تفـكر فيهـا. وبـالنسبة

للطرفين فالتفكير فى هذا الكيان موحدا هو بالتأكيد فكرة مرعبة وكابوس مزعج.

وبعد الدولتين الكبيرتين تأتى الدول الصناعية المتقدمة فى أوروبا أو كندا أو اليابان، وهى ليست بعيدة عن تلك الدولتين الكبيرتين وبالتالى ليست بعيدة عن ردود فعلهما، فضلا عن أسباب خاصة بأوروبا بالذات، سوف أعرض لها بعد قليل.

ثم هناك الدول النامية، وقد تكون مقاومتها للفكرة أقل أو هى غير قادرة على مقاومتها وإن كان يمكن أن نتصور أنها لا تتحمس لها.

ثم الدول الأشد فقرا، وهى بند جديد فى جدول الدول دخل القاموس الدولى، ولكنها لا تختلف كثيرا عن المجموعة السابقة.

تقسيم أو تصنيف آخر، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول مجاورة وقريبة منا، ودول بعيدة عنا، هنا أيضا ربما نجد دول أمريكا الجنوبية لا يزعجها كثيرا قيام وحدة عربية فى أى صورة من الصور. أما الدول المجاورة للحدود العربية أو التى تشترك مع الدول العربية فى بحار واحدة، فهى بالغريزة وبالطبيعة، شأن كل دول العالم لا تحب تعاظم قوة الجار القريب ولا ترتاح مستقبليا إليها. فهى لابد أن تكون فى صف المقاومين لها، ما أمكنها ذلك.

تقسيم ثالث، يمكن أن نصنف به الدول إلى دول ترى أن رسالتها فى خدمة نفسها ومصالحها فحسب. ودول ترى أن لها فوق ذلك رسالة عالمية، وضعها كدولة كبرى دورا آخر فى نشر المذهب الماركسى الذى ترى أنه النظام المناسب لعالم الغد. والغرب يرى أن لديه رسالة يسميها الحضارة الغربية المسيحية ، بكل مقوماتها التى نعرفها، ومعظم

الأحزاب فى أوروبا الغربية اسمها Christian Democratic هذا هو الاســم الذى تطلقه الكتب على مجموعة القيم التى ارتبطت بقيــام الحضــارة الغربية ونشوئها. وفى هذا المجال، يرى الاثنان، أن العالم العربى يخلق لهما مشكلة. فهو ليس أرضا عارية من حضارة متكاملة سابقة، وعــالمية الرسالة أيضا، وهى الحضارة العربية الاسلامية، ومن الطبيعى أن ينظرا إلينا فى القليل نظرة تنافس أو عدم ارتياح، لأن أى بلد له حضارة شرقية لا بد أن تؤثر فى نمط تقبله حتى للدعوات الجديدة. فالماركسية مثــلا، بنت الحضارة الغربية، لم تنقلب إلى لون جديد، منافس، مختلف، حــاد فى اختلافه، إلا فى الصين، لأنها بدورها كيان ضخم ذو حضارة شــديدة الخصوصية، ولا أحد يعرف إلى أين ستنتهى التجربة هناك، ولكن أحدا لم يكن يتصور أن مشكلة روسيا العظمى سوف تكون مع الصين!

تقسيم رابع، يمكن أن نصنف به الدول، إلى دول لها معنــا ســابق تاريخ واحتكاك، ودول ليس لها معنا مثل هذا التاريخ.

فهناك، مثلا الدول الافريقية، أو بالتحديد الحزام الافريقى الذى يلى الشمال العربى الأفريقى مباشرة. هنا نجد منطقة مختلطة، مناطق مسلمة ومناطق مسيحية ومناطق وثنية. مناطق يجرى فى عــروق أهلهــا الــدم العربى بوضوح، ومناطق زنجية خالصة، فتلك كانت نقطة الالتقاء ومعبر الهجرة والتجارة والتعامل أيام المد العربى. وفى تلك المناطق يوجد حب للعرب، أول من نقلوا لهم تاريخيا أنوار الحضارة، وفيه كراهية مصدرها ما يقال عن تجارة الرقيق، وهى نقطة حاول الاســتعمار الأوروبــى أن يغذيها هناك حتى يقيم حاجزا بيننا وبينهم. وإن كانت مساعدة العــرب لحركات التحرر الافريقى فى القرن العشرين قد أزالت الكثير من أثر تلك التركة، إلا أن بعضها قائم.

وهناك جار آخر، ذو أهمية خاصة، هو جارنا الشمالي، الذى يفصل بيننا وبينه البحر الأبيض المتوسط أو بالأحرى يجمع بيننا وبينه البحر الأبيض، وهو أوروبا.

ولا أريد أن أعيد هنا ما كتبته فى مجلة «العربى» ـ عدد أغسطس ١٩٧٦ تحت عنوان «نحن نعيش الحرب الصليبية العاشرة».. من استعراض شامل للحروب الصليبية، كمواجهة بين حضارات استمرت قرونا، وتركت آثارا عميقة لدى الجانبين...

ولكن العبرة العامة، أن «أوروبا قوية» كانت تحب أن ترى دائما عالما عربيا ضعيفا. لأن عالما عربيا موحدا كان يعنى إضعاف أوروبا.

والظروف السياسية والاقتصادية تغيرت بالطبع. ولكن الرواسب لا تموت بسهولة. وقد يهم الأوروبيون بترولنا. ولكن قد تزعجهم وحدتنا على وجه اليقين.

.. وبعد، فإننى أقول هذا كله لا لبث اليأس من قضية الوحدة العربية، ولكن لكى أنبه العرب جميعا إلى أننا حين نفكر فى الوحدة، بأى شكل وعلى أى مستوى، فنحن نفكر فى مشروع من أخطر مشروعات التاريخ كله! وعلى هذا المستوى يجب أن يكون التفكير فيه.. والعمل من أجله.

رقم الإيداع		١٨٧٠ / ١٩٨٤
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-٠٧٣١-٤	ISBM

٢ / ٨٣ / ٦٥٣

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)

شرعية السلطة

لقد حاولت جهدى ، أن تكون موضوعات هذا الكتاب تلك التى تتصل بقضايا مازالت تعيش معنا ، ولعلها ستعيش معنا طويلا ، لأنها متعلقة بالأفكار والمبادئ والملامح الأساسية ، والتى لم يتوصل المجتمع العربى فيها إلى صيغة مرضية للمواطن العربى إلى الآن . والتى ستبقى محل جدل حتى يجتاز عالمنا « مرحلة الانتقال » التى يمر بها ..

أحمد بهاء الدين